بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يا من بيده ملكوت الأرض والسماء وإليه يتشوق ويدور الأشياء يا حي يا قيوم إياك نروم ولك نصلي ونصوم أنت قيام الوجود وفائض الخير والجود ومنزل البركات والخيرات وغاية الميول والحركات ومبدأ الأشراق ومنتهى الأشواق ومدبر الأمور ونور النور وواهب حياة العالمين وجاعل السماوات والأرضين أيّدنا بأنوار كلماتك ونور قلوبنا بأسرار كتابك وآياتك وطهر نفوسنا من غسق الطبيعة والجهالة وأخرجنا من رجس عالم الظلمات إلى مشاهدة أنوارك ومعاينة أضوائك ومجاورة مقربيك ومصاحبة سكان ملكوتك ومسبحيك واحشرنا مع النبيين والصديقين سيما محمد المبعوث إلى كافة الخلائق أجمعين وأهل بيته الأطهرين الأنجبين عليهم أشرف صلاة المصلين وأزكى تسليمات المسلمين.

أما بعد فيقول أنزل خلق الله وأحوجهم إلى كرامة رب العالمين «محمد المدعو بصدر الدين» (**هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)» ، هذه أنوار علوم إلهية وأسرار مسائل ربانية ومقاصد قرآنية مستفادة من آيات الكتاب المبين النازل إلى الخلق من عند رب العالمين ، وهي مفاتيح ينفتح بها باب الجنة والرضوان ويظهر بها كنوز خزائن الرحمن ويعاين بها جواهر عالم الملكوت وينكشف بها أنوار عالم الجبروت فيها قرة عيون السالكين وشفاء صدور المؤمنين الموحدين ومرض لقلوب الجاحدين المنكرين وفيها

هــدى للمتقين وعمي وغشــاوة على أبصــار المنــافقين المتكبرين ، (**يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِـلُّ بِـهِ إِلَّا الْفاسِـقِينَ**) وسـميتها «بأسـرار الآيـات وأنـوار البينــات» وجمعتها في مقدمة وأطــراف مشــتملة على مشاهد.

المقدمة

في بيــــان طريق الســــالكين إلى الله ومنهج الراسخين في العلم وفيها عدة قواعد.

قاعدة

في أن رأس الســعادات ورئيس الحســنات هو اكتســاب الحكمة الحقة ، أعــني : العلم بالله وصــفاته وأفعاله وملكه وملكوته ، والعلم بـــــاليوم الآخر ومنازله ومقاماته من البعث والحشر والكتاب والميزان والحساب والجنة والنار وهي الإيمان الحقيقي والخير الكثير والفضل العظيم المشار إليه في قوله تعالى (**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**) وقوله تعـالى : (**هُـوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُــــولاً مِنْهُمْ يَتْلُــــوا عَلَيْهِمْ آياتِــــهِ وَيُــزَكِّيهِمْ**) ، إلى قوله (**وَاللــهُ ذُو الْفَضْــلِ الْعَظِيمِ**) وقوله تعالى : (**آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْـزِلَ إِلَيْـهِ مِنْ رَبِّهِ ، ...**) إلى آخر الآية ، والإشـــارة إلى أن الكفر والضـــلال مقابل هـذا العلم ، أعـني الجهل بهـذه المعـارف. قوله : (**وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللـهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُـلِهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِرِ ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً**) فظهر أن الاعتقـاد بهـذه الأمــور هو الإيمــان الحقيقي وبه يحصل الكرامة عند الله والزلفى لديه. وذلك ، لأن الإنسان باكتسـاب هـذه العلـوم الإلهية يصير من حزب الملائكة المقـربين بعد ما كـان من جنس الحيوانات المبعدين ، لما تقرر في مقامه بالبرهــان : أن النفس الناطقة يـترقى في الاسـتكمالات العلمية من حد العقل الهيولاني الذي هو جوهر نفساني بالفعل ، لكنه مادة روحانية

إلى حد العقل بالفعل ، وهو جوهر عقلي نوراني فيه صور جميع الموجودات على وجه مقدس ، وهو نور يـتراءى فيه الأشياء كما هي وإنما يحصل له هذا العقل البسيط والنـور الشريف بالنظر في حقائق الموجودات والتـدبر في آيـات الله الكائنة في الأرض والسـماوات لا بـالإعراض عنها كما قال : (**وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُـرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُــونَ**) ومما يــدل على وجــوب النظر والتفكر واكتســاب الحكمة والمعرفة قوله : (**قُــلِ انْظُـرُوا ما ذا فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ**) وقوله : (**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَــيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُـونَ قَـدِ اقْتَـرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ**) وفي هذه الآية دلالة على أن حيـاة الإنســان بعد المـوت والمفارقة عن هـذه النشـأة الزائلة بالمعـارف والتصـديق بحقـائق الأشـياء كما هي ، وقوله : (**قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْـفَ بَـدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ**).

وهــذا الســير المــأمور به ليس إلا الســير الفكــري والحركة المعنـوي دون تعب الجـوارح ، وسـتعلم بيـان ما أشرنا إليه من أن بنـاء النشـأة الآخـرة للإنسـان وعمارتها إنما هي بما يتقرر في نفسه من صور الاعتقادات ، وقوله : (**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللـهُ الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ**) ثم إنه قد مـدح الله النـاظرين في ماهيـات الأشـياء والمتفكـرين في خلق الســماوات والأرض والــذاكرين لله من ملاحظة آثار صنعه وجـوده في مواضع كثـيرة : كقوله (**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْــقِ السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ**) وقوله تعــالى (**الَّذِينَ يَــذْكُرُونَ اللــهَ قِيامــاً وَقُعُــوداً ، وَعَلى جُنُــوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ**) والإشـارة إلى العروة الوثقى والعمدة العظمى في التقرب إلى الله والفــوز بالســعادة الأخروية ، هي اقتنــاء العلم والمعرفة دون مجــرد العمل والطاعة ، وإن كــان العمل الصــالح وسيلة إليه ، وأنها هي الثمرة والغاية والعمل كالزرع وهي النتيجة والعمل كالمقدمة وهي المخدومة والســـــلطان ، والعمل كالخادم والعبد والأجير ، قال : (**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**) وقـال : (**لَيْسَ الْبِـرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُـوهَكُمْ قِبَـلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَلكِنَّ الْبِـرَّ مَنْ آمَنَ بِاللــهِ وَالْيَــوْمِ الْآخِــرِ وَالْمَلائِكَــةِ وَالْكِتــابِ وَالنَّبِيِّينَ**) وقال تعالى : (**أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**).

ففيه إشـارة إلى أن فعل الصـلاة وفعل الحج الـذين هما عمـدتا الأعمـال البدنية والطاعـات ليسا مثل الإيمـان واليقين بـالأمور المـذكورة. وقـال (**الْمُؤْمِنُـونَ كُـلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ**) هذا تعريف المؤمن ولم يدخل في حده إلا هذه المعارف الحقيقية لا شيء من الأعمال ، فلو فرض حصول هذه المعارف على وجهها في قلب أحد من الآدميين من دون عمل حسـنا كـان أو قبيحا ، لكـان مؤمنا حقا فـائزا بالسـعادة الحقيقية من غـير قصـور وخلل في إيمانـه. وهـذا وإن كـان مجـرد فـرض لكن الغـرض التنبيه على أن العرفان هو الأصل والعمود والعمل فرع لـه. وقد حث سـبحانه عبـاده في كثـير من الآيـات على اكتسـاب العلم بالنظر والاعتبار والتأمل في أفعاله والتدبر في آياته وآثاره ، مثل قوله : (**فَـاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصـارِ**) وقوله : (**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا** ، **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا**) وقوله : (**إِنَّ فِي ذلِـكَ لَـــذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبـــابِ**) وقوله : (**إِنَّ فِي خَلْـــقِ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهـارِ لَآيـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ**) وقوله : (**وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُـوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**).

قاعدة

في أن الجهل بهـذه المعـارف الإلهية وجحودها مع وجـود الاسـتعداد وقـوة التعلم ومكنة التحصـيل رأس الشقاوات والعقوبات وأنه مادة كل مرض ونفاق نفسـاني ومغــرس كل شــجرة ملعونة وشــجرة خبيثة في الــدنيا والآخـــرة وهو منشأ العـــذاب الأليم والخســـران العظيم والحسرة والندامة يوم القيامة.

قوله تعالى : (**أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغـافِلُونَ ، لا جَـرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ**) وقوله تعـالى : (**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ أَعْمى قـالَ : رَبِّ لِمَ حَشَـرْتَنِي أَعْمى وَقَـدْ كُنْتُ بَصِيراً ، قالَ : كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَــــوْمَ تُنْسى**) وقوله (**اسْــــتَحْوَذَ**) ، أي غلب (**عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ ، فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ**

اللهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ). والوجه في أن من نسي ذكر الله يكون من أهل العــذاب وأنه يحشر أعمى وأصم ، أن بنــاء الآخــرة على المعرفة والــذكر ، لأنها نشــأة إدراكية ودار حيوانية كما سنبين ، فعمارتها بالاعتقادات والعلم والنيات الصالحة والإدراكــات الخالصة ، وبنــاء الــدنيا على الظلمة المادية وعمارتها بـالأمور الشـهوية والأمـاني الباطلـة. لأنها نشـأة كـدرة جرمانية (**وَمَنْ كـانَ فِي هـذِهِ أَعْمى فَهُـوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَـبِيلاً**) ثم إن من جهل بالله جهل بالأشــياء كلها ، لما تقــرر من أن العلم بــذات الســبب لا يحصل إلا من جهة العلم بسببها ، ومن جهل بالأشياء كـان من الهـالكين في الآخــرة ، لما مر من أن وجــود الآخــرة وجـود إدراكي فيكـون منسـيا عند الله إذ لو كـان مـذكورا كـــــان موجــــــودا في نفسه إذ المعلومية لا ينفك عنه الموجودية في الأمور التي وجودها وجود إدراكي وصورتها صورة إدراكية ، وقال أيضا : (**نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ**) وهـذا بمنزلة عكس النقيض لقوله : «من عـــــرف نفسه فقد عرف ربه» على ما أوضـحناه قوله تعـالى : (**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَاطْمَـأَنُّوا بِها ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غـافِلُونَ ، أُولئِكَ مَـأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**) جعل الله سـبحانه الجهل بالله وآياته منشأ الرجوع إلى نـار الجحيم والعـذاب الأليم ، وذلك لأن نفوس الجهال أبدا متوجهة نحو لـذات الأجسـام وأغـراض الدنيا وشهواتها ، إذ لا تعرف غير هذه الأمور. وأما العارف الربـاني فنفسه لأجل الاسـتكمال بـالعلم والإعـراض عن الأمــور الدنيوية الجســمانية ، متوجهة دائما نحو العــالم القــدس الإلهي ، راغبة إلى قربه تعــالى ، لأن من أحب شــيئا كـان حشــره الله إليه والجاهل لا يحب إلا الأمــور الباطلة والأمــاني العاجلة الزائلـــة. ولا شك أن الــدنيا وشـهواتها أمـور باطلة وهمية ، فكـان حشـره إلى عـالم البوار والشرور والظلمات ، فمآله إلى نار الجحيم ونصيبه العذاب الأليم. قوله تعالى : (**وَيْلٌ لِلْكـافِرِينَ مِنْ عَـذابٍ شَـدِيدٍ الَّذِينَ يَسْـتَحِبُّونَ الْحَيـاةَ الـدُّنْيا عَلَى الْآخِـرَةِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ وَيَبْغُونَها عِوَجـاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ**).

تنبيه

اعلم أن الكفر الـذي هو منشأ العـذاب الأليم الشـديد هو ضرب من الجهل أعني المركب مع الاعتقاد المشـفوع بالاسـتكبار والعنـاد ، لا مجـرد الجهل البسـيط بالمعـارف ولــذلك وصف الله تعــالى أولئك الكــافرين بمحبة الــدنيا والصد عن سـبيل الله وطريق الحق والضـلال والاعوجـاج عن سـبيله. قوله تعـالى : (**وَيُبَشِّـرُ الْمُـؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ ، أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً**) قوله تعـالى : (**مَنْ كانَ يُرِيـدُ الْعاجِلَـةَ عَجَّلْنا لَـهُ فِيها ما نَشـاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَـعى لَها سَـعْيَها وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً**) ، إلى قوله : (**لا تَجْعَلْ مَـعَ اللـهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْـذُولاً**) قوله تعـالى : (**ذلِـكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْــكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَــةِ**) أي معرفة الحق لذاته وعمل الخير لأجله (**وَلا تَجْعَلْ مَـعَ اللـهِ إِلهـاً آخَـرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً**) قوله تعالى : (**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْـهَدِ يَـوْمٍ عَظِيمٍ**) ، (**وَيَزِيـدُ اللـهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً ، وَالْباقِيـاتُ الصَّـالِحاتُ خَيْـرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوابـاً وَخَيْـرٌ مَـرَدًّا**) ، (**يَـوْمَ نَحْشُـرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً ، وَنَسُـوقُ الْمُجْـرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً**) أي غاية سـكون العـارفين وما يئـول إليه سـعيهم هو الله وغاية مسلك الجهـال المنهمكين في الـدنيا وشـهواتها إلى النار.

واعلم أن الوصول إلى الله خير من كل نعيم وسعادة ، لأن كل خـير وكمـال ونعيم وسـعادة في الـدنيا والآخـرة رشح من بحر وجوده وفيض من نور شهوده. وقوله تعالى : (**إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمـاً ، فَـإِنَّ لَـهُ جَهَنَّمَ لا يَمُـوتُ فِيها وَلا يَحْيى**) إذ ليس له الحياة الدنيوية الحسية ، لأنها بطلت ، ولا الحيـاة الأخروية أعـني حيـاة العلم والمعرفة ، لأنها ما حصلت ، ولا ما اكتسبت. قوله تعالى : (**وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنـاً قَـدْ عَمِـلَ الصَّـالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الـدَّرَجاتُ الْعُلى**) إلى قوله : (**وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَـزَكَّى**) أي تجـردت نفسه عن الهيئـــــات الدنية والأغـــــراض الدنيوية ، (**مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ**

حِمْلاً). لا شبهة في أن هـذه الأوزار والأحمـال الـتي يثقل ظهر القلب ويمنع النفس عن الصعود إلى الدرجات العلى ليست أجسـاما ثقيلة محسوسة بل هي من بـاب الهيئـات النفسانية والأعـراض التعلقية الـتي تجر النفس عن عـالم النـور إلى عـالم الغـرور من سلاسل الشـهوات وأغلال التعلقـات. قوله تعـالى : (**فَالَّذِينَ كَفَـرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيـابٌ مِنْ نـارٍ**) لما بين في موضـعه من أن الأخلاق والملكـات ستصـير صـورا جوهرية يتصـور بها النفس الإنسـانية ويتلبس بها في الآخـرة ، فيكـون لها شـعارا ودثارا.

ثم إن الهيئات المتمكنة في نفوس الأشقياء المبعدين من دار الكرامة هي من بـاب الشـهوات الدنيوية واللـذات الحيوانية والأغـراض البهيمية ، فهي حاصـلة من القـوى العمالة للأجـرام السـفلية بـالتقطيع والجمع والتفريق والتحليل والتركيب (**يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِـهِمُ الْحَمِيمُ**) ، أي ينزل عليهم من القواهر العلوية ما يتسـخن به أبـدانهم ، و (**يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُـودُ وَلَهُمْ مَقـامِعُ مِنْ حَدِيـدٍ**) ، من قـوة قوية لفاعل غليظ شـديد يـدعوهم إلى الأعمـال الطبيعية وخدمة الشـهوات الشـيطانية واشتعال النيرانـات الكامنـة. ويقمعهم عن الميل إلى جهة السـعادة وجـانب القـدس ، ويـردهم إلى الجحيم الـتي وردوها أولا ، (**كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُـوا مِنْها**) بواسـطة سـماع وعظ أو نصـيحة أو قـراءة آية أو رواية حـديث أو صـحبة عـالم ، (**أُعِيـدُوا فِيها**) ، لغلبة دواعي سـلطان الطبيعة على قلـوبهم القاسـية واسـتيلاء النفس الأمـارة بالسوء على نفوسهم. قوله تعـالى : (**أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَـعَ اللهُ عَلى قُلُـوبِهِمْ وَسَـمْعِهِمْ وَأَبْصـارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغـافِلُونَ لا جَـرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِـرَةِ هُمُ الْخاسِـرُونَ**) فدلت الآية على أن الغفلة والجهالة صارت سببا لخسران الآخـرة ، وقد مر بيانـه. قوله : (**وَإِذا تُتْلى عَلَيْـهِ آياتُنا ، وَلَّى مُسْتَكْبِراً ، كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ، فَبَشِّـرْهُ بِعَـذابٍ أَلِيمٍ**) قوله : (**وَيْـلٌ لِكُـلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَـذابٍ أَلِيمٍ**) قوله تعـالى : (**وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَـذابٌ مُهِينٌ ، مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَـيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ، هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَـرُوا (بِآيـاتِ رَبِّهِمْ) لَهُمْ عَـذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ**) فهذه الآيات دلت على

أن رأس الشقاوة ومنشأ العذاب الأليم ، هو الكفر الذي ضرب من الجهل والاحتجاب عن الحق بما يلزمه من الأعمال والملكات المؤدية إلى البعد عن دار الكرامة ومعدن الرحمة والانغمار في بحر الظلمة الجرمية والهوى في الهاوية السفلية والقرية الظلمانية الظالم أهلها ، كما أن أصل كل سعادة وبهجة هو الإيمان بالله وكلماته وآياته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والخروج من هذه النشأة الدنية المظلمة والصعود إلى عالم الطهارة والقدس والنور من عالم الطبيعة ومعدن الرجس والظلمة والدثور.

تنبيه

اعلم أن محبة الدنيا والكفر يتلازمان ويتسبب أحدهما بالآخر ، ولهذا ورد في الكتاب الإلهي تعليل العذاب الأخروي والشقاوة تارة بهذا وتارة بهذا كما في قوله تعالى : (**وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ، ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ**) دلت على أن محبة الدنيا مغرس الكفر ومنبت النفاق ، لكن نتيجة محبة الدنيا هي العذاب العظيم ، الحاصل عن مفارقتها يوم القيامة ، ونتيجة الكفر هي غضب الله في يوم القيامة. ولا شك عند العارف المحقق أن عذاب الغضب أشد من عذاب النار ، لأن الأول عذاب روحاني ، والثاني جسماني حسي ، والجحيم صورة غضب الله ، كما أن الجنة صورة رحمة الله وكما أن لذة رضوان الله ـ أكبر من لذة نعيم الجنة من الحور والقصور والأنهار والأشجار وغيرها ، كما قال : (**وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ**) فكذا ألم الحجاب عن الحق أشد من ألم النار ، ولذلك وقع مقدما في الذكر في قوله تعالى : (**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ**).

ومما يدل على أن الجهل بالمعارف الإلهية يوجب السقوط عن الفطرة ويؤدي الإنسان إلى أن يصير مرآة قلبه مكدرة مظلمة بالغواشي والظلمات إلى حد يفسد ظاهرها وباطنها ، قوله تعالى : (**بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**)

وقوله : (**بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ**) ، وقوله : (**أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ ، وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ**) وقوله تعالى : (**وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً**).

وتوضيح ذلك بالبيان الحكمي : أن الروح الإنسانية من جهة أن من شأنها أن يتجلي فيها الأشياء مشابهة للمرآة ، لكن هذه الحالة في أول الفطرة للنفس أمر بالقوة لكل أحد من الناس ثم يصير بمزاولة الأعمال والأفعال خارجة من القوة إما إلى الفعل والكمال ، أو إلى البطلان والزوال. فإذا وقع الإنسان في السلوك العلمي والرياضة الدينية والتكاليف الشرعية التي هي بمنزلة تصقيل المرآة يخرج النفس من القوة إلى الفعل ويصير عقلا بالفعل بعد ما كانت عقلا بالقوة ، فيكون كمرآة مجلوة يتراءى فيها صور الموجودات على ما هي عليها ، وإذا لم يقع في هذه الطريقة وهي الصراط المستقيم المذكور في القرآن ولم يخرج ذاته في طريق الآخرة بالتصفية والرياضة والتطهير والتنوير من القوة إلى الفعل ، بل سلك مسلك الدنيا وصارت نفسه متدنسة بدنس الشهوات ، متنجسة برجس الفسوق والسيئات ، بطلت فيه القوة والاستعداد ، لأن يصير منورة بأنوار العلوم ، ولأن يتجلى فيها حقائق الأمثال والرسوم ، ولأن يكون عقلا ومعقولا بالفعل لا بالقوة. وبالجملة ، قد بطلت القوة وزالت الفرصة بالكلية وصارت النفس حسا بالفعل بعد ما كانت عقلا بالقوة ، وظلمة بالفعل بعد ما كانت نورا بالقوة ، وبهيمة أو شيطانا بالفعل بعد ما كانت ملكا بالقوة ، كحديد كان أولا قابلا للإذابة والتصقيل لتظهر فيها مثل المحسوسات فإذا غاص في جرمه الرين والنداوة والوسخ ، بطل استعداده في كونه مرآتا ، فكذلك إذا بطل استعداد النفس لأن يكون جوهرا إدراكيا ووجودا علميا ، صارت جوهرا من جواهر الدنيا بالفعل ، وكل ما كان الشيء جوهرا دنيويا ظلمانيا بالفعل ، يحترق في الآخرة بنار السعير ، إذ الدنيا وما فيها يجاء بها يوم القيامة بصورة نار جهنم وشرارتها وظلماتها فيحترق بمن فيها ، كما في قوله تعالى : (**وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى**) وقوله : (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ، لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً ، فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ**). وقوله : (**وَقالُوا لَوْ كُنَّا**

نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ) وقوله : (**ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا ، فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**) وقوله : (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ ، كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ**) وقوله : (**وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي ، وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً**) ، وقوله : (**مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ ، أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ، وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها ، وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الأمور الدنيوية لا يمكن أن يكون لها وجود يوم القيامة ، وأن النفس الآدمية ما دامت من جنس هذه الأكوان الدنيوية ، فهي حطب جهنم وصلى النار ، كما قال : (**إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**) وإنما يستحق النعيم ويستأهل لجوار الله والجنة من تبدل وجوده ، وصار جوهرا علميا بعد ما كان جوهرا دنيويا ، وذلك بمزاولة اكتساب العلوم وملكة التجريد. فظهر أن محبة الدنيا منشأ الكفر والاحتجاب ومادة الشقاوة والعذاب ، وأن بناء التنعم في الآخرة والحياة الدائمة على العلم والمعرفة ، إذا ما لم يصر جوهر الإنسان جوهرا إدراكيا علميا لم يجعل من جنس الجواهر الحية القريبة من الله ودار كرامته المرتفعة عن عذاب النار ومنزل البوار المتنعمة بنعم دار الحيوان المنسرحة في طبقات الجنان.

قاعدة

في الإشارة إلى أن هذا المنهج أعني : منهج التوحيد وهو طلب العلم بالله وآياته وملكه وملكوته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر هو مسلك جميع الأنبياء والأولياء عليهم‌السلام ، وأن لا خلاف بينهم في شيء من العلوم الإلهية والأصول الإيمانية ، وأن طريقتهم في العلم واحد ودينهم دين واحد ، وإنما الخلاف بين شرائعهم في المسائل الفرعية العملية التي قد يختلف باختلاف الأزمنة والأوقات ، قوله تعالى (**وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي**

إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ). وقوله تعالى : (**كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) وقوله تعالى : (**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ، ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**) وقوله : (**إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ ...**) وقوله : (**ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ**) ، (**قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُمْ**) ، (**هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ**) وقوله : (**أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ**) ، (**ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**) وقوله : (**إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى**).

واعلم أن هذا المنهاج العلمي والإيمان الحقيقي في غاية الندرة والشذوذ ولا يوجد منهم في كل عصر إلا عدد قليل كواحد أو اثنين كما قيل : «جل جناب الحق من أن يكون شريعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ...» وذلك لأن علم التوحيد والإيمان الحقيقي نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده ، ليس تحصيله بمجرد إقرار بالشهادة ولا ببحث وتكرار ، أو تلفيق أدلة كلامية ، كما هو شأن أكثر المنتسبين إلى العلم المشهورين بالإفادة والتدريس ، وأكثر أهل الإسلام ظاهرا هم أهل الكفر والإشراك باطنا ، كما قال تعالى : (**وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**) وقوله : (**وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**) وقوله : (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ...**) والمراد : يا أيها الذين آمنوا ظاهرا ولفظا ، آمنوا ضميرا وعلما ، وقوله : (**قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ**) وقوله : (**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ**).

ومما يدل على أن المؤمنين بالحقيقة هم الراسخون في العلم الكاملون

في الحكمة والمعرفة ، قوله : (**لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ ، يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**) وقوله : (**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ...**) هذه الآية دالة على أن غير هؤلاء القوم لا يشهد حقية الرسول ولا يعلم حقيقة إنزال الكتاب الهادي إلى صراط التوحيد. وبالجملة أن المؤمنين بالحقيقة هم العلماء بالله واليوم الآخر ، وهذا العلم نور عزيز المنال وفضل رفيع المثال لا يوجد بمجرد القيل والقال والبحث والجدال ، أو رواية الحديث وحفظ الأقوال.

قال بعض العارفين : «أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت» وهذا العلم المشار إليه ، هو علم الوراثة لا علم الدراسة يعني أن علوم الأنبياء عليهم‌السلام لدنية ، فمن كان علمه مستفادا من الكتب والرواية والدراسة فليس هو من ورثة الأنبياء لأن علومهم لا يستفاد إلا من الله ، كما قال تعالى : (**وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ**).

ولا تظن ، أن التعليم من عند الله يختص بهم لا يتجاوز غيرهم فقد قال تعالى : (**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**) فكل من وصل إلى حقيقة التقوى فلا بد أن يعلمه الله ما لم يعلم ويكون معه ، كما قال (**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**).

قاعدة

في نعوت القرآن وأساميه

اعلم أن القرآن في اللغة بمعنى الجمع ، كما أن الفرقان بمعنى الفرق والتفصيل ، قال الله تعالى : (**إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ**).

والأول إشارة إلى العلم الإجمالي المعروف عند العلماء بالعقل البسيط وهو العلم بجميع الموجودات على وجه بسيط إجمالي وذلك العقل هو فعال

تفاصيل العلوم النفسانية.
والثاني ، إشارة إلى العلم النفساني المتكثر بصور عقلية حاصلة في النفوس الفاضلة ، وربما يحصل الثاني دون الأول لكن الأول لا ينفك عن الثاني ، فكل قرآن لا ينفك عن الفرقان دون العكس ، ونفس نبينا ، صلىاللهعليهوآله ، في مقام (**قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى**) عقل بسيط قرآني متحد مع المعقولات كلها ، وهو قلم الحق الأول ، وكلامه بوجه وهو كلمة الله التامة التي فيها جوامع الكلم ، كما في قوله ، صلىاللهعليهوآله : «أوتيت جوامع الكلم» وفي مقام آخر لوح نفساني فيه تفاصيل العلوم وصور الحقائق المرسومة فيه من قبل قلم الحق الفعال لصور العلوم ، وتلك الصور أو محلها هو الكتاب الفرقاني ، فهذا المصحف الذي بين أظهرنا قرآن بوجه وفرقان بوجه ، وهو كلام الله بوجه وكتابه بوجه ، وسينكشف لك وجوه الفرق بين كلام الله وكتابه ، وأن المنزل على سائر الأنبياء كتابه لا كلامه ، وأن ذلك فرقان لا قرآن. إذا علمت هذا فاعلم ، أن من أسمائه نور ، لأنه نور عقلي ينكشف به أحوال المبدإ والمعاد ، يتراءى به حقائق الأشياء ، ويهتدى به في سلوك يوم القيامة وطريق الجنة ، كما قال تعالى : (**ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**) وقال : (**قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**) فقوله : (**نُورٌ**) إشارة إلى مرتبة العقل القرآني البسيط. وقوله : (**كِتابٌ**) إشارة إلى مرتبة العلم التفصيلي ، كما قال : (**كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ**) وقال : (**كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**) وقال : (**تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ**). ومن أسمائه العظام الحكمة ، كما في قوله : (**وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ**) فإن الموجودات أعني الممكنات متميزة حال عدمها الكوني في علم الله الواحد ويعلم الله تعالى بعلم واحد بسيط صور جميع الأشياء ، ويراها ويأمرها بالتكوين بأمر واحد هي كلمة كن الوجودي ، فما عند الله إجمال ، بل الأمر كله في نفسه ، وفي علم الله مفصل ، وإن كان كله معلوما بعلم واحد لكن معلوماته كثيرة ،

كـــثرة لا تحصى ، وإنما وقع الإجمـــال في حقنـــا. فمن كوشف بالتفصـيل في عين الإجمـال علما أو عينا أو حقا ، فذلك العـالم الـذي أعطـاه الله تعـالى (**الْحِكْمَةَ وَفَصْـلَ الْخِطـابِ**) ، وليس ذلك إلا الأنبيـاء عليهمالسـلام والورثة لهم من العلمـاء الراسـخين. وأما الفلاسـفة المشـهورون فليسوا من هذا المقام في شـيء ، ولا يعلمـون التفصـيل في عين الإجمـال ، كما يـراه صـاحب هـذا المقـام الـذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وهـذه الحكمة عناية ربانية وموهبة إلهية لا يــؤتى بها إلا من قبله تعــالى ، كما قال (**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً. وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ**).

فهذه الآية تدل على أن الحكمة من مواهب الله التي لا تحصل بمجرد السعي ، بل حصـولها بالمشـية الربانية لا غـير. ولأجل ذلك ذكر أنه من فضل الله في قوله تعـالى : (**ذلِكَ فَضْـلُ اللـهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشـاءُ وَاللـهُ ذُو الْفَضْـلِ الْعَظِيمِ**) بعد قوله : (**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ**).

وفي هـذه الآية إشـارة إلى أن هـذه الحكمة المعـبر عنها تـارة بـالقرآن ، وتـارة بـالنور وعند الحكمـاء بالعقل البسـيط ، هو من فضل الله وكمـال ذاته ، أتاها الله لمن اختاره واصطفاه من خـواص عبـاده ومحبوبيه ، كملك من الملــوك يعطي خلعته ولباسه المخصــوص لمن أحبه من مقربيه لأن الحكمة الحقة من صــــفاته الذاتية ، ولا ينالها أحد من الخلق إلا بعد تجـــــرده عن الـــــدنيا وعن نفسه بــالتقوى والزهد الحقيقي ، والفنــاء من شــوائب الخليقة والانخـــــراط في ســـلك المهيمين من ملائكته وعبـــاده المقـــربين حـــتى يعلمه الله من لدنه علما ويؤتيه حكمة وخـيرا كثـيرا وفضلا عظيما ويحييه حيـاة طيبة ، وجعل له نورا يمشي به في ظلمات الدنيا وبرازخ القبـور ، كما في قوله تعالى : (**أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُـهُ فِي الظُّلُمـاتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها**) فقوله : (**كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنـاهُ**) أي فانيا عن غير الله باقيا به. والنور الذي يمشي به في الناس هو نور الله ، كما في قوله صـــلىاللهعليهوآله : «اتقـــوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». ومن أسمائه الروح ، قوله ، «تعـالى (**يُلْقِي الـرُّوحَ مِنْ أَمْـرِهِ عَلى مَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ**) وقوله تعالى

(وَكَــذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْــكَ رُوحــاً مِنْ أَمْرِنا) ومن نعوته ، الحق ، قوله تعالى : (قُلْ نَزَّلَـهُ رُوحُ الْقُـدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُـوا) ، (بَـلْ هُـوَ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمـاً ما أَتـاهُمْ مِنْ نَـذِيرٍ). وقوله : (تِلْـكَ آيـاتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ، وَلكِنَّ أَكْثَــرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُــــونَ) وقوله : (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْـــزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَـذَكَّرُ أُولُـوا الْأَلْبـابِ). ومن ألقابه الشــريفة الهــدى ، لأنه يهــدي إلى الحق بل هو الحق. قوله تعالى : (ذلِكَ هُدَى اللـهِ يَهْـدِي بِهِ مَنْ يَشـاءُ) وقوله : (هُـدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْبِ). ومن ألقابه الذكر ، لأنه يتذكر به الأمــور الآخــرة وأحوال المبدإ والمعـاد (فَاسْتَمْسِـكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْـكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَـذِكْرٌ لَـكَ وَلِقَوْمِـكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ) ومنها الشــفاء ، لأن به يقع النجــاة عن الأمراض النفسانية والأسقام الباطنية والآلام الأخروية من الجهل والحسد والكبر والرياء والنفاق والرعونة والشــهوة والغضب وحب الجاه وسائر المهلكات والأمراض الــتي إذا اســتحكمت أعيت الأطبــاء الروحــانيين عن علاجهـا. قوله تعالى : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِـفاءٌ ، وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ فِي آذانِهِمْ وَقْـرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ) يعني : أن القــرآن هــدى وشـفاء بالقياس إلى قــوم ، وهم الــذين لم يفسد قــرائحهم ، ولم يتغير فطرتهم الأصلية التي فطرهم الله عليها ، وهو بعينه ضلال بالقياس إلى من فســدت قريحته وتغـيرت فطرته ، كما أن نور الشمس يقوي للإبصار وهو عمى للخفافيش ، كما في قوله تعــالى : (فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ ، فَـزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) وقوله : (يُضِلُّ بِـهِ كَثِـيراً وَيَهْدِي بِـهِ كَثِـيراً وَما يُضِـلُّ بِـهِ إِلَّا الْفاسِـقِينَ) ومنها الهــدى والرحمة ، قوله : (وَما أَنْزَلْنا عَلَيْـكَ الْكِتـابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُـوا فِيـهِ وَهُـدىً وَرَحْمَـةً لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ). وصفات القرآن ونعوته كثـيرة يـؤدي ذكرها إلى الإطناب فاكتفينا بما ذكر ، لأنه كاف للمتدبر المستبصر.

قاعدة

في وجوه الفرق بين كلام الله وكتابه

الفرق بين كلامه تعالى وكتابه ، كـالفرق بين البسـيط والمـركب كما مـر. وقد قيل : إن الكلام من عـالم الأمر ، والكتـاب من عـالم الخلق ، وإن الكلام إذا تشـخص صـار كتابا ، كما أن الأمر إذا تشخص صار فعلا ، كما قال (**اللـهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَـماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَـزَّلُ الْأَمْـرُ بَيْنَهُنَّ**) وقوله : (**إِنَّما أَمْـرُهُ إِذا أَرادَ شَـيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**).

فالفرق بين الكلام والكتاب بوجه ، كـالفرق بين الأمر والفعل ، فالفعل زماني متجدد كما ستعلم ، والأمر بـريء عن التغـير والتجـدد ، والكلام غـير قابل للنسخ والتبـديل ، بخلاف الكتاب : (**يَمْحُوا اللـهُ ما يَشـاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِنْـدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**).

فصحيفة وجود العـالم الفعلي الخلقي هي كتـاب الله عزوجل ، وآياته أعيـــان الموجـــودات (**إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ... لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**).

وأما كلمـــات الله التامـــات ، فهي الهويـــات العقلية النورية الـــتي وجودها عين الشـــعور والإشـــعار والعلم والإعلام ، وكما أن كتـاب الله مشـتمل على الآيـات (**تِلْكَ آيـاتُ الْكِتـابِ الْمُبِينِ**) فكلام الله مشـتمل على الآيـات (**تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ**).

واعلم أن الأمر منه تكويـــني ومنه تشـــريعي ، والأمر التكويـــــني مـــــوجب للطاعة والقبـــــول كإطاعة الملك والملكوت ، بخلاف الأمر التشـريعي لأنه أمر بالواسـطة ، فتطرق إليه الإباء والعصيان والطاعة والإتيان «فمنهم من أطاع ومنهم من عصى».

واعلم أن النـازل على أكـثر الأنبيـاء ، عليهمالسـلام ، من الله هو الكتاب دون كلام الله. وهذا القرآن الذي أنزل على محمد ، صـــــلىاللهعليهوآله ، كلام الله وكتابه جميعا باعتبارين ، وأما سائر الكتب السماوية المنزلة على سائر

المرسلين ، سلام الله عليهم أجمعين ، فإنها ليست بكلام الله ، بل كتب يدرسونها ، ويكتبون بأيديهم. فهذا المنزل بما هو كلام الله نور من أنوار الله المعنوية النازل من عنده على قلب من يشاء من عباده المحبوبين (**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**) وقوله : (**وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا**) قوله : «نزل على قلبك بالحق» وقوله : (**بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ**).

وهو بما هو كتاب نقوش وأرقام وصور وألفاظ وفيها آيات أحكام نازلة من السماء نجوما على صحائف قلوب المحبين وألواح نفوس الطالبين ، وغيرهم يكتبونها في صحائفهم وألواحهم الحسية بحيث يتلوها كل تال ويقرؤها كل قار ، ويتكلم بها كل متكلم ، وبها يهتدون وبما فيها يعملون ، ويتساوى في هداها الناس العوام والخواص والأنبياء والأمم ، كقوله : (**هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ**) وقوله : (**وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ**) وقوله : (**وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ ، فِيها حُكْمُ اللهِ**).

وأما القرآن العظيم الكريم ، ففيه عظائم الأمور الإلهية التي لا يصل إلى دركه إلا أهل الله خاصة ، لقوله : (**وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**) وفيه كرائم أخلاق الله التي تخلق بها رسول الله ، صلى‌الله‌عليه‌وآله لقوله : (**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**) وكان خلقه القرآن ، كما نقل.

ويدل على ذلك قوله (**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ**) بيان ذلك : أن القرآن نور كما مر من قوله : (**قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ**) فإذا خرجت به نفوس أمته من الظلمات إلى النور ، صاروا متصفين بالنور متخلقين به ، فإذا كان حال الأمة هذا الحال ، فما ظنك بحال نبيهم ، صلى‌الله‌عليه‌وآله.

دقيقة كشفية

واعلم أنه قد يكون شيء واحد كلاما وكتابا باعتبارين لما علمت ،

أن الأمر كلام ، والفعل كتاب ، وأن القائم بالمتكلم كلام ، والصادر منه كتاب. فالإنسان مثلا لكونه ذا درجات بحسب النفس والبدن وهو بحسب كل مقام غير خارج عن الهوية الإنسانية إذا تكلم بألفاظ وحروف مسموعة ، فإذا نسـبت تلك الألفـاظ والحــروف إلى نفسه ، كـان كتابا له وفعلا صـادرا عنه صـنعه وكتبه في لـوح الهـواء وفي مخـارج الحروف من الأعضاء ، وإذا نسـبت إلى شـخص بدنه كـان كلاما قائما بشخصه ، لا كتابة صـادرة عنـه. وكـذا القيـاس إذا تحدث بحـديث النفس ، كـان باعتبـار نسـبته إلى عقله المجرد بالصدور كتابا ، ومن حيث قيامه بالنفس واتصافها به كلاما لها ، فهو كتاب لعقله وكلام لنفسـه. وكـذا الحـال في الكتابة الموجـودة في لـوح وقرطـاس يمكن اعتبـار الحـالين فيها بالصـدور والقيـام ولو بتعمـل. تأمل في ذلك فإنه دقيق لطيف يرفع به الخلاف بين الطائفتين.

قاعدة

في وجوه الفرق بين إنزال كلام الله على قلب النـبي ، صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وبين إنزال الكتب السـماوية وتنزيلها إلى سائر الأنبياء عليهم‌السلام.

قوله تعالى : (**نَـزَّلَ عَلَيْـكَ الْكِتـابَ بِـالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ**) أي نزل على قلبك حقائق القـرآن وأنـواره متجلية بسرك ، لا صورة ألفاظ مسـموعة أو مكتوبة على ألواح زمردية مقروة لكل قارئ.

دليل ذلك قوله تعـالى : (**وَبِـالْحَقِّ أَنْزَلْنـاهُ وَبِـالْحَقِّ نَزَلَ**) يعـني نـزل بالحقيقة لا بالتصـوير والحكايـة. وقوله : (**ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمـانُ ، وَلكِنْ جَعَلْنـاهُ نُـوراً نَهْـدِي بِـهِ مَنْ نَشـاءُ مِنْ عِبادِنا**) يعـني ما كنت تكتسب بالدراية والفهم صـــــورة ما في الكتب العلمية ، ولست تتعلم الإيمان من معلم غـير الله ، ولكن جعل الله قلبك نورا عقليا تتنـور به حقـائق الأشـياء ويهتـدي بها إلى ملكـوت الأرض والسـماء. وقوله : (**وَما كُنْتَ تَتْلُـوا مِنْ قَبْلِـــهِ مِنْ كِتـــابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِـــكَ إِذاً لَارْتـــابَ الْمُبْطِلُـونَ ، بَـلْ هُـوَ آيـاتٌ بَيِّنـاتٌ فِي صُـدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**) وقد

وقعت الإشــارة إلى أن تعليم القــرآن من قبل الله بــأن يتجلى بنـور الحكمة الـذي هو حقيقة الكلام ونـور الإيمـان على قلب من كـان من عبـاده الكـرام وأحبائه العظـام. وبالجملة ، القرآن خلق النبي ، صلىاللهعليهوآله ، كما مر وســـائر الكتب ليست كــــذلك. وبالجملة من علمه الله القرآن بهذا التعليم ، كان عليه من الله فضلا عظيما ، كما قـال لحبيبه ، صـلىاللهعليهوآله : (**وَعَلَّمَـكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**).

بل نقـول التعليم على ثلاثة أقسـام : تعليم بشـري ، وتعليم ملكي ، وتعليم إلهي. والأول ، كما لسـائر النـاس ، والثاني ، كما لسـائر الرسل «عليهمالسـلام» ، كـان يمثل لهم الملك ويعلمهم الكتاب ، والثالث ، كما لخواص الأنبياء وعظمـاء الأوليـاء عند عـروجهم المعنـوي إلى اللـه. وإلى هذه الأقسام الثلاثة أشار بقوله : تعالى : (**ما كانَ لِبَشَــرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً**) فـالأول هو التعليم الإلهي ، والثـاني هو الملكي ، والثالث هو البشـري ، فـافهم أن كنت من أهلـه. ولا يفهم هـذه الرمـوز إلا من خـرج طـائر روحه الأمـري من قالبه البشـــري ونفسه فإنه منطق الطـــير ، وأنت بعد بيضة محبوسة في القشر الصــوري ، لست من الســيارين في أرض الملكوت ولا من الطيارين في جو الجبروت.

وجه آخر من الفـــرق ، إنه قـــال تعـــالى : (**وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ**) وقـال : (**وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ**) وقـال في حق القــرآن : (**ذلِـكَ الْكِتـابُ لا رَيْبَ فِيـهِ ، هُـدىً لِلْمُتَّقِينَ**) والفــرق ظـاهر بين كتـاب فيه هـدى للنـاس ويستوون في هداه الأنبيـاء والأمم ، وبين كتـاب فيه هـدى الأنبياء والمتقين من هذه الأمة المخصوصين بالعناية ، كما قـال : (**وَلكِنْ جَعَلْنـاهُ نُـوراً نَهْـدِي بِـهِ مَنْ نَشـاءُ مِنْ عِبادِنا**) وجه آخر ، قال : (**وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَـةً**) وقـال في حق القـرآن : (**فَـأَوْحى إِلى عَبْـدِهِ ما أَوْحى**) وقــال : (**يا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جـاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً**).

والفـــرق عظيم بين الكتابة والـــوحي ، وكـــذا بين الموعظة والبرهان ،

ثم إنه جعل الله تشريف سائر الأنبياء عليهمالسلام ، مثل تشريف هذه الأمة ـ المرحومة لمحمد صلىاللهعليهوآله ، حيث قال لهذه الأمة : (**أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ**) ، فشتان بين نبي تشرف بكتابة الموعظة له في الألواح ، وبين نبي تشرف أمته بكتابة الإيمان لهم في قلوبهم.

وجه آخر : القرآن تنزل على قلب الرسول ، وسائر الكتب نازلة على صدر الأنبياء ، وفرق بين تعلمهم الكتاب وبين تعلم نبينا الكتاب ، فكانوا يتدارسون الكتب ، وخاتمهم صلىاللهعليهوآله كان متخلقا بالقرآن.

وجه آخر في الفرق بين ما أفاد له صلىاللهعليهوآله ، تنزيل الكلام ، وبين ما أفاد لهم عليهمالسلام ، أنزل الكتب ، فإن أفاد الإنزال لهم الحكمة ، فقد أفاد له صلىاللهعليهوآله ، إن أوتي جوامع الكلم ، وبه فضل على الأنبياء عليهمالسلام وبخمسة أمور أخرى ، لقوله صلىاللهعليهوآله : «فضلت على الأنبياء بست» وكذا تحقق الفرق بين تصرف تنزيل الكلام على قلبه وتصرف الإنزال عليهم ، فإن كان إنزال الكتب تصرف فيهم بأن كان الكتاب مع أحدهم نورا من الله يجيء به إلى أمته ليكون هدى لهم ، كما قال تعالى : (**قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ**) ، فإن تصرف تنزيل القرآن على قلبه جعله نورا من الله يجيء إلى الأمة ومعه الكتاب لقوله : (**قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ**) وهو محمد صلىاللهعليهوآله ، وكتاب مبين ، فشتان بين نبي يجيء ويكون هو بذاته نورا ومعه كتاب ، وبين نبي يجيء ويكون معه نور من الكتاب.

هذا وقد انكشف عليك من تضاعيف ما ذكرناه لك أن الكلام غير الكتاب وأن الحكمة والنور والقرآن والكلام الإلهي يجري مجرى الألفاظ المترادفة في لسان هذا الكتاب ، وأنها جميعا عبارة عن مرتبة العقل البسيط الذي فيه حقائق الأشياء مجملة ، وأن الكتاب عبارة عن مقام نفسي فيه صور العلوم التفصيلية ونسبة الأول إلى الثاني كنسبة الكيمياء إلى الدنانير وكنسبة البذر إلى الشجرة ، بل كنسبة المبدإ الفعال إلى مجعولاته.

قاعدة

في الإشاره إلى عمدة مقاصد الكتاب الإلهي وأصول معاقده وأحكامه

اعلم أولا ، أن سر نــزول القــرآن ومقصــده الأقصى ولبابه الأصــفى ، دعــوة العبــاد إلى الملك الأعلى ، رب الآخـرة والأولى ، والغاية المطلوبة فيه تعليم ارتقـاء العبد من حضيض النقص والخسران إلى أوجه الكمال والعرفان وبيــــان كيفية الســــفر إلى الله طلبا لمرضــــاته ولقائه ومجاورة لمقربيه ، وتنعما للروح السعيدة بما في حضــرة ملكوته ، وانسـراحا للنفس في روضـات جنانه ، ونجاتا لها عن دركـات الجحيم ومجـاورة مؤذياتها والتعـذيب بنيرانها وعقاربها وحياتها ، ولأجل ذلك انحصــرت فصــوله وأبوابه وســوره وآياته في ثلاثة مقاصد هي كالــدعائم والأصــول والأعمدة المهمة ، وثلاثة أخرى هي كالروادف والمتممات واللواحق والمعينات.

أما الأصـــول المهمة فأولها ، معرفة الحق الأول وصفاته وأفعاله.

وثانيها ، معرفة الصراط المستقيم ودرجات الصعود إلى الله وكيفية ـ السلوك عليه وعدم الانحراف عنه.

وثالثها ، معرفة المعــــاد والمرجع إليه وأحــــوال الواصــــلين إليه وإلى دار رحمته وكرامته ، وأحــــوال المبعـدين عنه والمعـذبين في دار غضـبه وسـجن عذابه ، وهو علم المعاد والإيمان باليوم الآخر.

وأما الثلاثة الأخـيرة ، فأحـدها ، معرفة المبعـوثين من عند الله لــدعوة الخلق ونجــاة النفــوس عن حبس الجحيم وســوقهم إلى الله ، وهم قــواد ســفر الآخــرة ورؤســاء القوافل ، والمقصـود منه الـترغيب إلى الآخـرة والتشويق إلى الله.

وثانيها ، حكاية أقـوال الجاحـدين وكشف فضـائحهم وتسفيه عقـولهم في غـوايتهم وضـلالتهم وتحـريهم طريق الهلاك ، والمقصود فيه التحذير عن طريق الباطل والتثبت على الطريق المستقيم.

وثالثها ، تعليم عمــارة المنــازل والمراحل إلى الله والعبودية وكيفية

أخذ الزاد والاستعداد برياضة المركب وعلف الدابة لسفر المعاد ، والمقصود منه كيفية معاملة الإنسان مع أعيان هذه الدنيا التي بعضها داخلة فيه ، كالنفس وقواها الشهوية والغضبية برياضتها وإصلاحها حتى لا يكون جموحا بل رائضة حمولة يصلح للركوب في السفر إلى الآخرة والذهاب إلى الرب تعالى ، كما في قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه‌السلام : (**إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ**) وهذا العلم يسمى تهذيب الأخلاق. وبعضها خارجة ، إما مجتمعة في منزل واحد كالوالد والولد والأهل والخدم ، ويسمى تدبير المنزل ، أو في مدينة واحدة أو أكثر ، ويسمى علم السياسة وأحكام الشريعة ، كالقصاص والديات والأقضية والحكومات وغيرها ، فهذه ستة أقسام من مقاصد القرآن ونحن نقتصر في هذا الكتاب على إيراد القواعد المتعلقة بالثلاثة المهمة التي هي بالحقيقة أركان الإيمان وأصول العرفان ، وقد فتح الله على قلبنا من أبوابها ما لم يذكر في شيء من المصنفات من أسرار الآيات ورموز الكلام الإلهي.

وأما قواعد العلوم الفرعية فقد نصب الله لها أقواما قد استفرغوا جهدهم في تحصيلها وفنوا أعمارهم في شرحها وتفصيلها شكر الله حسنات مساعيهم وأثابهم جنات الأعمال (**جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**).

فالمقصد الأول ، وهو المعروف بمعرفة الربوبية مشتمل كما أشرنا إليه على ثلاث مراتب : معرفة الذات الإلهية ، ومعرفة صفاتها وأسمائها ، ومعرفة أفعالها.

أما معرفة الذات ، فهي أضيقها مجالا ، وأرفعها منالا ، وأبعدها عن الفكر والذكر ، إذ حقيقة الواجب ، جل مجده ، هوية بسيطة غير متناهية الشدة في ـ النورية والوجود ، وحقيقته عين التشخص والتعين ، لا مفهوم له ، ولا مثل ولا ـ مجانس ولا مشابه ، ولا حد له ، ولا برهان عليه ، بل هو البرهان على كل شيء فلا أعرف من ذاته ولا شاهد عليه ، بل هو الشاهد على الكل (**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) ، وهو القائم (**عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ**) ، (**وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ**) ، (**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ**) وليس للمعلول المقهور عليه أن يحيط بعلمه العلة له والقاهر عليه ، وإلا ، لانقلب المعلول علة ، والمقهور

قاهرا ، وهو محال (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ) ولهذا ورد النهي عن التفكر في ذات الله ، لقوله صلىاللهعليهوآله : «تفكروا في آلاء الله ، ولا تتفكروا في ذات الله» ولأنه تحترق النفس في إدراك أشعة نور وجهه ، فكيف في نور وجهه فلا يمكن الوصول إلى معرفة ذاته إلا بفناء السالك عن نفسه ، وباندكاك جبل إنيته ، حتى شهد ذاته تعالى على ذاته ، كما قال بعض العارفين «عرفت ربي بربي ، ولو لا ربي ما عرفت ربي» وعن أبي عبد الله عليهالسلام «من زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك ، لأن حجابه ومثاله وصورته غيره ، وإنما هو واحد متوحد ، وكيف توحده من زعم أنه عرفه بغيره. وإنما عرف الله من عرفه بالله ، فمن لم يعرفه به ، فليس يعرفه وإنما يعرف غيره» ولأجل ذلك لا يشتمل القرآن من معرفة الذات في الأغلب ، إلا على تقديسات محضة وتنزيهات صرفة وسلوب عن نقائص وإمكانات كقوله : (لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) وكقوله : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وكقوله : (وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ) وكسورة الإخلاص ، أو على تلويحات وإشارات إلى التعظيم المطلق ، كقوله : (سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) وقوله : (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) ، و (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) وقوله تعالى (عَمَّا يَصِفُونَ) أو إضافات محضة كقوله :

(بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) وقوله : (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ).

وأما الصفات ، فالمجال للفكر فيها أفسح ، ونطاق النطق فيها أوسع ، لأنها مفهومات عقلية يقع فيها الاشتراك ، إلا أنها فيه على وجه أشرف وأعلى ، وأن مصداقها في الأول تعالى ذاته بذاته ، وفي غيره ليس كذلك. ولأجل ذلك اشتمل القرآن على ذكر تفاصيلها في كثير من الآيات ، كما في قوله : (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وقوله : (هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) وكقوله : (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) وقوله : (هُوَ اللهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى) وفي هذا القسم أيضا غموض شديد ، وتعسر تام ، ولا يمكن معرفة بعض الصفات ، كالكلام والصفات التشبيهية ، إلا لأهل البصائر الثاقبة ، كالسمع ، والبصر ، والاستواء على العرش ، والابتلاء ، والمماكرة ، والتردد ، والذهاب ، والمجيء ، والكراهة ، والتأذي ، وكالوجه ، واليد ، والجنب ،

والقدم ، وغير ذلك مما لا يعرفه إلا الراسخون في العلم.

وأما الأفعـــال ، فبحر متسع أطرافه ، ولكل أحد أن يخـوض فيه ويسـبح في غمراته بقـدر غـزارة علمه وقـوة سباحته ، لكن لا ينـال بالاستقصـاء أطرافه ، لأنها مرتبطة بالصفات كالصفات بالـذات ، بل ليس في الوجـود إلا ذاته وصفاته وأفعاله التي هي صور أسـمائه ومظـاهر صـفاته ، لكن القـرآن مشـتمل على الجلي منها ، الواقع في عـالم الشهادة تصريحا وتفصيلا ، وعلى الخفي منها ، الواقع في عالم الغيب تلويحا وإجمالا.

فـــالأول ، كـــذكر الســـماوات والأرض والكـــواكب والشـمس والقمر والجبـال والبحـار والسـحب والأمطـار وسائر أسباب الكائنات ، والحيوان ، والنبات. لكن أشـرف صنائع الله وأعجبها وأعظمها وأدلها على جلال الله وعلـوه ومجـــده ، ما هو محجـــوب عن الحس ، بل هو من عـــالم الملكـــوت ، وهي الملائكة والروحانيـــات والـــروح والعقل والنفس واللوح والقلم ، بل العرش والكرسي عند بعض ، فـإن هـذه كلها خارجة من عـالم الملك والشـهادة ، ومن أداني عالم ـ الملكوت هي الملائكة العمالة الموكلة بعـالم الأرضـين ، ومنهم كتبة الأعمـال ، وملائكة جـانب الشـمال وكـرام الكـاتبين. قوله : (**مَا يَلْفِـظُ مِنْ قَـوْلٍ إِلَّا لَدَيْـهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**) ، (**وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ**) فالسائق للعمل والشهيد للاعتقاد ، (**وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَـدَيَّ عَتِيـدٌ**) وقوله : (**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحـافِظِينَ ، كِرامـاً كاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ**) ومنهم أعوان ملك الموت وسدنة النيران ، (**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَـبْعُونَ ذِراعـاً فَاسْـلُكُوهُ**) ومنهم الساكنين في البراري والجبال ، ودونهم الجن والشـياطين المسلطين على جنس الإنس الـذين امتنعـوا عن السـجود لآدم عليه‌السلام ، ومن أعاليهم الملائكة السـماويون ، أي ، (**الَّذِينَ عِنْـــدَ رَبِّكَ لا يَسْـــتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِـــهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْـجُدُونَ**) ... ، (**يُسَـبِّحُونَ لَـهُ بِاللَّيْـلِ وَالنَّهـارِ وَهُمْ لا يَسْـأَمُونَ**). وأعلى منهم حملة العـرش والكروبيـــون ، وهم العـــاكفون في حظـــيرة القـــدس ، لا الالتفات لهم إلى هذا العـالم ، بل لا التفـات لهم إلى غـير الله ، لـــذهولهم عن ذواتهم واســـتغراقهم في شـــهود الحضرة الإلهية ، وهم من أهل الفناء في التوحيد ، ويقـال لهم الملائكة المهيمة ، ولا يستبعد أن يكون في

عبـاد الله من يشـغله مطالعة جلال الله عن الالتفـات إلى نفسه فضلا عن غيره.

وقد ورد في الحـــــــــديث عن رســـــــــول الله صــــلىاللهعليهوآله : «إن لله أرضا بيضـــــاء ، مســـيرة الشمس فيها ثلاثون يوما ، هي مثل أيام الدنيا ثلاثين مـرة ، مشحونة خلقا لا يعلمـون أن الله يعصى في الأرض ، ولا يعلمـون أن الله خلق آدم وإبليس» وأكـثر الخلق إدراكهم مقصور على عـالم الحس والتخيل وإنهما النتيجة الأخـيرة من نتـائج عـالم الملكـوت وهو القشر الأقصى من اللب الأصفى ، ومن لم يجاوز هذه الدرجة لا يعرف من القـرآن إلا ما له نســبة القشر الأخـير من الجـوز ، والبشـرة من الإنسان. فهـذه مجـامع القسم الأول من الثلاثة للأصـول ، وقد انقسم إلى ثلاثة أقسام ، فهي مع القسمين الأخيرين اللــذين أحــدهما معرفة النفس وأحــوال الآخــرة وكيفية صـــعودها إلى الله ومرورها على الصـــراط المســـتقيم وســـلوكها درجـــات طريق الحق وهبوطها وانحرافها عن الصـراط وسـقوطها عن الفطـرة ، ومرورها على دركـات الجحيم. وثانيهما ، معرفة المعـــاد وأحـــوال يـــوم القيامة والبعث والحشر والصـراط والمـيزان والحسـاب والكتـاب والثـواب والعقـاب في الجنة والنـار ، فـالمجموع خمسة أقسام نذكرها في أطراف ثلاثة.

الطرف الأول في علم الربوبية وفيه مشاهد :

المشهد الأول

في معرفة الحق الأول جل ذكره ووحدانيته وفيه قواعد :

قاعدة

في إثبات وجوده (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ)

اعلم أن أعظم البراهين وأسد الطرق وأنور المسالك وأشـــرفها وأحكمها هو الاســـتدلال على ذاته بذاته ، وذلك لأن أظهر الأشــــياء هو طبيعة الوجــــود المطلق بما هو مطلق ، وهو نفس حقيقة الـواجب تعـالى ، وليس شــيء من الأشــياء غــير الحق الأول نفس حقيقة الوجــود ، لأن غيره إما ماهية من الماهيـات ، أو وجـود من ــ الوجـودات الناقصة المشوبة بنقص أو قصـور أو عـدم ، فليس شـيء منها مصـداق معـنى الوجـود بنفس ذاته ، وواجب الوجـود هو صـرف الوجـود الـذي لا أتم منه ولا حد له ولا نهاية ولا يشوبه شيء آخر من عموم أو خصـوص ، أو صـفة غـير ــ الوجود بخلاف غيره.

فنقـول : لو لم يكن حقيقة الوجـود موجـودا ، لم يكن شـيء من الأشـياء موجـودا ، لأن غـير حقيقة الوجـود إما ماهية من الماهيـــات ، ومعلـــوم أنها من حيث ذاتها غـــير موجـــودة ، أو وجـــود نـــاقص غـــير تـــام ، فلا محالة يلزمه تـــركيب وتخصـــيص بمرتبة معينة وحد خـــاص من مطلق الوجود ، فيفتقر بالضرورة إلى سبب به يتم

وجوده ، ومحـدد يحـدده بحد الخـاص ، ويخرجه من القـوة إلى الفعل ، ومن الإمكان إلى الوجــوب ، إذ كل ما ليست حقيقته حقيقة الوجود فلا يقتضي ماهيته وجود ، ولا هويته حدا خاصا من الوجــود ، فيحتـاج إلى قـاهر عليه محـدد له مفيد لمرتبة المعين في الوجود ، وذلك المقتضي يجب أن يكون مقدما في الوجـود على الجميع تقـدم البسـيط على المــركب ، والواحد على الكثـير ، والتـام على النـاقص ، والغني على الفقير ، والفياض على المفاض عليه فحقيقة الحق الأول هو البرهان على ذاته والبرهان على كل شيء ، كما قـال جل شـأنه : (**أَوَلَمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُـلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) فهذه سبيل الصـديقين الـذين يتوسـلون به إليه ويستدلون به عليه ويستشـهدون بوجـوده على سـائر الأشياء لا بوجود الأشياء عليه ، كما في طريقة غيرهم من السـالكين الـذين يسـتدلون بوجـود الأثر على الصــفات وبالصــفات على الــذات ، وهي طــرق كثــيرة ، أجودها منهجان :

أحـدهما ، معرفة النفس الإنسـانية (**وَفِي أَنْفُسِـكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**) ، وهذا أجود الطرق بعد طريق الصــديقين ، لأن المســلك هاهنا عين الطــالب وفي طــريقهم عين المطلوب.

وثانيهما ، النظر في الآفاق والأنفس ، كما أشار إليه تعـالى : (**سَـنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**) وفي القرآن آيات كثـيرة في هــذا المنهج ، قد مــدح الله على النــاظرين في خلق السماوات والأرض ، وأثنى على المتفكرين في آثار صنعه وجوده.

قاعدة

في تحقيق الإيمان بالله واليوم الآخر ، قـال الله تعــالى : (**آمَنَ الرَّسُــولُ بِما أُنْــزِلَ إِلَيْــهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ...**) وقـال : (**وَمَنْ يَكْفُـرْ بِاللـهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُـلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً**) دلت الآيتــان على أن الإيمان يحصل بمعرفة هذه الأمور والتصديق بها وقـال :

(**الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِـرَةِ لا تَبْـدِيلَ لِكَلِمـاتِ اللـهِ ذلِـكَ هُـوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) وقال : (**إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللـهُ ثُمَّ اسْـتَقامُوا ، تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَـةُ ، أَلَّا تَخـافُوا وَلا تَحْزَنُــوا وَأَبْشِــرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَــدُونَ نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِـرَةِ**) دلت الآيتـان على أن المـؤمن الحقيقي من يكـون قلبه مـنزل كلمـات الله ومــورد الملائكة ، وقـال تعـالى : (**اللـهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُــوا يُخْــرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمــاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُـونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**) وقال : (**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمـاتِ إِلَى النُّورِ**) وقـال : (**يَـوْمَ تَـرَى الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمـانِهِمْ ...**) وقـــال : (**وَالَّذِينَ آمَنُــوا بِاللـــهِ وَرُسُـــلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّــدِّيقُونَ وَالشُّــهَداءُ عِنْــدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْــرُهُمْ وَنُورُهُمْ**) وقـال : (**قَدْ أَنْـزَلَ اللـهُ إِلَيْكُمْ ذِكْـراً رَسُـولاً يَتْلُـوا عَلَيْكُمْ آيـاتِ اللـهِ مُبَيِّنـاتٍ لِيُخْـرِجَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحاتِ مِنَ الظُّلُمــاتِ إِلَى النُّورِ**) دلت الآيـات على أن الإيمـان نـور عقلي يخـرج به النفس من القـوة والنقص إلى الفعل والكمـال ، ويـرتقي من عـالم الأجسام والظلمـات إلى عـالم الأرواح والأنـوار ، ويسـتعد للقاء الله تعـالى ، وذلك النـور هو المسـمى عند الحكمـاء السـابقين بالعقل بالفعل ، وقـالوا : إن النفس بسـبب مزاولة العلـوم العقلية اليقينية يصـير ذاتها عقلا قدسـيا صائرة نورا إلهيا من حزب الملائكة المقربين.

تنبيه واعلم أن الإيمان إيمانان

أحدهما ، تقليدي سمعي ، كإيمان العوام يصدقون بما يسـمعون ويسـتمرون عليه وبه يمتـازون عن الحيوانـات وفائدته في الـدنيا حقن الأمـوال والـدماء وإيمـان كشـفي قلبي يحصل بانشراح الصدر وتنـور القلب بنـور الله ، كما أشار الله تعالى إليه (**أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَـدْرَهُ لِلْإِسْـلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ**

قُلُـوبُهُمْ مِنْ ذِكْـرِ اللـهِ) وينكشف بـذلك النـور حقيقة الأشـياء الأصـلية على ما هي عليه ، فيتضح حينئذ أن الكل من الله ابتداؤه ، وإلى الله مرجعه ومصيره. وهذا الصنف هم المقربون النـازلون في الفـردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الحضرة الربوبية. وهم أيضا على أصـناف فمنهم السـابقون ، ومنهم من دونهم بحسب تفـاوت معرفتهم بالله وصـفاته وأفعاله ، ودرجـات العـارفين غـير محصـورة ، كما قـال تعـالى : (**يَرْفَـعِ اللـهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ دَرَجَـاتٍ**) إذ الإحاطة بكنه جلال الله غـير ممكن ، وبحر المعرفة ليس له سـاحل ، فكل له درجة بقدر قوة غوصه وخوضه فيه. وأما المـؤمن إيمانا تقليديا فهو من أصحاب اليمين إن كان عمله صـالحا ، فهو يثاب في الآخرة بحسب ميزان عمله وسلامة صدره من الغل والغش ، فمن أدى الفـرائض واجتنب الكبـائر ، فيـدخل في الجنة ، وكـذا من أهمل الفـرائض وارتكب الكبائر ، إلا أنه تاب توبة نصوحا ، فـإن التـائب من الـذنب كمن لا ذنب له. وأما من لم يتب من الكبائر حـتى مـات ، فأمره خطير ، إذ ربما كان موته على الإصرار سببا لزوال إيمانه ، فختم له بسـوء الخاتمة ، لا سـيما إذا كـان إيمانه تقليـديا ، فـإن التقليد وإن كـان جزما فإنه قابل للانحلال بـأدنى شـبهة ، والعـارف البصـير أبعد عن أن يخـاف عليه سوء الخاتمة ، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يـدخلان الجنة ولو بعد حين ، ويعـذبان عـذابا يزيد على عـذاب المناقشة في الحسـاب بحسب قـوة الإصـرار وكـثرة مدته وبحسب قبح الكبـيرة ، إلا أن يعفو الله ويتجـاوز عنه فإنه غفـور رحيم. وكما أن الإيمـان على ضـربين ، حقيقي وتقليـدي ، فالكفر أيضا كفران : كفر عن جحود وعنـاد وانحـراف عن منهج السداد ، وهو مضاد الحق ، لأنه صـفة وجودية وجهل مشفوع بالإصرار والاستنكار مـركب مع البغض واللجـاج ، وكفر عن قصـور ونقص وعـدم اسـتعداد ، وكلاهما منشأ الخلود في النـار ، إلا أن المنـافق أشد عـذابا وأسـوأ حـالا من الكافر الفطري لمكنة استعداده وقوة نفسه.

وتفصـيل المقـام : أن الأشـقياء على ضـربين ، أما المطرودون في الأزل الذين حق عليهم القول ، وهم أهل الظلمة والحجـاب الكلي لغلظ طبـائعهم وكثافتها وانغمـارهم في بحر الطبيعة ، فهم المختـوم على قلـوبهم أزلا ، كما قال

تعـالى (**وَلَقَـدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِـيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُـوبٌ لا يَفْقَهُـونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِـرُونَ بِها ، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها ، أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَـلْ هُمْ أَضَلُّ**) وكما قال : (**إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُـوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُـــوهُ ، وَفِي آذانِهِمْ وَقْـــراً ، وَإِنْ تَـــدْعُهُمْ إِلَى الْهُـدى فَلَنْ يَهْتَـدُوا إِذاً أَبَـداً**) وفي الحـديث القدسي «هـؤلاء خلقتهم للنـار ولا أبـالي» وأما المنـافقون الـذين كانوا مسـتعدين في الأصل قـابلين للنـور بحسب الفطـرة والنشــأة ، ولكن احتجب قلــوبهم بــالرين المســتفاد من اكتساب الرذائل النفسانية الحاصلة من ارتكـاب المعاصي ومباشـــرة الأفعـــال الســـبعية والبهيمية ومزاولة المكايد الشـيطانية حـتى رسـخت الهيئـات الغاسـقة والملكـات المضـلة وارتكمت على أفئـدتهم ، فبقـوا شـاكين حيـارى تائهين في تيه الجهالة وظلمات الحـيرة وحبطت أعمـالهم وانتكست رءوسهم ، فهم أشد عذابا وأسوأ حالا وأردأ مآلا وأعصى جـــوهرا من الفريق الأول ، لمنافـــاة مســـكة استعدادهم لأحوال مآلهم ووبالهم. والفريقان هم أصـحاب النار ، لأنهم أهل الدنيا ، أحدهما ، أهل الحجاب ، والأخرى أهل العقاب. فالفريق الأول ما أشـار تعـالى إليهم بقوله : (**إِنَّ الَّذِينَ كَفَـــرُوا سَـــواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْـــذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْـذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُـونَ ، خَتَمَ اللـهُ عَلى قُلُـوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**) والفريق الثـاني ما أشـار إليهم بقوله : (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُـولُ آمَنَّا بِاللـهِ وَبِـالْيَوْمِ الْآخِـرِ وَما هُمْ بِمُـؤْمِنِينَ ، يُخـــادِعُونَ اللـــهَ وَالَّذِينَ آمَنُـــوا ، وَما يَخْـــدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ ، فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ فَـزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**).

فـالفريق الأول من الأشـقياء الـذين هم أهل القهر الإلهي ، لا ينجع فيهم الإنذار ، ولا سـبيل إلى خلاصـهم من النـار (**كَـذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَـقُوا ، أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُـــونَ**) ، و (**كَـــذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَــةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ**) وهـؤلاء سـدت عليهم الطـــرق (**وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْـــدِيهِمْ سَـــدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَـــدًّا فَأَغْشَـــيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِـــرُونَ**) وأغلقت عليهم الأبـــواب ، لأن القلب هو أصل الأبـــواب ، وهو المشـــعر الإلهي الذي هو محل الإلهامات ، وقد حجبــوا عنه بختمه ، وكـذا السـمع والبصر اللـذان هما بابـان للفهم والاعتبـار للإنسان ، وقد حرموا عن جدواهما ، لامتناع نفـوذ المعـنى فيهما إلى القلب ، فلا سبيل لهم في

البـاطن إلى العلم الكشـفي البـاطني ولا في الظـاهر إلى العلم التعليمي الكسبي ، فحبســوا في سـجون الظلمـات وعظم عذابهم وحجابهم.

والفريق الثاني من الأشقياء هم الذين ســلب عنهم الإيمــان مع ادعــائهم له ، لأن محل الإيمــان هو القلب لا اللسان ، قال الله تعالى : (**قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُـوا ، وَلكِنْ قُولُـوا أَسْـلَمْنا ، وَلَمَّا يَـدْخُلِ الْإِيمـانُ فِي قُلُـوبِكُمْ**) ومعـنى قـولهم فيما حكى لله عنهم (**آمَنَّا بِاللـهِ وَبِـالْيَوْمِ الْآخِـرِ**) ادعـائهم علمي التوحيد والمعـاد اللذين هما أشرف العلوم الإلهية وأجل المعارف الربانية ، فكـذبهم الله بقوله : (**وَما هُمْ بِمُـؤْمِنِينَ**) فأشـار إلى أن علومهم خـدع وتلبيسـات يشـتبه بها الجهل بـالعلم ويظهر بها الباطل بصـــــورة الحق كما هو دأب المغـــــالطين المماكرين على ما قال تعالى : (**وَمَكَـرُوا مَكْـراً كُبَّاراً**) ، ... (**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْـداً ، فَمَهِّلِ الْكـافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً**) لكن أهل البصيرة يعرفـون وجـوه الخلط والتلبيس ، وتـدفعون خـداع أصـحاب الـوهم والظلمـات ، وأوهامهم بأنوار الإلهامات وأضـواء اليقينيـات ، كما قـال : (**وَلا يَحِيــقُ الْمَكْـرُ السَّــيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِـهِ**) ، (**وَيَمْحُ اللـهُ الْباطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ**) وفي القرآن آيات كثـيرة مشــيرة إلى أحــوال هــاتين الطــائفتين ، أعــني الضــالين الغاوين والمضلين المغوين المكذبين ، كقوله تعالى : (**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَـرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُـونَ ، وَلَـوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُـونَ**)وقوله : (**بَـلْ كَـذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُـوا بِعِلْمِـهِ ، وَلَمَّا يَـأْتِهِمْ تَأْوِيلُـهُ كَـذلِكَ كَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الظَّالِمِينَ**) وقوله : (**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّـمَّ وَلَـوْ كـانُوا لا يَعْقِلُـونَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُـرُ إِلَيْـكَ ، أَفَـأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ**).

قاعدة

في توحيده تعالى وأحديته وصمديته

البرهـــان على واحديته أيضا ذاته ، كما دلت عليه آية (**شَهِدَ اللهُ**) فإنك قد علمت أنه حقيقة الوجـود وصـرفه ، وحقيقة الوجود أمر بسيط لا ماهية له ولا تركيب فيه أصلا ، فثبت أنه أحد ، صـــمد ، وكلما هو أحد صـــمد فهو واحد فـرد لا شـريك له ولا تعـدد فيه ، إذ لا يتصـور كـثرة في صـــرف حقيقة شـــيء ، وكلما هو حقيقة نفس الوجـــود الصرف الذي لا أتم منه فلا يمكن فرض الاثنينية فيه فضلا عن جواز وقوع المفروض ، إذ تفـاوت الوجـودات المحضة والأنـوار الصـرفة بنفس الأتمية والأشـدية ومقابلهما ، فلو فـرض وجـودان بسـيطان ، لا بد وأن يكـون أحـدهما أتم وأشد من الآخر ، فيكـــون الآخر معلـــولا ، لما مر أن كل ناقص معلول ، إذ لو كانا تامين غير متناهيين في الشـدة ، لـزم أن يكـون كل منهما نفس حقيقة الوجـود بلا شـوب شيء آخر ، فلزم أن يكون حقيقة واحـدة من جهة ما هي تلك الحقيقة متكـثرة ، إذ لا ممـيز هنـاك زائـدا على نفس الوجـود. وأيضا : كل اثـنين فاثنينيتهما إما من جهة الـذات والحقيقة ، كالسواد والحركة ، وإما من جهة جزء الحقيقة خارجا ، كالإنسان والفـرس ، أو ذهنا ، كالسـواد والبيـاض. أو من جهة كمالية ونقص في نفس الحقيقة المشـــتركة ، كالسـواد الشـديد والسـواد الضـعيف ، أو بسـبب أمر زائد عارض كالكاتب والأمي ، وشيء من هذه الوجوه لا يتصور أن يكون منشأ لتعـدد الـواجب. أما الأول ، فلاتحـاد حقيقة الوجود ، وأما الثاني ، فلبساطتها ، وأما الثـالث ، فلتمامية الذات الواجبة ، وكون كل نـاقص محـدود معلـولا لغـيره ، وأما الرابع ، فلاستحالة كون الواجب متـأخرا عن مخصص خارجي ، بل كل ما فرض مخصصا من كم أو كيف أو غـير ذلك ، يجب أن يكون متـأخر الوجـود عن حقيقة الوجـود ، فـإذن ذات الـواجب يجب أن يكـون متعينة بـذاتها ، فذاته شاهدة على وحدانية ذاته.

والآيـات الدالة على وحدانيته تعـالى كثـيرة ، منها قوله : (**وَقُلِ**

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) ومنها (**ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُـوَ الْباطِـلُ ، وَأَنَّ اللـهَ هُـوَ الْعَلِيُّ الْكَبِـيرُ**) ومنها قوله : (**سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**) ومنها قوله : (**هُوَ اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**) وقوله : (**لا تَدْعُ مَـعَ اللـهِ إِلهاً آخَرَ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**) وقوله : (**قُلْ إِنَّما يُـوحى إِلَيَّ ، أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ**) وقوله : (**لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّما هُـوَ إِلـهٌ واحِـدٌ فَإِيَّايَ فَـارْهَبُونِ**) وقوله : (**قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَـلَ اللـهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْـلَ سَـرْمَداً إِلى يَـوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ**) إلى قوله : (**أَفَلا تُبْصِرُونَ**).

ومن الـــــبراهين الدالة على الواحدية والأحدية قوله تعالى : (**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ**) وقد علمت أن معـنى الواحد هو الـذي يمتنع من وقـوع الشـركة بينه وبين غيره ، ومعنى الأحد هو الذي لا تركيب فيه ولا أجزاء له بوجه من الوجوه ، فالواحدية عبارة عن نفي الشريك ، والأحدية عبارة عن نفي الكثرة في ذاتـه. ومعـنى الصـمد الغـني الـذي يحتـاج إليه كل شـيء ، وهـذا دليل على أنه أحدي الـذات ، إذ لو كـان له جـزء لكـان مفتقر إلى غـيره فلم يكن غنيا ، وقد فـــرض غنيا ، هـــذا خلف ، وكل واحد فرداني لا شريك له ، إذ لو كان له شـريك في معـنى ذاته لكـــان مركبا عن ما به يمتـــاز ، وما به يشـــترك ، فيكـــون مركبا ، ولو كـــان له شـــريك في ملكه لم يكن غنيا يفتقر إليه غيره ، فصـمديته دليل أحديته ، وأحديته دليل فردانيته في ذاته وملكه ، وقوله : (**لَمْ يَلِـدْ وَلَمْ يُولَـدْ**) دليل على أن وجـوده المسـتمر الأزلي ليس بقـاؤه بـالنوع وبتعـاقب الأشخاص التي ينحفظ بها بقاء النـوع كالإنسـان الطـبيعي المستمر نوعه بتـوارد الأفـراد المتماثلة ، وكـذا غـيره من الأمـور الطبيعية المسـتمرة أنواعها بتجـدد الأمثـال ، وإن كـانت على نعت الاتصـال. وقوله : (**وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ كُفُـواً أَحَـدٌ**) دليل على أنه لا يمكن أنه يوجد في مرتبة وجـــوده موجـــودا ، إذ كل موجـــود ســـواه معلـــول له مفتقر إليه ، متأخر وجوده عن وجوده تعـالى ، فلا مكـافئ له ولا ند ولا ضد له ، إذ نسـبة الكل إليه كنسـبة الأشـعة والأظلال إلى ذات الشمس المحسوسة لو كانت نورا قائما بذاته.

قاعدة

في توحيده في الإلهية كما في وجوب الوجود

قال تعالى : (**وَإِلَهُكُمْ إِلـهٌ واحِـدٌ لا إِلـهَ إِلَّا هُـوَ**) إله العالم واحد لا شريك له في الإلهية وبراهينه كثـيرة ، فمن جملة الطرائق فيه النظر في وحـدة العـالم ، فإنه قد ثبت بالبرهان أن العـالم كله شـخص واحد وحـدة طبيعية بعض أجزائه أعلى وأشـــرف من بعض ، فالكل حيـــوان واحد ناطق مسمى بالإنسان الكبير ، وأن عالم الأجسام بمنزلة بدنه وعلنه ، وعـــــالم الأرواح بمنزلة روحه وســـــره ، والمجموع منتظم في سلك واحد ، ولا يمكن تعـدد العـالم الجســماني ولا تعـدد العــالم الروحــاني ، إلا على ســبيل إحاطة بعضها بعضا ، وعلية بعضـها لبعض وارتبـاط بعضـها لبعض كارتباط الجسم بالروح ، فإذا كان كذلك ثبت وحدة إله العالم ، لأن الإلهية لا يتم إلا بكون الباري صانعا للعالم فإذا كان العـالم واحـدا كـان إله العـالم وصـانعه واحـدا لا شريك له في الإلهية كما لا شريك له في ذاته ، كما قال : (**أَفِي اللهِ شَكٌّ فـاطِرِ السَّـماواتِ**) وقـال : (**وَما كـانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُـهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللـهِ عَمَّاً يَصِـفُونَ ، عـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّــهادَةِ فَتَعــالى عَمَّا يُشْــرِكُونَ**) ، (**قُـلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ ، سَـيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَـدِهِ مَلَكُـوتُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ سَـيَقُولُونَ لِلَّهِ قُـلْ فَـأَنَّى تُسْـحَرُونَ**) ، (**لَـوْ كـانَ فِيهِما آلِهَـةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا**) وذلك لأن تشخص المعلول بتشـخص فاعله المفيض لوجوده ، إذ الوجود في كل شيء عين تشخصه ، وتشخصه عين وجوده ، فمفيض وجــوده مفيض تشخصه ، وكما لا يكون لشيء واحد شخصي وجودان ولا تشخصــان ، فكــذلك لا يكــون له موجــدان مشخصــان ، لأن أنحــاء الوجود والتشـخص متباينة متنافية ، والاتصـاف بكل منهما يقتضي نفي الاتصـاف بغـيره ، فكـذا الحـال في الاتصـاف بمبدإ به وجود وتشخص ، فإذا فرض لشيء واحد وجودان فهما متفاسدان ، إذ لا تـرجيح لأحـدهما على الآخر ، فهـذا معنى الآية لا الذي توهمه

بعضهم من وقوع العربدة والنزاع بين إلهين مفروضين ، لأنه كلام خطابي بل شعري ، جل جناب القرآن عن أمثال هذه النقصانات.

ويؤيد ذلك قوله : (**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ، فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ**).

قاعدة

في توحيده تعالى في حقيقة الوجود

قال الله تعالى : (**كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**) وقال : (**اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**) والنور والوجود حقيقة واحدة لا فرق بينهما إلا بمجرد الاعتبار والمفهوم ، وكذا الظلمة والعدم ، فمعنى نور السماوات والأرض وجودهما ، وقال : (**ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ ، وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ**) ، (**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ**) ، (**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**).

برهان ذلك : «أن الباري جل ذكره بسيط الذات أحدي الوجود كما مر ، وأن واجب الوجود بالذات واجب الوجود من جميع الجهات فلا يوجد فيه جهة إمكانية فلو فرض في ذاته فقد شيء من الأشياء الوجودية ، أو إمكان أمر من الأمور الثبوتية ، لم يكن واجب الوجود من جميع الوجوه ، فيلزم أن يكون فيه حيثيتان مختلفتان ، حيثية وجوب وجود شيء وحيثية إمكان وجود شيء آخر أو امتناعه ، فيلزم التركيب في ذاته ولو بحسب العقل ، وهو ممتنع ، فلا بد أن يكون كل وجود وكل كمال وجمال رشحا من رشحات بحر جماله ولمعة من لمعات نور كماله ، فجميع الوجودات ثابتة له على وجه أعلى وأشرف ولا سلب له إلا سلب الإمكان الذي هو معنى سلبي بسيط ، فصفاته السلبية كلها راجعة إلى سلب النقصان ، والسلوب المندرجة كلها تحت سلب الإمكان ، قال : (**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ**) ولم يقل ثالث اثنين ، إذ لم يصيروا بذلك كفارا ، بل هو ثالث الاثنين

ورابع الثلاثة وخـامس الأربعة وسـادس الخمسة وهكـذا ، كما دلت عليه الآية المــذكورة ، وهي قوله تعـالى : (**ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُـوَ رابِعُهُمْ ...**) الآيـة» وذلك لأن وحدته ليست عددية ، بل وحـدة أخـرى جامعة لجميع الآحاد والأعداد ، فلو كانت وحدته عددية لكـانت داخلة في باب الأعداد ، فلم يكن حينئذ فرق بين أن يقال ثـالث ثلاثة أو ثـالث اثـنين ، ولم يكن أحد القـولين كفـرا دون الآخر ، بخلاف ما إذا كانت وحدته خارجة عن باب الأعداد ، فكـان القول حينئذ بكونه ثالث الثلاثة أو رابع الأربعة كفرا وباطلا ، إذ ثـالث الثلاثة داخل في عـدد الثلاثة وكـذا رابع الأربعة داخل في الأربعة وهكذا.

ثم لما كانت وحدته نحوا آخر مغايرا لسـائر الوحـدات وليست من جنسها ، فهي مع كونها مغـايرة لها جامعة لها مقومة إياها ، فلكونه تعـالى كـذلك ، صح أن يقـال : إنه رابع الثلاثة ، فإذا انضم إلى الثلاثة واحد من جنسها ، صـار هو سبحانه خامس الأربعة ، وهكذا إلى غير النهايـة. وهـذا مما يخفى دركه ، إلا على الراســخين «ف (**هُــوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ**) ، وهو (**بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيـطٌ**). وفي كلام سيد الموحدين أمير المؤمنين عليه‌السـلام «مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة».

واعلم أن لنا بعد الكشف والشـهود بـراهين متعـددة على هذا المطلب تركنا ذكرها ، إذا لا تأثير في ذكرها لغير ذوي بصـائر قلبية ومن كـان ذا بصـيرة قلبية يكفيه ما أوردناه من البرهـان المـذكور ، لأن من يتنـور باطنه بنـور الحق الأول ، فيشاهد أنه مع كونه واحدا غير قابل للتكثـير والانقســام ، انبسط على هياكل الموجـــودات ، ووسع بجميع ما في الأرض والسماوات ، ولا يخلو منه شـيء من الأشـياء ولا ذرة من ذرات الكائنـات ، وهو مع كونه مقوما لكل وجود ، مستغن مقدس عن كل موجود ، لا يلحقه من معيته لسـائر الأشـياء نقص ولا شـين ، ولا تغـير ولا تكـثر وانقســام ، كـالنور الحسي الواقع من الشــمس على الروازن والثقب وعلى النجاسات والقاذورات من غـير أن يتكـثر ذاته ويتلـوث بشـيء منها أو يمـتزج بها ، فـإذا كـان حـال النـور الحسي ، هكـذا ، فما ظنك بحـال نـور الأنـوار العقلية في انبساطه على الأشياء وعدم مخالطته بها.

تنبيه مشرقي

ومما ينبهك على أن وجوده تعـالى وجـود كل شـيء ، أن وجوده عين حقيقة الوجود وصرفه من غير شوب عدم وكـثرة ، فلو لم يكن وجــودا لكل شــيء لم يكن بســيط الذات ولا محض الوجود ، بل يكون وجـودا لبعض الأشـياء وعدما للبعض ، فلزم فيه تركيب من وجود وعدم ، وخلط بين إمكـان ووجـوب ، وهو محـال. فـإذن يجب أن يكـون وجوده تعالى لكونه صـرف حقيقة الوجـود ، وجـودا لجميع الموجودات (**لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها**) فلا يخرج من كنه ذاته شيء من الأشياء ، لأنه تمام كل شيء ومبــــدؤه وغايته ، وإنما يتعــــدد ويتكــــثر وينفصل لأجل نقصاناتها وإمكاناتها وقصوراتها عن درجة التمام والكمــال ، فهو الأصل والحقيقة في الموجودية ، وما سـواه شـئونه وحيثياته ، وهو الـذات ، وما عـداه أسـماؤه وتجلياته ، وهو النــــور ، وما عــــداه ظلاله ولمعاته ، وهو الحق ، وما خلا وجهه الكريم باطل (**كُـلُّ شَـيْءٍ هالِـكٌ إِلَّا وَجْهَـهُ**) ، (**ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ**).

المشهد الثاني

في صفاته وأسمائه وفيه قواعد :

قاعدة

في توحيد صفاته الكمالية

اعلم أن صفات الله مجـردة ، أي غـير عارضة لماهية أصلا ، وكل صـفة منه حق صـمد فـرد يجب أن يكـون قد خـرج فيه جميع كمالاته إلى الفعل لم يبق شـيء منها في مكمن القـوة والإمكـان ، لأنه لا جهة فيه سـواه ، فكما أن وجوده تعالى حقيقة الوجود من غير شوب عدم وإمكـان ، فيكـون كل الوجـود وكله الوجـود فكـذلك جميع صـفاته الكمالية التي هي عين ذاته ، فعلمه حقيقة العلم ، وقدرته حقيقة القدرة ، وما هـذا شـأنه يسـتحيل فيه التعـدد ، وإلا لكـان الشـيء قاصـرا عن ذاته ، فيكـون علمه علما بكل شـيء وقدرته قـدرة على كل شـيء ، وإرادته إرادة لكل شيء ، وهكذا في جميع ما له من الصفات. فـالعلم هنـاك واحد ومع وحدته يجب أن يكـــون علما بكل شــــيء. ولا يعزب عنه شـيء من الأشـياء الكلية والجزئية ، إذ لو بقي شـيء من الأشـياء لا يكـون ذلك العلم علما به ، ولا شك في أن العلم به من جملة مطلق العلم ـ فلم يخـرج جميع العلمية في ذلك إلى الفعل ، وقد قلنا إن ذلك واجب ضـــروري وإلا لم يكن صـــرف حقيقة العلم ، بل علما من جهة وجهلا من جهة أخـرى ، ففيه شـوب تـركيب من علم وجهل ووجود وعدم ووجـوب وإمكـان «فهو تعـالى (**بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) وكذا قدرته

حقيقة القدرة ، فلا يخرج عنها شيء من المقدورات ، وإلا لم يكن قدرة محضة ، بل قـدرة من وجه وعجـزا من وجه (**وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) ، (**لَـهُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**) وقوله : (**اللهُ خالِقُ كُلِّ شَـيْءٍ**) وقوله : (**وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللـــــــــهَ رَمى**) وقوله : (**قاتِلُوهُمْ يُعَـذِّبْهُمُ اللـهُ بِأَيْـدِيكُمْ**) وهكـذا قيـاس إرادته لقوله صـلى‌الله‌عليه‌وآله : «ما شـاء الله كـان وما لم يشأ لم يكن» وقوله : (**وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللـهُ**) وقس عليه سائر صفاته الكمالية.

فعليك بهذه القاعدة الشريفة الـتي علمنا الله بها من لدنه ، فإنها عظيم الجـــدوى في بـــاب التوحيد الخاصي ، لكن يجب عليك أن تعلم أن هذه القاعـدة إنما يجـري في الحقــايق الكلية والمعــاني الكمالية العامة الــتي يعــرض للموجـود بما هو موجـود ، ولا مـدخل في حـدها تخصـيص بمادة معينة أو استعداد خاص أو تجسم أو تغير كالإنسـانية ، حيث إنها عبارة عن جوهر مخصوص بنمو واغتذاء وحس وحركة ، وهو لا محالة مغــاير للفلكية والنارية والفرســية وغيرها ، فلا يمكن أن يكــون حقيقة شــاملة لكل شــيء ويكــون إنســانية لكل شــيء. وكالســواد فإنه عــرض مخصوص ينفعل عنه البصر الذي هو أيضا قــوة مخصوصة في مادة وضـعية مخصوصة ، فلا يمكن أن يكـون السـواد ســوادا لكل شــيء. والسر في ذلك ، أن كل حقيقة من هــذه الحقــائق المختصة ليست محض تلك الحقيقة ، بل هي بالضــرورة ممتزجة بغيرها من الأعــدام والنقــائص والمضادات ، فالإنسـان مثلا لا يمكن أن يوجد في الخـارج بصرف الإنسانية من غير مخالطة أشـياء مباينة له مخالفة لمعناه ، فلا محالة يتعين في ذاته بـأن يكـون مباينا لسـائر الأنـواع ، وذلك بخلاف الأمـور الشـاملة ، كـالوجود والعلم والقــدرة والحيــاة وغيرها ، إذ يمكن أن يكــون من أفــراد مفهوم الوجود وجود بسيط ، هو محض حقيقة الوجود من غير أن يكون معه شيء مبـاين للوجـود ، فيكـون لا محالة وجودا لكل شيء لا يعـوزه شـيء من الأشـياء ، وكـذا من أفراد العلم علم هو محض حقيقة العلم لا حيثية له مغايرا للعلم ، فيكــون علما بكل شــيء ، وعلى هــذا القيــاس القدرة والحياة والإرادة.

فــإن قلت : مفهــوم العلم غــير مفهــوم القــدرة ومفهوماهما غير مفهوم

الإرادة ومفهومات هذه الثلاثة غير مفهـوم الحيـاة ، فكيف يكون الجميع في حق الواجب تعالى حقيقة واحدة بسيطة لا تغاير فيها.

قلنا : الاختلاف في المفهوم لا ينافي البسـاطة الحقة ، لأن قولنا صـفات الـواجب عين ذاته ، معنـاه أن وجـوده بعينه وجود هـذه المعـاني ، وحيثية ذاته بعينها حيثية سـائر الصـفات ، وهي ليست بـأمور زائـدة من حيث وجودها وحقيقتها على وجـود الـواجب وحقيقته ، وليس معنـاه أن هذه الألفاظ مترادفة لها مفهوم واحد ، وإلا لم يكن حملها مفيدا. وقول أمـير المؤمـنين عليه‌السـلام «كمـال التوحيد نفي الصـفات عنـه» ليس المـراد نفي معانيها عن ذاته ، وإلا يلزم التعطيل ، وهو كفر فضيح ، بل معنـاه نفي كونها صـفات زائـدة على ذاته بحسب الوجـود والحقيقـة. فعلى هذا صح قول من قال : إن صـفاته عين ذاته ، وصح قـول من قال : إنها غيره. وصح قـول من قـال : إنها لا عينه ولا غيره ، لو علم ما حققناه.

فكن على بصيرة في هذا الأمر ولا تكن من الغافلين.

قاعدة

في تحقيق أسمائه تعالى

قـال الله سـبحانه : (**وَلِلَّهِ الْأَسْـماءُ الْحُسْـنى ، فَادْعُوهُ بِها ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ**).

واعلم أن العلم بالأسـماء الإلهية علم شـريف دقيق ومعرفة لطيفة غامضة ، وبه فـاق أبونا آدم عليه‌السـلام على الملائكة حيث قال : (**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ ، فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**) ، ... (**فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ ، قالَ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**) ويسـتفاد من هـذه الآيات أحكام علمية شريفة.

منها ، أن المـــــراد من الاسم ليس كما فهمه المتكلمون من أنه لفظ موضوع في اللغة بإزاء معـنى من المعاني ، يدل على ذلك أمور :

أحدها ، قوله : (**وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى**) فوصفها بالحسنى من قبل الله مشعر بأنها ليست من قبيل الهيئة العارضة للصوت ، إذ لا شرافة معتد بها لبعض الألفاظ على بعض ، إذ كلها من نوع واحد ، فكما لا فرق بين لفظ الإيمان والكفر والنور والظلمة في الحسن والقبح من حيث إنها هيئات مسموعة ، بل في مدلولاتها ومعانيها التي وضعت هذه الألفاظ بإزائها.

وثانيها ، قوله تعالى : (**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**) اذ معلوم أن الاسم مما يسبح به لا مما يسبح له.

وثالثها ، أن الذي صار سببا لمزية منزلة آدم ، عليه‌السلام ، على الملائكة لم يكن مجرد حفظ الألفاظ ، بل الاسم هو ما يعرف به حقيقته وحده ، كمفهوم الحيوان الناطق للإنسان ، فقد يكون لشيء واحد في الوجود والهوية والذات مفهومات كثيرة كلها موجودة بوجود واحد ، كالجوهر ، والجسم ، والنامي ، والحساس ، والناطق ، والموجود ، والممكن ، والمتحيز والمتقدر ، والمتمكن ، وغير ذلك في باب الإنسان ، فإنها مع كثرتها بحسب المعنى والمفهوم صارت ذاتا واحدة موجودة بوجود واحد. فالمراد من الاسم في عرف العرفاء هو المعنى المحمول على الذات والفرق بين الاسم والصفة ، كالفرق بين المركب والبسيط بوجه ، فإن الاسم كالأبيض والصفة كالبياض ، والفرق بين العرضي والعرض عند محققي أهل النظر ، أن المأخوذ «لا بشرط شيء» هو العرضي والمأخوذ «بشرط لا شيء» هو العرض ، فالمسمى قد يكون واحدا والأسماء كثيرة وهي محمولات عقلية وليس المراد بها الألفاظ ، لأنها غير محمولة حملا اتحاديا ، وهذه الألفاظ التي هي بإزائها أسماء الأسماء عندهم ، وأما تلك المحمولات فهي بالحقيقة علامات ومعرفات للذات الموسومة بها.

واعلم أن عالم الربوبية عظيم الفسحة جدا ، فيه جميع ما في عالم الإمكان على وجه أعلى وأشرف مع ما يزيد عليها مما استأثره الله بعلمه ، ومن لم يكن عنده علم الأسماء ، تعذر عليه إثبات عالميته تعالى بجميع الموجودات ، لأنها بحسب وجوداتها الخاصة متأخرة عن مرتبة ذاته تعالى ، مع أنه تعالى عالم بجميعها علما مقدما على وجوداتها الإمكانية ، فلو لم يكن الممكنات

على كثرتها وتفصــيلها موجــودة بوجــود واحد في مرتبة الـــذات الأحدية ، لم يكن علمه تعـــالى بخصوصـــياتها وماهياتها مقدما عليها ثابتا له قبل وجودها.

ومنها ، أنه وقعت الإشـارة إلى ما ذكرنـاه من كيفية علمه بـالموجودات من جهة اشـتمال أسـمائه تعـالى على كل شيء ، بقوله تعالى : (**فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قـالَ : أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ ما تُبْـدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُـونَ**) كـأنهم حيث لم يحصل لهم العلم بالأسماء ، لم يعرفوا كيفية علمه تعـالى بكل خفي وجلي وجزئي وكلي. وسبب اختصاص الإنسـان بهـذا التعليم دون الملائكة وغـيرهم ، أن حقيقة الإنسـان مظهر جـامع لمظـاهر كل الأســماء ، بخلاف غـيره من الموجـودات ، فـإن كل واحد منها مظهر لبعض الأسـماء ، كالملائكة للسبوح والقدوس والسلام ونحوها ، والشياطين للمضل والمتكبر ، والعزيز ، والجبـار وما يجـري مجراها ، والحيوانـات مظـاهر للسـميع والبصـير والحي والقـدير وأشـباهها ، والنـار مثلا للقهـار ، والهـواء للطيف ، والمـاء للنافع ، والأرض للصبور والأدوية السـمية للضـار ، والـدنيا للأول ، والآخـرة للآخر ، وعلى هـذا القيـاس ، فلو لم يكن الإنسان مما يوجد فيه مظاهر جميع الأسماء والصـفات لم يكن من شـأنه العلم بالأسـماء ومعرفة الأشـياء كما هي ، والملائكة كل منهم له مقام معلوم ، فالقائم منهم لا يركع والراكع منهم لا يسجد.

ومنها ، إيراد ضمير ذوي العقول في قوله : (**أَنْبِئْهُمْ بِأَسْـمائِهِمْ**) مع أن المـراد بها ليس أسـماء الملائكة بل الأسماء كلها ، كما دل عليه سـياق الآيـة. ففيه إشـعار بما ذهب إليه أساطين الحكمـاء الأقـدمون ، من أن لكل نـوع من أنـواع الموجـودات جـوهرا نورانيا عقليا هو كلي ذلك النوع وتمام حقيقته ومثاله القـائم عند الله فهي المظـاهر الأولى للأســماء الإلهية والصــور النوعية الخارجية ، هي المظـاهر الثانية ومظـاهر المظـاهر ، كما بين في مقامه على نحو البيان الحكمي البرهاني ، وليس غرضنا في هـذا الكتاب إلا إشارة إجمالية إلى أسـرار بعض آيـات القـرآن. وأما إيـراد الـبراهين على وجه مبسـوط مشـروح ، فهو موكـول إلى سـائر كتبنا وتفاسـيرنا سـيما كتـاب الأسـفار الأربعة.

فـإذا تقـرر ما ذكرنـاه ، فنقـول : أسـماء الله تعـالى بالحقيقة هي المحمولات

العقلية المشـــــــتملة عليها ذاته الأحدية لا يتعلق بها جعل وتــأثير ، بل هي موجــودة باللاجعل الثــابت للــذات ، ولها أحكــام ثابتة وآثــار لازمة هي مظاهرها ، وربما يطلق عند العرفاء الاسم ويراد بها المظهر لأنه أيضا فـرد من معـنى ذلك الاسم ، كما في قوله تعالى : (**قُلْ كُـلٌّ يَعْمَـلُ عَلى شـاكِلَتِهِ**) وأليق المجعـولات بـأن يعـرف بها ذاته تعـالى ويكون مظاهرا لأسمائه وصفاته ، هي كلمات الله التامات والأرواح العاليات التي هي بمنزلة أشعة نور وجهه وكماله ، ومعرفات جماله وجلاله ، فهي الأسماء الحسـنى ، والله اسم للذات الإلهية باعتبار جامعيته لجميع النعوت الكمالية ، وصـــــورته الإنســـــان الكامل ، وأشــــــير بقوله صــلىاللهعليهوآله : «أوتيت جوامع الكلم» والــرحمن هو المقتضي للوجـود المنبسط على الكل بحسب ما يقتضـيه الحكمة ويحتمله القوابل على وجه البداية ، والـــرحيم هو المقتضي للكمال المعنـوي للأشـياء بحسب النهاية ، ولـذا قيل : «يا رحمان الـدنيا ورحيم الآخـرة» بمعـنى بسم الله الرحمن الرحيم بالصورة الكاملة الجامعة للرحمة الخاصة والعامة الـــتي مظهر الـــذات الإلهية والاسم الأعظم مع جميع الصـــفات. وإلى هـــذا المعـــنى أشـــار النـــبي صـــــــلىاللهعليهوآله : «أوتيت جوامع الكلم» وبقوله : «بعثت لأتمم مكــارم الأخلاق» إذ الكلمــات هي حقــائق الموجـــودات وأعيانها وخصوصا صـــورها المجـــردة ، كما سـمي عيسى كلمة من الله وسـميت المفارقـات العقلية كلمات الله التامات ، ومكارم الأخلاق كمالاتها وقواها التي هي مصـــادر أفعالها ، وجميعها محصـــورة في الحقيقة الجامعة الإنسانية.

قاعدة

في تعيين الاسم الأعظم ومظهره

لا شك أن الاسم الأعظم ينبغي أن يكـــون معنـــاه مشتملا على جميع المعاني للأسماء الإلهية على الإجمال ، وكذا مظهره يجب أن يكون حقيقة مشتملة على مجمــوع حقائق الممكنات التي هي مظاهر الأسـماء ولا يصـلح من الأسماء

لهـذه الجمعية الأسـمائية إلا اسم الله ، كما ذكر ، وكـذلك الحي القيوم ، إلا أن الأول بحسب الوضع العلمي والثـاني بحسب الوضع اللقـــبي ، لاشـــتماله على جميع معـــاني الأسـماء الإلهية تضـمنا أو التزاما ، ولأجل ذلك كل ذكر أو دعـاء قيل إن فيه الاسم الأعظم ، فهو مشـتمل لا محالة على أحدهما أو عليهما جميعا ، كقوله تعالى : (**اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُـــوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**) وإنما قلنا : إن الحي القيـــوم مشـتمل على جميع الصـفات الكمالية والنعـوت الإلهية ، لأن اســمه الحي مشـــتمل على جميع الأســماء الذاتية ، فيدل على وجوب الوجود ووجوب الإيجاد ، ومسـتلزم من الإرادة والقدرة والسـمع والبصر والكلام ، والقيـوم لكـون معنـــاه مبالغة في القيـــام لإدامة الموجـــودات على وجه التمام عدة ومدة وشدة ، فهو مشتمل على جميع الأسماء الفعلية كالخالقية والرازقية والكـــرم والجـــود واللطف والرأفة والرحمة والعطوفة والإبـداع والتكـوين والإنشـاء والإعـادة والتقـديم والتـأخير والإرسـال والإنـزال والبعث وغير ذلك من صفات الفعل. فإذا تجلى الباري بعبد بهاتين الصـــفتين فالعبد يكاشف عند صـــفة الحي معـــاني جميع أســمائه وصـــفاته الجمالية ، وعند تجلي اســمه القيـــوم معاني أسمائه وصفاته الجلالية ، إذ يرى عنـده فنـاء جميع المخلوقـــات لأن قوامها وقيامها بقيومية القيـــوم الحق لا بأنفسهم ، فلا يرى في الوجود إلا الحي القيـوم. وأيضا قد تحقق وانكشف من قاعدتنا الممهدة المـذكورة في توحيد صفاته ، أن حياته حقيقة الحيـاة ، وحقيقة الحيـاة يجب أن يكـون حيـاة كل شـيء ، فلو لم يكن كـذلك لم يكن حياته صرف الحياة. وكـذا قيوميته يجب أن يكـون محض حقيقة القيـــام والإقامة فلا قـــائم ولا مقيم إلا بقيامه وإقامته ، فهـذان الاسـمان هما الاسم الأعظم لمن تجلى له ، فمن ذكرهما بلسـان العيـان لا بلسـان البيـان فقط ، فقد ذكر الله باسـمه الأعظم الـذي إذا دعي أجـاب وإذا سـئل به أعطى. وكذا الذاكر إذا غـاب عن ذاته فعند غيبته عن ذاته وفنائه في عظمة الوحدانية ، بكل اسم دعا ربه يكـــــون الاسم الأعظم. ولـــــذلك لما ســـئل أبو يزيد عن الاسم الأعظم قال : ليس له حد محـدود ، ولكن فـرغ بيت قلبك لوحدانيته فإذن كل اسم هو الاسم الأعظم.

قال صاحب الفتوحات المكية في الجواب عن أسـئلة الحكيم محمد بن علي الترمـذي : الاسم الأعظم الـذي لا مدلول له سوى عين الجمع وفيه الحي القيوم ، فإن قلت هو الله قلت لا أدري ، فإنه يفعل بالخاصـية وهـذا اللفظ إنما يفعل بالصدق إذا صار صفة للمتلفظ به ، بخلاف ذلك الاسـم. وقـال في موضع آخر منها : ومعلـوم عند الخـاص والعـام ، أن ثمة أسـماء عاما يسـمى الاسم الأعظم وهو في آية الكرسي وأول آل عمـران ، ومن الأسـماء ما هي حـروف مركبة ومنها ما هي كلمـات مركبة مثل الـرحمن الـرحيم هو اسم مـركب كبعلبـك. واعلم أن الحـروف كالعقاقير لها خواص بانفرادها ولها خواص بتركيبها.

قاعدة

في علمه تعالى بذاته وبغيره

كل وجود لا يشوبه عدم ولا يغطيه حجاب وغشاوة ولا التباس ولا يغشـاه الظلمـات ، فهو مكشـوف لذاته حاضر غـير غـائب عن ذاته ، فيكـون ذاته علما وعالما بذاته ومعلوما لذاته ، إذ الوجود والنور شيء واحد ولا حجاب له إلا العدم والقصـور ، فكل وجـود بحسب سـنخه يصـلح أن يكـون معلوما ، وإنما المـانع له ذلك إما العـدم والعـدمي كـالهيولى الأولى لتوغلها في الإبهـام ، أو الخلط بالعـدم الذي هو أصل الظلمات ، كالجسم وما يحله ، إذ كل جـزء من الجسم محجـوب عن صـاحبه غـائب عن جـزء آخر ، وكذا كل بعد وحجم وكل ذي بعد وحجم مكاني أو زماني ، كالحركة وما معها حكمه هذا الحكم ، سواء كان بالذات أو بالعرض ، كالسواد والبياض وغيرها من الوضعيات المادية ، فالكل مما لا يتعلق به إدراك ، وإنما المـدرك من كل منها صورة أخرى وجودها غير هذا الوجود المادي الوضعي الواقع في جهة من جهـات هـذا العـالم ، فكل ما وجـوده وجود صوري غير منقسم الذات إلى أمـور منفصل بعضـها عن بعض ، فهو معلـوم الهوية مـدرك الـذات بالفعل لا يمكن انسلاب الشعور عن ذاته ، ولا يحتاج في

كونه مشـــــــعورا به إلى عمل من تجريد أو تلخيص ، بل وجوده وجود إدراكي ، وهو حي بحياة ذاتية ، وهكـذا جميع الصـــور الأخروية ســـواء كـــانت محسوسة أو معقولة ، والواجب جل ذكره لكونه بـريء الـذات عن شـوب العـدم والجســـمية والـــتركيب والإمكـــان ، فهو في أعلى مرتبة المدركية والمدركية والعاقلية والمعقولية ، ولأنه مبــــــدأ وجـود العقلاء وفيـاض الصـور العلمية على ذواتهم وواهب الـروح والحيـاة على الكل ، فيكـون عـاقلا لذاته ولسـائر الأشـياء فـإن العلم بالعلة يـوجب العلم بـالمعلول. قـال تعـالى : (**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَـقَ ، وَهُـوَ اللَّطِيـفُ الْخَبِـيرُ**) قوله : (**وَما يَعْـــــزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقـــــالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتـابٍ مُبِينٍ**) وقوله : (**لا يَعْـزُبُ عَنْـهُ مِثْقـالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ**) الى قوله : (**فِي كِتابٍ مُبِينٍ**).

قاعدة

في مراتب علمه تعالى بالأشياء إجمالا وتفصيلا

فمنها ، العناية وهي العلم بالأشياء الـذي هو عين ذاته المقدسة ، وهو العقل البسـيط لا تفصـيل فيه ولا إجمـال فوقه. والعناية علم تفصيلي متكـثر ، وهي نقش زائد على ذاته تعـــالى عند أصــــحاب أرســـطاطاليس وأتباعه من المشائين. والتحقيق أنها غير زائدة على الــذات وليس لها محل لما أشرنا إليه سابقا من أن حقيقة الوجـود يجب أن يكون كل الأشـياء على وجه مقـدس عقلي وإليه الإشـارة بقوله : (**وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ**).

ومنها ، القلم واللوح ، فـالقلم موجـود عقلي متوسط بين الله وبين خلقه فيه جميع صـــور الأشـــياء على الوجه العقلي ، وهو أيضا عقل بســـيط ، إلا أنه دون الحق الأول في البساطة والشــرف. وأيضا : الحق الأول واحد حقيقي بسيط من كل وجه والعقول الفعالة متعـددة كثـيرة. وإلى تلك الأقلام أشار تعالى بقوله : (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**) وقوله :

(**وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**) وإنما سمي العقل الفعال قلما ، لأن شأنه تصوير الحقائق في ألواح النفوس وصحائف القلوب ، وبه يستكمل النفوس بالصور العلمية ، ويخرج ذاتها من القوة إلى الفعل ، كما بالأقلام ينتقش الألواح والصحائف ويتصور مادتها بصور الأرقام ونقوش الكتابة.

وأما اللوح ، فهو جوهر نفساني وملك روحاني يقبل العلوم من القلم ، ويسمع كلام الله عنه.

ومنها ، القضاء والقدر ، فالقضاء عبارة عن وجود جميع الموجودات بحقائقها الكلية وصورها العقلية في العالم العقلي مجتمعة ومجملة على سبيل الإبداع ، وتلك مرتبطة بالحق الأول ، موجودة في صقع الإلهية ، لا ينبغي عدها من جملة العالم بمعنى ما سوى الله ، بل الحق أنها معدودة من لوازم ذاته الغير المجعولة ، لأنها صور علمه التفصيلي بما عداه ، ولذلك قال : (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ**) فالعالم كله جوده ورحمته وخزائن جوده ورحمته يجب أن يكون قبل الجود والرحمة ، فلو كانت تلك الخزائن من جملة جوده ، أي من مخلوقاته ومقدوراته ، فلا بد لها أيضا من خزائن سابقة عليها ، فظهر أن خزائن الله ليست من جملة المصنوعات والأفاعيل ، بل هي سرادقات نورية ولمعات جمالية وجلالية.

وأما القدر ، فهو قدران : قدر علمي ، وقدر خارجي ، فالأول عبارة عن وجود تلك الأشياء مقدرة مصورة بشخصياتها وجزئياتها في قوة إدراكية ونفس انطباعية. وأما الثاني ، فهو عبارة عن وجودها في موادها الخارجية مفصلة واحدا بعد واحد مرهونة بأوقاتها وأزمنتها ، موقوفة على موادها واستعدادتها ، متسلسلة من غير انقطاع ، كما قال تعالى : (**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها**) وقال : (**وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**) وأشار إلى القدر العلمي بقوله (**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ**) وقوله : (**يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**) وسيأتي لك مزيد توضيح وتفصيل لهذا المقام.

قاعدة

في أن صدور الأشياء المكونة عن علمه تعالى

فالذي يعقله العـاقلون ويعرفه الحكمـاء الإلهيـون في كيفية صــدور الأشــياء المتجــددة عن علمه ، أن الرحمة الإلهية والعناية الربانية لما لم يجز انقطاعها على عـــدد ، ولم يمكن وقوفها عند حد يبقى وراءه الإمكـــان الغــــير المتنــاهي على القــوة والكمــون من غــير أن يخــرج إلى الوجـود والظهـور ، وعـالم الأجسـام المادية عـالم ضـيق قصـير الفسـحة قليل الوسـعة ، إذ لا يسع الصـور الغـير المتناهية دفعة ، بل المكــان الواحد لا يسع الجســمين ولا المـادة الواحـدة لصـورتين في زمـان واحد فضلا عن غـير المتنــاهي ، قــدر بلطيف قدرته وعلمه زمانا غــير منقطع الطــرفين ، ومــادة ذات قــوة انفعالية غــير متناهية في الانفعـال التجـددي ، كما أن الـواهب ذو قـوة غـير متناهية في الفعل ، وحيث لا بد في دوام تجـــــدد الفيض من أمر متجدد الذات ، ضـروري الحركة والتغـير في ذاته ، فأوجد البــاري بوســائط عقلية أشخاصا فلكية دوارة بــإذن الله دائمة الدوران لأغراض علوية وغايات قدسية كمالية يتبعها استعدادات وانفعالات غير متناهية في مـادة سـفلية ينضم إلى فاعل غير متناهي التأثير ، وقابل غير متناهي القبول ، فـانفتح بـذلك بـاب نـزول البركـات وتـواتر الرشـحات ، وقطرات أمطار الرحمة من بحار خـزائن السـماوات على الدوام (**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها**) فتصير الصور كلها موجــــودة في جميع ذلك الزمــــان على التعــــاقب التــدريجي واحــدة بعد واحــدة في موادها الخارجية على نعت الاتصال التعاقبي ، والمادة مستكملة بها. ثم لا يخفى أن أشــرف الحــوادث وما معها مما يتعلق بــالهيولى هي النفوس الإنسية الناطقة ولم يمكن حـدوثها إلا مع الأبـدان ، ولم يمكن خــروج جميع ما هو الممكن منها من القــوة إلى الفعل دفعة واحــدة ، لأن عــددها غــير متنــاه وعــدد الأبـدان الموجـودة معها متناهية ، لوجـوب تنـاهي الأبعـاد وجهات

اقتضــاء العلل متنــاه أيضا ، فلا بد من وجــود مــدة غــير منقطعة ، وأدوار غـــير متصـــرمة ليحصل بحسب الأدوار والحركــات واســتعدادات القوابل المتعاقبــات ، نفــوس ناطقة قرنا بعد قــــرن ونسلا بعد نسل ، ليتم الأزل بالأبد ويكمل البداية بالنهاية ، ولا يصـــير نعمة الله بـــتراء ، ولا جــوده منقطعا وفضـله معطلا. ولـذلك قـال : (**وَما كـانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً**) وقـال : (**ما نَفِدَتْ كَلِمـاتُ اللـهِ**) وقال : (**قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِـداداً لِكَلِمـاتِ رَبِّي ، لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَنْ تَنْفَـدَ كَلِمـاتُ رَبِّي وَلَـوْ جِئْنا بِمِثْلِـهِ مَدَداً**).

فـإذا تقـرر هـذا ، فالقضـاء كما أشـير إليه عبـارة عن وجود جميع الموجـودات في العـالم العقلي ، مجتمعة بعد وجودها في العناية الإلهية مجملة ومحلها القلم. والقـــــدر عبـارة عن وجـوده التفصـيلي في كتـاب المحو والإثبـات وفي مواد الخارجية الجارية بسواد مداد الهيولى الظلماني ، كما جـاء في التنزيل (**وَعِنْـدَهُ مَفـاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ**) إشارة إلى وجودها على النحو البسيط في العناية الإلهيــة. وقوله : (**وَإِنْ مِنْ شَــيْءٍ إِلَّا عِنْــدَنا خَزائِنُــهُ**) إشـــارة إلى وجودها في الخـــزائن العقلية على ســـبيل الانحفـاظ دائمـا. وقوله : (**وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَـدَرٍ مَعْلُـومٍ**) إشارة إلى المرتبتين الأخـيرتين القـدريتين ، فـالمتنزل هو القدر الخارجي ، لكونه آخر التنزلات ، والمتقـدر المعلـوم هو القدر العلمي ، وهو سـبب للقـدر الخـارجي ، كما دلت عليه باء السببية ، فالجواهر العقلية وما معها موجودة في القضـــاء والقـــدر مـــرة واحـــدة باعتبـــارين ، والجـــواهر الجســـمانية وما معها موجـــودة فيهما مـــرتين. فظهر مما ذكرنا أن علمه تعـــــالى محيط بجميع الأشـــــياء الكلية والجزئية ، لأن كل شــيء من لــوازم ذاته بوسط أو بغــير وسط ، يتأدى إليه بعينه قضـاؤه وقـدره الـذي هو تفصـيل قضائه تأديا واجبا ، إذ كل ما لم يجب وجـوده أولا لم يوجد أخيرا ، فالعناية الإلهية هي إحاطة علمه البسيط الـذي هو نفس وجوده بالكل ، وبالواجب أن يكون عليه الكل ، حتى يكون على غاية الجـودة والنظـام ، وأبلغ الكمـال والتمـام وأحسـنه ، وبـأن ذلك واجب عنه تعـالى وعن إحاطة علمه به ، ليكون الموجود على وفق المعلوم على أكمل الوجوه في النظـام ، فعلمه سـبحانه بكيفية الخـير والصـواب في تـرتيب وجـود عـالمي الغيب والشـهادة هو منبع لفيضـان الكل.

قاعدة

في شمول قدرته وانبساط وجوده وسعة رحمته على الأشياء

قال تعالى : (**وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) وقال : (**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**) وقال : (**وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ**).

اعلم أن موجودية الممكنات بهوية الحق الأول ، وبه قوام كل شيء وحياة كل حي ، كما أن بالروح الإنساني وهو خارج عن هذا العالم وجود أجزاء البدن وقوام آلاته وقواه ، وبه حياة كل عضو من الأعضاء وحسه وحركته ، إلا أن الروح قد ينفعل عن البدن ويستعين به وبآلاته وأعضائه في تحصيل الكمالات ، بخلاف الباري الأول ، فإنه غني عن العالمين ، وهو مبدأ وجوب وجود الأشياء بذاته ، وهو واسع لها منبسط على كلها ، لما مر أنه بسيط الذات لا يعزب عنه وعن علمه الذي هو عين ذاته شيء ، فالأشياء كلها بالقياس إليه واجبات ، وإن كانت بالقياس إلى أنفسها ممكنات ، فلو فرض شيء من الأشياء مسلوبا عنه تعالى من حيث هو هو ، فحيثية كونه هو غير حيثية كونه ليس بكذا ، وإلا لكان شيء واحد من جهة واحدة هو ولا هو. مثلا لو فرض أن ذاته «ألف» وقد صدق عليه أنه ليس «بب» فنقول حيثية كونه «ألف» هل هي بعينها حيثية كونه ليس «بب» أم لا ، فعلى الثاني يلزم في ذاته شيء دون شيء ، فلم يكن واحدا محضا ، وهذا خلف. وعلى الأول يلزم أن يكون المعقول من كونه ـ ألف ـ هو بعينه المعقول من كونه ليس ـ بب ـ وهو محال ، لأن المعقول من الأول هو الثبوت ، ومن الثاني هو السلب ، ويستحيل أن يكون المعقول من السلب نفس المعقول من الإيجاب وإن كان كل منهما مضافا إلى شيء آخر ، فإن المضاف إليه معناه خارج عن معنى المضاف والإضافه ، فالتخصيص به تخصيص بأمر خارج والتخصيص بالأمر الخارج لا يغير حقيقية الشيء في نفسها ، فإذن لو كان معنى ثبوت ـ ألف ـ بعينه معنى سلب ـ ب ـ لكانت طبيعة الثبوت بعينها طبيعة السلب ، فيكون الشيء غير

نفسه وهو محال.

فقد ثبت أن الأول تعـالى لكونه بسـيط الحقيقة يجب أن يكون كل ـ الأشياء الوجودية على وجه أعلى وأشرف ، ولهـذا ورد من الأذكـار الشـريفة «يا هو يا من هو يا من لا هو إلا هو» فإذا كان هـذا هكـذا ، فجميع الموجـودات آثـار ذاته ، فلا قـدرة بالحقيقة إلا قدرته ، كما لا وجـود إلا لمعة من وجـــوده. وكما لا ينـــافي كونه أصل الوجـــود تعـــدد الموجودات المصحوبة بالنقائص والإمكانات ، كذا لا ينافي كونه مــؤثرا في جميع المقــدورات ثبــوت الوســائط من القــادرين بينه وبين المقــدورات ، فــإن الإيجــاد كــالوجود مترتب ذو درجـات ومـراتب بعضـها أعلى وبعضـها أدون ، قـال تعـالى : (**أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَـةٍ مِنْ لِقـاءِ رَبِّهِمْ ، أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ**) ، وقال : (**هُوَ الَّذِي فِي السَّـماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ**) وقـال : (**هُـوَ الَّذِي يُصَـوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ**) وقال : (**أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَـهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُـونَ**) وقـال : (**أَفَـرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُـــورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَـــأْتُمْ شَـــجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ**) إشارة إلى أن الأفعال المنسوبة إلى القـوى ــ المــؤثرة ، كالمصــورة في تصــوير الأعضــاء وتشــكيلها ، وكالمــاء والنــار في التســخين والتبريد ، وكالإنســان في أفاعيله الصــادرة عنه ، وغــير ذلك كلها بالحقيقة صــادرة عنه تعــالى واقعة بتــأثيره مع كمــال وحدانيته وفردانيته ، فكل ما هو مقـــــدور ومجعـــــول لفاعل ، فهو من حيث صـدوره عن ذلك الفاعل صـادر عن الحق تعـالى ، كما أن وجود كل ممكن من حيث وجـوده شـأن من شـئون الحق ووجه من وجوهه ، ولــذلك نسب الأفعــال إليه تعــالى من حيث نسب إلى مباديها المباشـــــــرة لها كما في قوله : (**قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ**) وقوله : (**وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى**) وقال أيضا : (**وَلِكُلٍّ وِجْهَـةٌ هُـوَ مُوَلِّيها ، فَاسْـــتَبِقُوا الْخَيْـــراتِ**) وفيه دلالة على أن الوجــود كله خــير ، لكن الخــيرات متفاوتة بعضــها أشد ، وبعضها أضعف ، فبعضــها خــير محض لا يشــوبه شر بوجه من الوجوه أصلا ، وبعضها مشوب بشر أو شــرور قليلة أو كثيرة بالإضافة ، فالخير الذي في عــالم الجسم ليس مثل الخــير الــذي في عــالم الــروح ، بل عــالم الأمر خــير كله وعــالم الخلق لا يخلو من شر أو شــرور ، ومع ذلك خــيره غالب على شره ، لأن وجوده خير وعدمه شر

محض ، والإنسان من جملة المخلوقات ، له أن يسلك سبيل القدس وصراط الحق ويتطور في الأطوار الوجودية ويستبق في الخيرات حتى تزول عنه الشر بالكلية ويدخل في دار السلام ، ولذلك أمر الله لنا في الاستباق في الخيرات والافتراق من الشرور والظلمات والدخول في دار السلام ، كما في قوله تعالى : (**ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ**) وقال : (**اللـهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ**).

قاعدة

في تحقيق كلامه تعالى

اعتقادنا في الكلام أنه ليس كما زعمته الأشاعرة من أنه معان نفسية قائمة بذاته تعالى وسموها الكلام النفسي ، ولا كما ذهب إليه المعتزلة من أنه خلق أصوات وحروف دالة على المعاني في جسم من الأجسام ، وإلا لكان كل كلام كلام الله وهو باطل. ولا يكفي تقييده على قصد إعلام الغير من قبل الله ، أو على قصد الإلقاء من عنده ، ولو أريد بغير واسطة فهو غير ممكن وإلا لم يكن أصواتا وحروفا ، بل حقيقة التكلم إنشاء كلمات تامات وإنزال آيات محكمات وأخر متشابهات في كسوة الألفاظ والعبارات ، والكلام قرآن وهو العقل البسيط والعلم الإجمالي ، وفرقان وهو المعقولات التفصيلية ، وهما جميعا غير الكتاب ، لأنهما من عالم الأمر وعالم القضاء ، ومظهرهما وحاملهما القلم واللوح المحفوظ ، والكتاب من عالم الخلق والتقدير ومحله عالم القدر الذهني والقدر العيني ، والأولان غير قابلين للنسخ والتبديل ، لأنهما فوق الزمان والمكان بخلاف الكتاب لأنه موجود زماني ، ومحله لوح قدري نفساني هو لوح المحو والإثبات ، أو مواد خارجي ، وكلاهما متغيران ، والكتاب يدركه كل أحد ، والقرءان (**لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**) من أدناس البشرية. وربما يقال : الكتاب للفرقان فإنه بالنسبة إلى القرءان كتاب منزل ، أو باعتبار أنه منزل أيضا في صورة مكتوبة

في لوح القـدر ، بل الـذي بين أظهرنا كلام مـنزل من عند رب العالمين ، منزله ـ الأول القلم الرباني ، والثاني اللوح المحفوظ ، والثالث لـوح القـدر وسـماء ــ الـدنيا ، والرابع لسان جبرئيل تلقاه الرسـول الأمين ، صـلىاللهعليهوآله ، في جميع المقامات ، تارة أخـذه من الله بلا واسـطة ملك ، كما قال (**ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنى ، فَـأَوْحى إِلى عَبْـدِهِ ما أَوْحى ، ما كَـذَبَ الْفُـؤادُ ما رَأى أَفَتُمارُونَـهُ عَلى ما يَـرى**) وتـارة بواسـطة جبرئيل (**وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْيٌ يُـوحى عَلَّمَـهُ شَدِيدُ الْقُوى ذُو مِرَّةٍ فَاسْـتَوى وَهُـوَ بِـالْأُفُقِ الْأَعْلى**) وتارة في مقـام غـير ذلك المقـام الشـامخ الإلهي (**وَلَقَـدْ رَآهُ نَزْلَـةً أُخْـرى ، عِنْـدَ سِـدْرَةِ الْمُنْتَهى ، عِنْـدَها جَنَّةُ الْمَأْوى ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى ، ما زاغَ الْبَصَـرُ وَما طَغى ، لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى**) وتارة كـان يسمع كلام الله في هذا العالم ــ الحسي ، (**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيـلُ رَبِّ الْعـالَمِينَ ، نَـزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِـكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسـانٍ عَـرَبِيٍّ مُبِينٍ ، وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ**). ومن هذا المقام ما كان في أول البعثة في جبل حراء ، أو في جبل فاران ، فأتاه جبرئيل عليهالسـلام بصـورة محسوسة وسـمع منه (**اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْـرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِـالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسـانَ ما لَمْ يَعْلَمْ**) كما سـمع موسى كلامه تعالى النازل في طور سيناء (**إِذْ رَأى ناراً ، فَقـالَ لِأَهْلِـهِ امْكُثُـوا ، إِنِّي آنَسْـتُ نـاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِـدُ عَلَى النَّارِ هُـدىً ، فَلَمَّا أَتاها ، نُـودِيَ يا مُوسى ، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ، فَـاخْلَعْ نَعْلَيْـكَ إِنَّكَ بِـالْوادِ الْمُقَـدَّسِ طُـوىً ، وَأَنَا اخْتَرْتُـكَ فَاسْـتَمِعْ لِما يُـوحى ، إِنَّنِي أَنَا اللـهُ لا إِلـهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُـدْنِي**) ومن منازل كلام الله تعالى ما يـدون في الكتب والقـراطيس ، يبـدو لكل أحد ويتكلم به كل متكلم ويقـرؤه كل قـار ويسمعه كل مستمع ، كما في قوله تعالى (**وَإِنْ أَحَـدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَـأَجِرْهُ حَتَّى يَسْـمَعَ كَلامَ اللـهِ**) ثم قد اختص محمد صـلىاللهعليهوآله ، من بين سـائر الأنبيـاء عليهمالسـلام بتلقي الـوحي والكتـاب بـأن جـاوز مقامات الأنبياء كلها وجـاوز منـازلهم كلهم في السـماوات السـبع دون البلـوغ إلى مقـام الأفق الأعلى أو أدنى ، كما أخبر النبي صلىاللهعليهوآله عن ليلة الإسراء حيث قـال : ورأيت آدم في السـماء الأولى ، ويحـيى في الثانية ...» إلى أن قال : «ورأيت

إبــراهيم عليهالســلام في الســماء الســابعة» فجــاز عن مقاماتهم جميعا إلى كمال القرب وغاية الوصول.

وقال تعالى في حق علماء أمته وأولياء ملته «لا يزال العبد يتقـرب إلي بالنوافل حـتى أحببته ، فـإذا أحببته كنت ســمعه الــذي به يســمع ...» وهــذا هو حقيقة الوصــول والإيصــال ، لكن الفــرق بين النــبي والــولي في ذلك أن النبي مستقل بنفسه في السير إلى الله تعـالى والوصـول إليه ، ويكـون حظه في كل مقـام بحسب اسـتعداده الأتم الأكمل ، والــولي لا يمكنه الســير إلا في متابعة النــبي صلىاللهعليهوآله ، وتسليكه إياه في سبيل الله ، كما قال : (**قُلْ هـذِهِ سَـبِيلِي أَدْعُـوا إِلَى اللـهِ عَلى بَصِـيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**) ويكون حظه في كل من المقامات بحسب استعداده وقوة فطرته فافهم جدا.

قاعدة

في دوام أمره وخطابه للمكونات

قـــال الله تعـــالى : (**وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِـــدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**) وقال : (**إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـــونُ**) ولا شك أن إرادته أزلية وتخصـــيص بعض الأشـــــــياء بتعلق الإرادة في أوقاتها المعينة الجزئية عند حضــور اســتعداداتها ، أنما هو لأجل قصــور قابلياتها عن القبـول الأتم ونقصـاناتها الذاتية عن الوجـود الـدائم ، وإذا كـانت الإرادة دائمة فـالقول واحد والخطـاب دائم ، وإن كان المقول له والمخاطب حادثا متجددا ، وقد أخبر تعالى عن جهل أهل العناد بأنهم الذين لا يعلمــون أن الله متكلم بـالقول الثـابت ، والمتكلمية صـفة من صـفاته وكل صـفة من صفاته واحـدة مسـتمرة ثابتة لم يـزل ولا يـزال ، إذ لا كثرة ولا زوال في عـالم الوحـدة ، فكلامه الـذي هو أمـره متعلق بجميع المكونـات أمر التكـوين وهو خطـاب بكلمة كن ، وهي كلمة وجودية ، فســمعت أعيــان المكونــات خطابه ودخلت في بـاب الوجـود بـأمره وإذنه ، وأطـاعت السماوات قوله وكلمته ودعوته (**ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً**) ،

فســـمعتا كلمته ، وأجابتا دعوته ، وأطاعتا قوله ، و (**قالَتا أَتَيْنا طـائِعِينَ**) ويتنـاول المكلفين أمر تكليف وتشـريع ، وإلى ذلك أشـار بقوله : (**قـالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ لَـوْ لا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ**) وما علموا أن الله يكلمهم على الــدوام ، ولكن (**لَهُمْ آذانٌ لا يَسْـمَعُونَ بِها**) ، و (**إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ**) ، و (**لَـوْ عَلِمَ اللـهُ فِيهِمْ خَيْـراً لَأَسْمَعَهُمْ**) كما أسمع قوما آخرين أخبر عنهم بقوله (**وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الـدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُـوا مِنَ الْحَـقِّ**) فالسـمع الحقيقي ما هو قرين معرفة القلب لا اصطكاك الصماخ بـالهواء الخـارج ، وكل قلب يكـون حيا بحيـاة المعرفة ، يسـمع كلام الحـق. وأما القلوب الميتة بموت الجهل فحـالهم كما قـال تعـالى فيهم : (**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ**) ... (**وَلَـوْ أَسْـمَعَهُمْ**) الخطـاب بمقارعة الهـواء لسـمعهم الظاهر ، وقلوبهم موتى ، (**لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُـونَ**) ، كما أسمع نفرا من قـوم موسى خطابه تعـالى ، فلم ينفذ إلى بواطنهم نور كلامه ولم يطيقوا إسماعه ، فبعد ما رأوا من عظيم الآيات ، وأن الله أماتهم ثم أحياهم حرفوا وبــدلوا ، فما يغني الآيات والدلالات ، وإن وضـحت عمن حق عليهم القـول ولـزمهم الشـقاوة وطبع على قلـوبهم ، وقـال الله تعـــالى فيهم : (**وَلَقَــدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِـــيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُـونَ بِها ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها ، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها ...**)

واعلم أن بـــإزاء هـــؤلاء من كل أمة قوما وقع بينهم وبين الله مكالمة حقيقية ، يكلمهم الله وينظر إليهم وهم يسـمعون كلامه بسـمع قلـبي بلا واسـطة تعليم بشـري خــارجي ، فيكــون الفهم لازما لســماعهم ، وقد ورد عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله «إن في أمـتي محـدثين مكلمين» ولا يشترط أن يكون هؤلاء ـ أنبيـاء تشـريع ورسـالة ، لأن الرسـالة قد انقطعت وأبوابها قد غلقت وختمت ببعثة نبينا ، صـــلى‌الله‌عليه‌وآله ، وما بقي إلا إلهامــــات من الحق وإعلامـــــات وتعليمـــــات ، وإليهم الإشـــــارة بقوله صـلى‌الله‌عليه‌وآله : «إن لله عبـادا ليسـوا بأنبيـاء يغبطهم النـبيون» أي ليسـوا بأنبيـاء تشـريع ، بل هم في الشـريعة تابعون لمحمد ، صـلى‌الله‌عليه‌وآله ، وقد علمت أن التكلم الحقيقي ليس من شرطه أن يكون بكسوة

الألفـاظ والحـروف ، ولا أيضا من شـرطه تمثل المتكلم بصورة شخصية ، بل إلقاء كلام معنـوي إلى قلب مسـتمع من الله ، قوله عزوجل : (**وَلا تَكُونُــوا كَالَّذِينَ قــالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ، إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْـدَ اللـهِ ، الصُّـمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُـونَ ، وَلَـوْ عَلِمَ اللـهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْـمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُـونَ**) دلت هـذه الآية على أن المـراد بالسـمع هو التعقل وهو السـمع البـاطني ، كما أن المـراد بالبصر هو الرؤية الباطنية. قوله : (**وَيَـرَى الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُـوَ الْحَـقَّ وَيَهْـدِي إِلى صِـراطِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيـدِ**) ... ، (**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُـوَ أَعْمى**) ففي الآيـتين دلالة على أن أولي العلم هم الذين يعرفون الحق ويـرون بنـور عرفـانهم ، أن المنزل على الرسول علوم حقيقية ومعارف إلهية ، ولو لا أن وقع لهم بالسـمع البـاطني مقارعة الكلام المعنـوي ، وبالبصيرة الباطنية مشـاهدة آيـات الملكـوت ، لم يعرفـوا حقيقة الكلام المنزل على الرسول وأنه الحق من ربه.

قاعدة

في سر الحروف المقطعة القرآنية

اعلم أن الأنبيـاء عليهمالسـلام ، وضـعوا بـأمر الله حـروف التهجي ، أعـني ، حـروف الجمل بـإزاء مـراتب الموجـودات ، وقد وجد في كلام أمـير المؤمـنين عليهالسلام ، ما يدلك على ذلك ، وإذا كـان كـذلك فينبغي أن يكون الألف إشـارة إلى المبـدإ الأول ، لأنه أول الآحـاد ومبدأ الأفراد والأعداد ، وأن يكون البـاء إشـارة إلى عـالم العقل ، ولـذلك قيل : ظهـرت الموجـودات من بـاء بسم الله. إذ هي الحروف التي تلي الألف الموضوعة بإزاء ذات الله. فهي إشارة إلى العقل الكلي وهو أول ما خلق الله ، المخـاطب بقوله تعـالى : «ما خلقت خلقا أكـرم علي ولا أحب إلي منك ، بك آخذ وبك أعطي ، وبك أثيب وبك أعـاقب» وهـذا حـديث متفق على روايته جميع فـرق الإسـلام بحسب المعـنى ، وإن وقع الاختلاف في صـورة اللفظ. والمراد به جملة عالم العقل ، لما بينا في مقامه ، أن العقول القادسات

كلها موجـودة بوجـود واحد ، والتعـدد فيها باعتبـار مـراتب الشدة والضـعف ، بل بحسب تفـاوت الآثـار الصـادرة من الله بتوسـطها وتوسط جهاتها في القـرب والبعد من الله وبحسب قوة النورية والوجود وضعفهما.

وبالجملة ، الكل كأنها شيء واحد ذو درجـات متفاوتة متصلة بعضها ببعض ، منطوية بعضها في بعض. وأن يـدل بالجيم على النفس الكلية وعالمها ، وبالدال على الطبيعة السـارية في الأجسـام وآحادها وأنواعها من الصـور ــ النوعية للأفلاك والعناصر والمركبـات الطبيعية ، فهـذه حروف أربعة لموجودات أربعة مترتبة في الوجود والإيجـاد ، إذا أخذت من حيث ذواتها ووجوداتها. وأما إذا أخذت من حيث إضافتها ومبدئيتها ، فبـالحري أن يـدل بالهـاء على ــ البـاري ، وبـالواو على العقل ، وبـالزاء على النفس ، وبالحـاء على الطبيعة ، وبقي الطـاء للمـادة الجسـمية وعالمهـا. وليس لها وجـود فـاعلي وإضـافة إلى ما دونها ، لأنها قابلة محضة وقـوة اسـتعدادية صـرفة ، فيها نفـدت رتبة الآحاد وعالم الإبـداع للبسـائط والأفـراد. ثم ينبغي أن يكون المـأخوذ من إضـافة الأول إلى العقل ، والعقل ذات غـير مضـافة إلى ما بعـده مـدلولا عليه باليـاء ، لأنه من ضرب ـ ه ـ في ــ ب ــ ولا يحصل من إضـافة البـاري إلى العقل أو العقل إلى النفس عدد يـدل عليه بحـرف واحد ، لأن ضرب ـ ه ـ في ـ ج ـ يه ـ وضرب وفي ـ ج ـ يح ــ وأن يكون الأمر وهو من إضافة الأول إلى العقل مضافا مدلولا عليه باللام وهو من ضرب ه في و، ويكون الخلق وهو من إضـافة البـاري إلى الطبيعة بما هي مضـافة مـدلولا عليه بـالميم ، وهو من ضـرب ه في ح لأن الحـاء دلالة الطبيعة مضافة ويكون التكوين وهو من إضافة الباري إلى الطبيعة ، وهي ذات مدلولا عليه بالكاف ويكون جميع نسبتي الأمر والخلق أعـني تـرتيب الخلق بواسـطة الأمر ، أعـني اللام والميم ومـدلولا عليه بحـرف عين. وجميع نسـبتي الخلق والتكوين كذلك أعني الميم والكاف مدلولا عليه بالسـين ، ويكون مجموع نسبتي طرفي الوجود والتكوين أعـني ، ل وم ، مـدلولا عليه بالصـاد ، ويكـون اشـتمال الجملة في الإبـداع أعـني ضـرب ى في نفسه مـدلولا عليه بق ، وهو أيضا من جمع ص وي ، ويكـون ردها إلى الأول وهو مبـدأ الكل ومنتهاه على أنه أول وآخر ،

أعـني أنه فاعل وغاية كما بين في الإلهيـات مـدلولا عليه بالراء ضعف ق.

فإذا تقرر هذا فلنرجع إلى بيـان المطلـوب ، فنقـول : إن المــدلول عليه ب (**الم**) هو القسم بــذات الأول ، ذي الأمر والخلق ، وبالراء القسم بالأول ، ذي ــ الأمر والخلق الذي (**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِـرُ**) والمبـدأ والغاية ، وب (**المص**) القسم بــــالأول ، ذي الأمر والخلق والمنشئ للكل ، وب (**ص**) القسم بالعناية الكلية وب (**ق**) ، القسم بالإبــــــداع المشـتمل على الكل بواسـطة الإبـداع السـماوي للعقل ، وب (**كهيعص**) ، القسم بالنسبة التي للكاف ، أعني عالم التكوين إلى المبدإ الأول وبنسبة الإبداع الذي هو ، ي ، ثم الخلق بواسطة ص ر لوقوع الإضافة بسبب النسـبة إلى ر ، وهو ع ، ثم التكـــوين بواسـطة الخلق والأمر وهو ص ، فبين ك وه ضرورة نسبة الإبداع ، ثم نسبة الخلق والأمر ، ثم نسـبة التكـوين والخلق والأمر ، و (**يس**) ، قسم بـأول الفيض وهو الإبداع وآخـره وهو التكـوين ، و (**حم**) ، قسم بالعـالم الطـبيعي الواقع في الخلق و (**حم عسق**) ، قسم بمدلول وسائط الخلق في وجود العـالم الطـبيعي بـالخلق بينه وبين الأمر بنســبة الخلق إلى الأمر ، ونســبة الخلق إلى التكوين ، بـأن نأخذ من هـذا ونـرده إلى ذلك قسم به بالإبـــداع الكلي المشـــتمل على العـــوالم كلها ، فإنها إذا أخــذت على الإجمــال لم يكن لها نســبة إلى الأول غــير الإبـــداع الكلي الـــذي يـــدل عليها ب (**ق**) و (**طس**) يمين بعالم الهيولى ، الواقع في التكـوين ، و (**ن**) ، قسم بعـالم التكوين ، وعالم الأمر أعني ن ، لمجموع الكـل. ولا يمكن أن يكون للحروف دلالة غير هذا البتة.

وهـذه جملة ما ذكـره بعض حكمـاء الإسـلام في سر هذه الحروف المجملة ، وهي أجود ما قيل في هذا البــاب واحكم ، والله الهادي إلى طريق الصواب وهو أعلم.

قاعدة

في أن العالم الربوبي والصقع الإلهي عظيم جدا

واعلم أن حقـــائق الأشـــياء كلها وصــــورها العلمية الأصلية موجودة

عند الله تعـالى واجبة بوجوبه الــذاتي باقية ببقــاء الله لا ببقاء أنفسها ، وهي واحدة من حيث الوجود بحيث لا كثرة في وجودها وإن كـــانت كثــيرة من حيث معانيها وأعيانها التي هو صـور أسـماء الله وصـفاته ، كما قـال الله تعـالى (**وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُـوَ**) وقوله تعـالى : (**لا تَبْـدِيلَ لِكَلِمـاتِ اللـهِ**) وقوله : (**وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**) وقوله : (**وَما مِنْ غائِبَـةٍ فِي السَّـماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتـابٍ مُبِينٍ**) وقوله : (**وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيـعٌ لَـدَيْنا مُحْضَـرُونَ**) وقوله : (**وَيَمْحُ اللهُ الْباطِـلَ وَيُحِـقُّ الْحَـقَّ بِكَلِماتِـهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِـذاتِ الصُّـدُورِ**) وقوله : (**أَمْ عِنْـدَهُمْ خَـزائِنُ رَبِّكَ ، أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ**) وقوله : (**وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَـدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعـاً قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ وَالسَّـماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِـهِ**) ولا شك أن قبضــته ويمينه مقدســتان عن التغـير والـدثور ، ومعـنى الآية (**ما قَـدَرُوا اللـهَ حَـقَّ قَدْرِهِ**) أي اليهود ومن يحذو حـذوهم ، أو يجـري مجـراهم ممن لم يعلموا ارتفاع ذاته عن عالم المفارقات فضلا عن عــالم الأجســام ، فشــبهوه ونســبوه إلى المثل والنظــير والصــاحبة والولد (**وَقـالَتِ الْيَهُـودُ : عُزَيْـرٌ ابْنُ اللـهِ ، وَقالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللـهِ**) وأيضا : نسـبوا إليه التعطيل في الإفاضة والإمســاك عن الجــود ، إذ (**قــالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُـوا بِما قـالُوا بَلْ يَـداهُ مَبْسُـوطَتانِ يُنْفِـقُ كَيْـفَ يَشـاءُ**) فيـداه غـير زائلــتين ، بل دائمتــان قائمتــان بــالجود والرحمــة. وقوله تعالى : (**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها**) أي أرض الآخـرة ، وهي الأعيان الثابتة المنورة بنور الوجود الفائض عليها من ذات الله تعـالى ، والمـراد بها ذات النفس الكلية المنـورة بنـــور العقل الكلي المتحـــدة به الصـــائرة إيـــاه بحسب الاستكمال الذاتي ، ومن حيث التفصيل نسبتها إليه نســبة القابل إلى المقبــول ونســبة ما بــالقوة إلى ما بالفعــل. ويحتمل أن يكـون المـراد بـأرض الآخـرة ، جملة النفـوس الإنسانية القابلة لفيضـان النـور العقلي الإلهي على ذواتها وعقولها الهيولانية ، أو النفــــــوس الحيوانية الخيالية من الإنسان القابلة للأنوار الحسية الـتي يتمثل بها عند النفس ، الأشباح الأخروية والصور الشخصية المثالية.

قاعدة

في أن صور المكونات الموجودة في هذا العالم مرتسمة متمثلة في نفوس السماوات وفي قواها المنطبعة على الوجه الجزئي ، والإشارة إلى معنى القضاء والقدر ، واللوح والقلم.

اعلم أن العالم الجسماني كله بمنزلة إنسان كبير ، وأن جوهر السماء بمنزلة أم الدماغ من بدن الإنسان ، وطبقاتها بمنزلة تجاويف الدماغ. وكما أن الدماغ الإنساني لمكان الروح النفساني الذي هو ألطف الأجرام الكونية مظهر يظهر فيه الصور الإدراكية والأشباح العينية والأشخاص المثالية للنفس ، وكما أن المرآة الخارجية مظهر يظهر بسببها الصور المبصرة للنفس ، فهكذا الروح الدماغي للطافتها وصفائها مرآة روحانية للنفس لما حقق في موضعه ، أن الصور الإدراكية سواء كانت كلية أو جزئية عقلية أو حسية غير حالة في جرم مادي كوني ، ولا أيضا قائمة بمادة جسمية ، فكذلك جوهر السماء وجرمها اللطيف مرآة يظهر فيها الصور الموجودة في نفسها الكلية من عالم الأمر. وبيان ذلك ، أن العالم الروحاني بجوهره المجرد القدسي مخزن القضاء الرباني ، وكذلك العالم النفساني بجرمه السماوي مظهر لقدره ، إذ الصور الإلهية التي في عالم القضاء في غاية الوحدة والصفاء ، لا ينفصل ولا تتمثل في معلوميتها لغيرها لشدة نوريتها ، كمرآة مضيئة ترد البصر عن إدراك ما فيها من الصور بشعاعها ، كما قال تعالى : (**وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ**) فينتسخ من تلك الصور بالعقل الكلي الذي بمنزلة القلم الناسخ في لوح النفس الناطقة الكلية التي هي قلب الإنسان الكبير ، كما ينسخ بالقلم في اللوح صورا معلومة مضبوطة بعللها وأسبابها على وجه كلي ، كما يظهر في قلوبنا عند استحضارنا للمعلومات الكلية ، كالصور النوعية وكبريات القياس عند الطلب للأمر الجزئي المنبعث عنه العزم على الفعل ، وهو اللوح المحفوظ لانضباط تلك

الصــور فيها وانحفاظها عن التغــير ، كما قــال : (**وَعِنْـدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ**) وقـال : (**بَـلْ هُـوَ قُـرْآنٌ مَجِيـدٌ فِي لَـوْحٍ مَحْفُـوظٍ**) ثم ينبعث ويتمثل منها في النفــوس الســماوية الجزئية الـــــتي هي قواها الخيالية نقوشا ومثــــالا جزئية مشخصة بهيئـات وأشـكال وأوضـاع معينة مقارنة لأوقـات معينة ، مثل ما يوجد في الخـــــارج كما يتمثل في خيالنا الصور الجزئية وصغريات القياس مثلا ، ليحصل بانضمامها إلى تلك الكليـــات والكبريـــات رأيا جزئيا ينبعث عنه إرادة وقصد جازم إلى الفعل المعين ، فيجب عنه الفعل ، وذلك العـالم هو لـوح القـدر ، أي مرآته ومظهـره ، وهو خيـال العالم ، والسماء الدنيا الـتي تـنزل إليها الكائنـات الجزئية أولا من غيب الغيـوب ، ثم يظهر في عـالم الشـهادة على وجه يطـابق لما فيها ، وتلك الصــور والنقــوش من قــوى النفس الناطقة السماوية كالصور الخيالية من قوة الخيال لنفوسنا ، وكل منها كتاب مبين ، لقوله تعـالى : (**وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتـابٍ مُبِينٍ**) ، (**وَما مِنْ غائِبَـةٍ فِي السَّـماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ**) ، و (**ما أَصابَ مِنْ مُصِـيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَبْرَأَها**) وقوله : (**وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللـــــــهِ رِزْقُها ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها ، كُـلٌّ فِي كِتـابٍ مُبِينٍ**) وحصـــول تلك الصـــور المعينة الموقتة بوقتها المعين في موادها الخارجية هو القـــدر الخـــارجي ، كما قـــال : (**وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَـدَرٍ مَعْلُـومٍ**) ولا شك أن وقوعها في الخـارج عند حضور ذلك الزمان ضروري ولا مرد لحكمه ، ولا دافع لقضـائه ، لأنها موجــودة قبل وقوعها الخـارجي في عـالم آخر ، وذلك العالم هو عـالم الملكـوت العمالة بـإذن الله ، أي المسخرة لأمره المطيعة لكلمته المدبرة لأمور العـالم بتحريك المــواد وإعــدادها وتهيئة القوابل واســتعداداتها ، وحامل القــدر بما فيه هو عــالم الملكــوت ، كما أن لــوح القضاء بما فيه هو عالم الجبروت.

قاعدة

في كيفية نزول القضاء من عند الله وبروز الأحكام من مكامن

الغيب إلى مظاهر الشهادة

. اعلم أنه تعـــالى قد عظم أمر الســـماء ، وجعلها واسطة الأرزاق وقبلة الـدعوات ، ورفع الحاجـات ، قـال : (**وَفِي السَّـــماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَـــدُونَ**) إذ جعلها منشأ الحركـــات الكلية ، وحـــدوث الكائنـــات ، وتولد النباتـــات والحيوانات ، سيما نـوع الإنسـان الفـائق بنفسه الناطقة ، العارفة لربها على ســائر الأكــوان ، وذلك لأجل أنه جعلها ذوات نفوس ناطقة كاملة متشوقة إلى لقاء الله ، عاشقة لملكوته الأعلى ، طائفة حول كعبة الجلال ، فلها إدراكـات وإرادات عقلية بنفوســـها الكلية ، ولها أيضا إدراكـــات وإرادات بنفوســـها الحيوانية الجزئية ، كحـــال نفوســـنا المدركة للكليـــات المريـــدة إرادة كلية من جهة العقل ، والمدركة للجزئيـات المريـدة إرادة جزئية من جهة قـوة التخيل ، كل بحسب مرتبة ومقـام ، وكل منها يشـتاق إلى جوهر قدسي مفارق ، هو مفيض وجودها ومكملها القريب ، تقربا إليه وتشـبها به ، لإدراكها لـذلك الكمـال الـذي من شأنها التشبه به ، والخروج من القـوة إلى الفعل بسـببه ، والتقـــرب إلى المبـــدإ الأعلى بواســـطته ، فـــإن النفس بحسب الكمال العقلي بالقوة والإمكان ، وشأنها أن يخرج من ـ القوة إلى الفعل ، ومن الإمكان إلى الوجوب ، وهذا الخروج لا محالة بحركة ، والحركة لا يكون إلا لتعلق بمادة جسمانية ، لأن المفـارق عن الجسم بالكلية المجـردة عن المـادة رأسا لا حركة له ، فحركة السـماء نفسـانية تابعة لحركة جســـمانية ، فلا بد فيها من إرادة كلية وأخـــرى جزئيـة. أما الأولى ، فلأن أغـراض الفلك ليست كـأغراض الحيوان العنصري شهوية أو غضـبية ، أو لأجل طلب غـذاء أو لـــدفع آفة أو عـــدو ، إذ أجســـادها ليست مخلوقة من العناصر المتضادة المتكونة من مادة ناقصة غير مستكملة بالصـورة حـتى يحتـاج إلى التكميل والتعـديل والتصـوير ، وليس لصورة جسـمها ضد ولا لنفسـها مـرض ، فليس لها شهوة ولا غضب ، لأن حركتها

ليست لأجل غرض جسـماني بل لأجل مقصد علـوي ونيل كمـال قدسي يكـون من شأنها الوصـول إليه ولا يمكن إلا بالسـعي والتوجه لنفوسـها وأبـدانها ، لما علمت أن فعل النفس وحركتها لا يكون إلا مع البـدن ، فلا بد لأجرامها أن يتحرك ضربا من الحركـة. وحركة الأجسـام منحصـرة في أن يكـون في أربع مقـولات ، إما في الأين أو في الكم أو في الكيف أو في الوضع ، لكن الفلك لا يمكن أن يكـــون له حركة إلا الوضـــــعية فقط ، لأنه بالفعل في جميع ما يمكن له من المقـدار والأين والكيف ، إلا الوضع بمعـنى النسـبة إلى الغـير ، فيطلب وضـعا كليا يسـتعد به لـذلك الكمـال وينضم إلى إدراكه الكلي إدراكـات جزئية متقدمة بعضها ومتأخرة بعضها.

فينبعث من إرادتها الكلية إدراكـــات جزئية ، فيتبعها أشواق جزئية يوجب حركات جزئية ، يقع الوصـول بها إلى مـرادات جزئية ، نسـبة الإرادة الكلية إلى الإرادة الجزئية كنسبة المراد الكلي إلى المـراد الجـزئي ، ولما علمت أن المـــراد الكلي للفلك التشـــبه بجـــوهر كامل عقلي ، بل الاتحاد والصيرورة إيـاه لا مجـرد تحصـيل معـنى التشـبه ، فإنه أمر ذهني لا وجود له في الخـارج ، وما لا وجـود له لا يكون مقصودا حقيقيا. فالمراد الكلي جوهر كامل عقلي ، والمراد الجزئي أحد جزئياته وهو جـوهر نفسـاني جـزئي ، فـدائما يتجـدد للنفس الفلكية أمثـال ويتصل كل منها إلى العالم الأعلى ويتحد بالجوهر المفـارق ويوجد بدلـه. ونحن قد بينا في سائر كتبنا أن طبيعة كل جسم الـتي هي مبـدأ حركته وسـكونه وسـائر صـفاته الذاتية وأفعاله الطبيعية ، أمر متجدد سيال دائما ، فكـذلك طبيعة الفلك أمر متجـدد سيال. وأيضا قد بينا أن الحيوانية في الفلك ينبعث في كل حين من عالم الطبيعة إلى عالم الملكوت العقلي ويحشر إلى الملإ الأعلى ويوجد بـــدلها نـــازلا إلى الفلك من ذلك العالم ، وهكذا يتوارد الأمثال النفسـانية ويتجـدد الأشـكال والأوضاع والطبائع والمواد الجسمانية في هـذا العـالم في كل وقت ، وتنشأ الآخـــرة من الـــدنيا إلى أن يـــرث الله (**الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها**) والله (**خَيْرُ ــ الْـوارِثِينَ**) ، والخلق غافلون عن ذلك ، لتشابه الأمثال ، كما قـال الله تعـالى : (**أَفَعَيِينا بِـالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَـلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْـقٍ جَدِيدٍ**) ومن هاهنا يعلم أن العالم حادث

كله أفلاكه وكواكبه وبسائطه ومركباته حـدوثا زمانيا ، وأن أشخاصـها الفلكية والعنصـرية كلها متبدلة ، أما الفلكيـات فعلى نهج الاتصال ، وأما العنصريات فعلى نهج الانفصال ، وصـــورها العقلية ثابتة عند الله باقية في علم الله ، فــإن علم الله مصون عن التغـير والتصـرم ، كما قـال تعـالى : (**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْـدَ اللـهِ بـاقٍ**) وهي كلمـات الله التامـات الـتي لا تبيد ولا تنفد ، وقـال تعـالى : (**قُـلْ لَـوْ كـانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَنْ تَنْفَـدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً**).

والحاصل ، أن كل حركة ســـماوية شـــوقية دورية يحصل للمتحـــرك بها في كل آن وضع جديد يفيض بـــذلك الوضع على نفسه من مبدئه العقلي المتشوق إليه صـورة عقلية هي كمال له وإشراق نوري توجب لها بقاء بعد فناء وحياة جديدة بعد موت وليسا بكمـال بعد خلع فيتجـدد منه حركة أخرى وشوق جديد إلى كمال آخر ، فينطبع من تلك الصـــورة العقلية في قوتها الخيالية صـــورة حيوانية جزئية أخـرى مع لـذة جزئية أخـرى ، فينبعث منها شـوق جـزئي واهتزاز وطلب لوضع جزئي يحاكي به الصـورة النفسـانية المحاكية لتلك الصـــورة العقلية ، فيتخصص بـــذلك الوضع الإرادة الأولى الكلية في ذلك الـــوقت المعين ويـــنزل بحسب كل وضع شخصي وإرادة جزئية من تلك المبـــادي العقلية ثم النفســـانية على مـــواد هـــذا العـــالم بحسب اســتعداداتها المتعاقبة التابعة للأوضــاع الســماوية صــور تتكمل بها تلك المــواد ويتهيأ لقبــول الصــور التالية لهــذه الصور الحاصـلة الـتي سـيحدث بالوضع اللاحق السـماوي لهذا الوضع الحاصل ، وعلى هذا القياس يتعاقب الحركات ويتوارد الأوضـاع فيتـوالى الصـور على جـواهر السـماوات ويتلاحق اتصـــال النفـــوس بغاياتها ومعشـــوقاتها العقلية ، ففي كل آن لها حشر جديد وقيامة ســـاعة قائمة ورجـــوع إلى الله.

عقدة وحل

فإن قيل : كيف يكون الحركة المتقدمة علة للمتأخرة والوضع الســـــــابق علة للوضع اللاحق ، والعلة يجب أن يكون مع معلولها ، والحركة المتقدمة

لا تبقى مع الحركة المتأخرة ، والوضع السـابق لا يبقى مع الوضع اللاحق.

قلنا : إن النفـــوس المحركة لها إرادة كلية ســـابقة لحركة دائمة لغـــــرض عقلي دائم ، ولها إرادة جزئية من نقطة كذا إلى نقطة كذا ، أي من وضع شخصي إلى وضع شخصي آخر ، والإرادة علة للحركة ، والحركة علة للوصول إلى ذلك الوضع وإلى الغرض الجـزئي الآخر ، فلا يـــزال الوصـــــول مع الإرادة الكلية علة للإرادة الجزئية لغرض جزئي آخر ، ولا يتوقف إرادة جزئية على نفس تلك الحركة التي تـوقفت عليها ــ وإن تـوقفت على غيرها من نوعها ــ وإلا لـزم الـدور المسـتحيل ، ولا يتصـرم الإرادة الكلية السماوية وإن تصرمت جزئياتها ، ويدل دوامها على دوام السماوات وتنزهها عن الكون والفسـاد ، وعلى هـذا الوجه من جهة التضاد بين المتفاسـدات من الكائنـات كما دل على ذلك قوله تعالى : (**فَالَّذِينَ عِنْـدَ رَبِّكَ يُسَـبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ**) وقوله : (**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُـرُونَ**) ، ... (**إِنَّ الَّذِينَ عِنْـدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ**).

وهم وإنارة

ولعلك تقول تجدد اللازم ودثوره دليل تجـدد الملـزوم ودثوره ، كما أن عدم اللازم مستلزم لعـدم الملـزوم ، ولا شك أن إرادة الفلك وحركته ووضـعه لازم لطبيعته ونفسه ، وإذا تجددت الإرادة والحركة والوضع ، فبالضرورة يكـون للفلك في كل وقت نفس أخــرى وطبيعة أخــرى ووجــود آخر ، فلما لم يكن لكل فلك إلا ذات واحــــــدة ثابتة لها ، ووجــــود واحد شخصي ، فلا محالة لم يكن لها من ماهية كل لازم إلا شخص واحد مستمر بالعدد. وأيضا : لما يلــزم من تبـدل اللازم تبـدل الملـزوم ، فيلـزم أن يكـون عـالم الأجرام الفلكية عالم ـ الكون والفساد.

فنقول : لما كان تجدد النفوس الفلكية وطبائعها على نعت الاتصال والمتصل الواحد موجـود بوجـود واحد ضـربا من الوحدة ، وإن كان على سـبيل التـدرج ، وكـذا أوضـاع الفلك وضع واحد متجدد نسبة ذلك الواحد إلى المتجددات

الوضعية كنسـبة الحركة التوسـطية إلى الحركة القطعية ، فهكـــذا طبيعة الفلك شـــخص واحد من حيث لها وحــــدة مستمرة جامعة محفوظة بواحد عقلي هو عقله المدبر له المقيم لنفسه بإذن الله تعالى ، وإن كان له في كل وقت تشـــخص آخر ، فبـــذلك الواحد العقلي والحافظ القدسي صح القول بأن الفلك له ذات واحـدة باقية غـير داثـرة ولا كائنة فاسـدة ، فيكـون له في كل آن هوية أخـرى غـير الهوية السـابقة ، وصح القـول بأنه يحـدث في كل آن منه شخص آخر لا بقاء له في زمانين ، ولهذا أطبقت الشـرائع الحقة في القـول بحـدوث العـالم جملة لأنه في كل آن يحدث منه شخص غير الذي كان قبله وبعده.

وبالجملة ، فالعالم العقلي مصون عن التغير والفساد ، ولكل موجود في عالم الطبيعة صـورة باقية في القضـاء الإلهي واللوح المحفـوظ عن المحو والـزوال ، وله صـورة إدراكية في كتاب المحو والإثبات ، وله أيضا صـورة أخـرى مادية غـير إدراكية في المـادة الهيولانية الـتي من شـأنها الدثور والاضـمحلال ، وهي القـدر الخـارجي ، والأولى هي القـدر العلمي ، وكل منهما قابل للتغـير والتبـدل ، ففي الأولى المحـو والإثبـات ، وفي الأخـرى الكـون والفسـاد ، وهكذا عند المحققين. وعند بعضـهم ، أن القـدر هو الثانية دون الأولى ، ويـرون أن المحو والإثبـات لا يكونـان إلا في المواد العنصرية ، والصور الجزئية المنطبعة في الفلكيات ثابتة أبدا بحالها من غير اسـتحالة ، والتحقيق يصـادمه من جهة العقل والقرآن جميعـا. وقـوم جـوزوا المحو والإثبـات في الصور الإدراكية الفلكية دون الصور المادية الخارجية. ونحن بـإذن الله وتوفيقه نـرى ، أن ــ المحو والإثبـات في نفوسها وفي أجرامها جميعا فيقع في ألواح نفوسها المحو والإثبات أولا ويتبعها الكون والفساد في مواد أجرامها ثانيا ، ثم في ســائر المـــواد الجزئية العنصــرية ، ولا شك أن الثــاني لازم للأول وكــذا الثــالث للثــاني. ومن نظر إلى أحــوال عقله ونفسه وبدنه نظــرا وجــدانيا ، يجد أن عقله أمر ثـــابت من أول العمر إلى آخـــره ، وأن كلا من نفسه الحيوانية وبدنه الطـبيعي في التبـدل والسـيلان ، وكما أن بدنه الطـــبيعي لأجل الحــــرارة الغريزية والخارجية في الذوبان والاستحالة والسيلان ، فكذلك هوية نفسه الجزئية الحيوانية المدركة

بـــإدراك حضــوري المشــعور بها له على الوجه الجــزئي ليست إلا متجـــــددة ، حـــــتى أن الحاضر الآن من ذاته الشخصــية ليس بعينه هو الهوية العينية الحاضــرة له فيما سبق من الزمان. فإذا نعلم جزما بأن مع حكمنا باستمرار ذاتنا ضربا من الاستمرار ، أن هويتنا الحاضــرة عنــدنا الآن غير هويتنا التي كانت منذ سنة ، كذا أيام الصبى والشباب ، وأن هذا الحضور غير ذلك الحضور وأن هذا الحاضر الآن غير ذلك الحاضر من قبل ، إذا ندرك نفسنا التي الآن بعلم شهودي وجودي ، والتي كانت حاضــرة لنا في الأمس مثلا ندرك نحو وجودنا الأمسي بعلم ذهـني حصـولي. نعم نعلم اســتمرار ذاتنا على نعت الاتصــال التجــددي ، ولنا كتــاب حفيظ يحفظ الســـــابق واللاحق والغـــــائب والحاضر من هويتنا وهو جوهرنا النطقي ، وكأن شيئا من هــذا الأمر لاح ـ لبهمنيار ـ حيث أنكر بقاء الذات في الإنسـان وبـاحث مع شيخه ـ أبي علي بن سـينا ــ في ذلك إلا أنه لم يسـهل له التفصي عما ذكـره الشـيخ في المفاوضـات بينهما بقوله : فلست أنا المسئول عنه ، فلم يلزمني جوابك.

وكـــان بهمنيـــار أن يقـــول له إن للنفس الإنســـانية مرتبتـان في الوجـود : إحـداهما ، متصـلة بالطبيعة البدنية والأخرى متصـلة بـالجوهر العقلي مسـتمدة منه ، فبوجهها الـــذي يلي الطبيعة ويتعلق بالبـــدن وتـــدرك الجزئيـــات الزمانية ، يكـــون متبدلة غـــير باقية ، وبوجهها الـــذي يلي العقل ، تكون ثابتة باقية مستمرة ، وحال هاتين المرتبتين من ذات الإنســان كحــال الحركة التوســطية المســتمرة والحركة القطعية المتجددة.

وبالجملة العالم العقلي محفوظ عن التغير والانقطاع ، والعالم الطــبيعي متجــدد كـائن فاسد ، والنفس مـترددة بين العــــالمين ، ولها وجه إلى الطبيعة ووجه إلى العقل ، فبوجهها الطبيعي تدثر وتضــمحل ، وبوجهها العقلي يحشر إلى عالم العقل ومأوى الأرواح ويرجع إلى الله تعالى.

حكمة عرشية

اعلم أن الســابقين الأولين من الفلاســفة الكـاملين ، كأرسطو وأتباعه ،

رأوا أن نفوس الأفلاك منطبعة لا غير ، والمتـأخرون منهم كـأبي علي بن سـينا ومن يحـذو حـذوه ، ذهبـوا إلى أنها مجردة فقط. وبعض المتأخرين رأى أن الفلك ذا نفسين ، أحدهما ، منطبعة والأخرى مجردة.

والذي لاح لهذه الفقراء بنور الهداية الربانية ، أن لكل من الأفلاك هوية واحـدة نفسـانية جامعة لمرتبـتي التجـرد والتجسم ، فلها نشأتان : إحداهما ، عقلية باقية عند الله ، والأخرى ، نفسانية جزئية متجـددة في كل وقت. فبـالنظر إلى الجهة العقلية قـالت الفلاسـفة : إن العـالم قـديم ، وبـالنظر إلى هويتها المتجـددة قـالت أصـحاب الشـرائع الحقة : إن العالم حادث. والقول الفصل هو الذي نطق به الكتاب الإلهي : (**ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ**) ولو اجتمعت فصـحاء العـالم كلهم على أن يـأتوا بمثل هـذا الكلام الفصيح المعرب عن هذا المعنى اللطيف والمطلب الشريف على هذا الوجه من الوجازة والبيـان ، لما قـدروا على ذلك (**وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**).

تعليم تمثيلي

اعلم أن صـورة العـالم كصـورة الإنسـان ، فكما أن لأفعال الإنسان من لـدن صـدورها منه وبروزها من مكمن غيبها إلى مظاهر شهادتها أربع مقامـات ومـراتب ، لكونها أولا في مكمن روحه الذي هو غيب غيوبه في غاية الخفـاء والبطـون كأنه غـير مشـعور به ، ثم يتـنزل الأمر منه إلى عين قلبه عند استحضـــارها وإخطارها بالبـــال كلية ، ثم يتنزل إلى مخـزن خياله ولـوح قـدره مشخصة جزئية ، ثم يتحرك أعضاؤه عند إرادة إظهارها في الخـارج فيظهر في مـادة جسـمانية ذات وضع شخصي ، وهـذا آخر تنزلاتهـا. فكذلك لما يحدث في هذا العالم من الحوادث ، إذ المقام الأول بمثابة القضـاء البسـيط الإجمـالي ، والثـاني بمثابة صور اللـوح المحفـوظ ومعدنه العـرش الأعظم ، والثـالث بمثابة نقش القدر ومحله السماء الـدنيا أعـني السـماوات السبع من حيث نفوسها الانطباعية الخيالية على ما نراه ، والرابع بمثابة الصور الحادثة في المواد الخارجية. ولا شك أن النزول الأول

لا يكــون إلا بــإرادة كلية ، والــنزول الثــاني بــإرادة جزئيه تنضم إلى الإرادة الكلية ، فيتخصص ويصــــــــير جزئية ، فينبعث بحسب ملاءمتها ومنافرتها رأي جـــزئي وشـــوق جزئي يستلزم إرادة جازمة داعية إلى إظهارها في الخارج ، ويبرز من الغيب إلى الشهادة. فحركة الأعضاء بواســطة الأعصاب والرباطـات في الإنسـان الصـغير ، بمثابة حركة السـماء بواسـطة الأشـعة والأنـوار في الإنسـان الكبـير ، وظهـور الفعل في الخـارج هو القـدر الخـارجي ، وكما أن سلطان الروح الكلي الذي هو روح العالم الكبـير لا يكـون إلا في العرش ، فهو من عالم الكبـير بمنزلة الـدماغ منا ، وكما أن مظهره الأول فينا هو القلب الذي هو منبع الحياة والحرارة الغريزية ، فكذلك مظهـره في العـالم هو الفلك الرابع الذي ارتكز فيه الشـمس ، وهي سـلطان الكـواكب النورية ومعطي الأضــواء والأنــوار الحســية ومنبع حيــاة العالمين ، فهي من العـالم بمنزلة القلب الصـنوبري منـا. وأما القلب المعنــوي الــذي هو محل الإيمــان والمعرفة والحكمة وهو المذكور في لسان الشريعة والقـرآن كقوله تعــالى : (**لِمَنْ كــانَ لَــهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّــمْعَ وَهُــوَ شَــهِيدٌ**) وقوله : (**فَوَيْــلٌ لِلْقاسِــيَةِ قُلُــوبُهُمْ**) وقوله : (**وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُــوبِكُمْ**) فهو النفس الناطقة من ـــ الإنســـان لتقبلها في الأطـــوار ، وكونها تـــارة مع الطبيعة ، وتــارة مع العقل ، وهي متجاذبة إلى الجــانبين ، مـترددة بين النشـأتين ، كما ورد في الحـديث عن النـبي ، صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «قلب المـؤمن بين إصـبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشـاء» وروح هـذا الفلك الرابع بمنزلة النفس الحيوانية منا المتعلقة بالبخـــــــار اللطيف الـــــدخاني المنبعث من القلب الـــــذي حياته ، كأنه ذاتية كالأجســـام الأخروية الـــتي حياتها ذاتية لا واردة عليها من خــارج ، كما سينكشف في مبـاحث المعـاد وبهـذا الـروح يحيى جميع الأعضاء وهو كجرم الفلك ، ولـذلك وصف الله السماء بالدخان للطافته ، وقبوله النارية والنورية بسـرعة ، وهو ، أي الفلك الرابع الــبيت المعمــور المشــهور في الشــريعة إنه في السـماء الرابعة الـذي أقسم الله به في التنزيل في قوله : (**وَالطُّورِ وَكِتــابٍ مَسْــطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّــقْفِ الْمَرْفُــوعِ وَالْبَحْــرِ الْمَسْجُورِ**) ولهـذا جعلت مقـام عيسى روح الله ، وكـانت معجزته إحياء الموتى لغلبة روحانيته وتجـرده وقــوة حياته ونورانيته. والطور يراد به العرش ،

والكتــاب المســطور بــالقلم الأعلى ، هو صــورة القضــاء الأول البســيط الثــابت في الــروح الأعظم الأول ، والــرق المنشــور هو النفس الكلية المــدبرة للعــالم ، والســقف المرفوع هو السماء الدنيا على المعنى الـذي سـبق. فـإن هذه السماوات الجسمانية بـإزاء سـماوات عقلية روحانية في العــالم الأعلى العقلي ، فهي الســماوات العلى في الحقيقــة. إذ لا شك أن عــالم الأجســام كله بالنســبة إلى عالم الروحانيات بمنزلة الأرض السفلى والمـنزل الأدنى ، والبحر المسجور هو بحر الهيولى السيالة الممتلئة بالصور الطبيعية الكائنة الفاســدة المتــواردة عليها على التعــاقب كأمواج البحر ، وإنما وصف بحر الهيـولى بالمسـجور ، لأن هذه الطبائع الجسمية والصـور الكونية باطنها نــار الجحيم وهي نــــار كامنة في كل جسم ، وإن كــــان مثل المــــاء والأرض والجبال ، إلا أنها منغمرة في بعضها بحيث لا يبرز إلا بجهد جهيد وتحريك وســـحق شــــديد ، بخلاف البعض الآخر ولــذلك ما من جسم طــبيعي إلا وينقلب إلى النــار بالحركة والتلطيف والخضخضة ، وأهل الكشف يشـاهدون النــار الكامنة في بــواطن الأجســام الطبيعية كلها رطبها ويابسها وباردها وحارها ، ويرون النـار الأخروية في بـاطن جــواهر الــدنيا ، كما قــال تعــالى في حق آل فرعــون : (**أُغْرِقُـوا فَـأُدْخِلُوا نـاراً**) وقوله : (**أَدْخِلُـوا آلَ فِرْعَـوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ**) وعن بعض الصحابة رأى بحرا فقــال يا بحر ، متى تصير نارا

المشهد الثالث

في دوام إلهيته وجوده ورحمته وكيفية صنعه وإبداعه وفيه قواعد :

قاعدة

اعلم أن جماعة من المتكايسين الخائضين فيما لا يغنيهم ، زعموا أن إله العالم كان في أزل الآزال ممسكا عن جوده وإنعامه ، واقفا عن فيضه وإحسانه ، ثم سنح له في أن يفعل ، فشرع في الفعل والتكوين والتقويم ، فخلق هذا الخلق العظيم الذي بعضه مكشوف بالحس والعيان وبعضه معلوم بالقياس والبرهان. وهذا الرأي من سخيف الآراء ومن قبيح الأهواء ، فإن صفات الحق تعالى عين ذاته وكمالاته الفعلية التي هي مبادي أفعاله كالقدرة والعلم والإرادة والرحمة والجود كلها غير زائدة على ذاته تعالى ، وكذا الغاية في فيضه وجوده ، والداعي له على ذلك ليس إلا نفس علمه بالنظام الأكمل الذي هو عين ذاته ، فإن ذاته هو النظام المعقول الواجبي الذي يتبعه النظام الموجود الممكني ، لا كاتباع الضوء للمضيء واتباع السخونة للجوهر الحار. والذي دعاهم إلى هذا الظن القبيح المستنكر ، ما توهموا أن حدوث العالم حسبما اتفق عليه أهل الشرائع الحقة من اليهود والنصارى والمسلمين تبعا لإجماع الأنبياء عليهمالسلام ، يستدعي ذلك ، ولا يستصح إلا بنسبة الإمساك عن الجود وتعطيل الفيض إلى الله المعبود. وقدا وضحنا السبيل وأقمنا الدليل كما ستقف إن شاء الله تعالى حسبما فصلنا في كتبنا ورسائلنا ، على أن العالم بكله وجزئه حادث زماني ، وذلك

لا ينافي كونه تعالى قائما بالقسط والعدل والجود والكرم أزلا وأبدا.

وربما توهموا أن مختاريته تعالى أوجبت تجدد الفاعلية واستيناف الفعل بعد ما لم يكن. وهذا أيضا من تلفيقات الأوهام ومختلقات الذهن التي من قبيل أضغاث الأحلام ، فإن اختياره جل ذكره أجل وأرفع من النمط الذي تصوروه من طرفي الجبر والاختيار ، إذ لم يفهم جمهورهم من الجبر إلا في الطبائع العديمة الشعور ، ولا من الاختيار إلا في القصد الذي يكون في الحيوان بعد حصول الداعي عقيب القدرة التي شأنها القوة الإمكانية المتساوية نسبتها إلى الضدين والطرفين ، وهذه لا يوجد إلا في الناقصين في القدرة المفتقرة في كونها مبدأ للفعل إلى انضمام الداعي من الخارج. وأما القدرة الأزلية فليست كما زعموه وجلت وتقدست عما اعتقدوه في حقها ، لأنها عين الإرادة وعين الداعي الذي هو علمه تعالى بالكل على الوجه الأتم الأعلى ، فهو تعالى بنفسه قادر مريد خالق لما يشاء كيف يشاء فاعل لما يريد كيف يريد فكان خالقا لم يزل ولا يزال ، فاعلا للعالم كما يعلم في الآباد والآزال ، فيكون الخلق قديما والمخلوق حادثا والعلم قديما والمعلوم متجددا ، وكذا الإرادة والإفاضة والرازقية كلها مستمرة أزلية ، لكن المرادات والمفاضات والأرزاق حادثة متجددة (**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً**) لعدم تغيره في ذاته وكمالات ذاته وما يقتضيه صفاته الكمالية (**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً**) إذ لا محول لفيضه وإعطائه ولا مبطل لقيوميته وإنشائه ولا مبدل لكلماته. قوله : (**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**) وقوله : (**ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ**) وقد علمت أن قوله إبداعه وأمره كلمته وتكوينه. وقوله : (**وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ**) وأمره دائم ، والأمر الدائم لا يتغير ولا يوجب تغير المأمور في ذاته تغير الأمر ، كما لا يوجب تغير الأمر لأن الأمر من عالم الإلهية والبقاء والمأمور من عالم الخلق والفناء والدثور.

وإياك أن تشتبه عليك وتلتبس ما قررناه من تجدد الخلق والتكوين مع بقاء الأمر والإبداع بكلام الأشاعرة ، أتباع أبي الحسن الأشعري ، حيث قالوا : إن العلم قديم والتعلق حادث وكذا القدرة قديمة وتعلقها بالمقدورات حادثة

فشتان بين ما ذكروه وبين ما قررناه فإن الـذي تخيلـوه لا يمكن تصحيحه على نمط البيـان العلمي ، لأن مبنـاه على الإرادة الجزافية التي ذهبـوا إليها ، وعلي إبطـالهم القـول بالعلة والمعلول. وأيضا : كون العلم والقدرة وغيرهما من الصفات التي تلزمها الإضافة قديمة ومتعلقاتها حادثة غــير معقولة بنـاء علي مـذهبهم من انقطـاع الفيض وتخصـيص آن من الآنـات بـأول الحـدوث. وكـذا قـول جمهـور قـدماء المعتزلة بكون علمه تعـالى بالأصـلح علة مقتضـية لوجـود العالم في الوقت الذي وجد فيه دون غيره من الأوقــات ، وليس يلزم من هذا تخلف المعلـول عن العلة المقتضـية ، لأن الذي اقتضـاه العلم بالأصـلح هو وجـود المعلـول على هذا الوجه ، فلم يلزم تخلف أصلا. وكذا قول بعضـهم بــأن الــداعي ذات الــوقت على ســبيل الأولوية أو على ســبيل الوجـــــوب ، إذ لا وقت قبله ونحو ذلك من الملفقـــــات الكلامية التي لا جـدوى فيها إلا تضـييع الـوقت. فـإن كـون الصفات الفعلية قديمة والآثـار اللازمة حادثة أنما يسـتقيم ويسـتثبت إذا كـان نحو وجـود الخلق والمـواد الجسـمانية وطبائعها متجددة منقضـية بحيث لا بقـاء لها زمـانين ، لأن شأنها التجدد والحدوث وماهيتها يقتضي الزوال والانصرام والانقضـاء ، كالحركة والزمـان ، لكن معـنى الحركة نفس المعقـول من تجـدد شـيء وخروجه من القـوة إلى الفعل تدريجا بالمعنى الذهني المصدري.

وأما الذي كلامنا فيه فهو نفس الموجود الذي وجـوده بعينه يخـرج من القـوة إلى الفعل على التـدريج ، وهو من مقولة الجوهر الذي يقع فيه وبه الحركة الذاتية والحــدوث والتجدد من لوازمه الغير المجعولة بجعل مســتأنف يتخلل بين الشـيء وموصـوفه ، فالجاعل القـديم بقدرته القديمة وبنحو ثباته يفعل الجوهر الجسمانية ، وهي من حيث أصل ذاتها وثبـــات وجودها الـــذي هو عين الحـــدوث والتجـــدد مرتبطة بالفاعل وبقدرته التامة ، ولا لمية لها في نحو حدوثها وتجددها إذ لا يتصور لها وجود خارجي إلا على هـذا النحو فلا صـــنع للفاعل إلا في إفاضة الوجـــود عليها على الوجه الأتم الأبلغ ، لا في كونها حادثة الوجـــــــود ناقصة الكون متجـددة الهوية والـذات ، إذ الـذاتي لا يعلل ، فعلى هـذا الوجه صح القـول بـأن القـدرة والإرادة والجـود أزلية والعالم حادث ، لا على

ما لفقوه ، كما لا يخفى على ذي بصيرة. قوله : (**إِنَّ اللـهَ يُمْسِكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَـزُولا ، وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْـدِهِ**) قوله : (**خالِـدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّـــماواتُ وَالْأَرْضُ**) وقوله : (**عَطـــاءً غَيْـــرَ مَجْذُوذٍ**) وقوله : (**وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً**).

قاعدة

في تحقيق كلماته التامات

اعلم أن بين البـاري جل مجـده وبين العـالم وسـائط نورية وأسبابا فعالة هي كأنها فـوق الخلق ودون الخـالق ، لأنها حجب إلهية وسـرادق نورية وأضـواء قيومية كأضـواء هذه الشمس المحسوسة ، كأنها بـرزخ بين الـذات النـيرة وبين الأشياء المستنيرة بها ، وتلك الوسائط قد يعـبر عنها بكلمــــــات الله وبالكلمــــــات التامــــــات كما ورد عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله في الأدعية والأذكار «أعوذ بكلمـات الله التامات من شر ما خلق ، وقوله : أعوذ بكلمـات التامـات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر كل شـيطان مريـد» وإنما وقعت الاستعاذة من الشرور بكلمات الله ، لأنها من عـالم الأمر ، وهو خـير كله لا شر فيه ، وكل ما في عـالم الخلق كالأجسـام وعوارضـها اللازمة والمفارقة كلها مملو بالشرور والنقائص والآفات. قوله : (**لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَنْ تَنْفَـدَ كَلِمـاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً**) فالكلمات إشـارة إلى ذوات نورية بها يصل فيض الوجـــود إلى الأجســـام والجســـمانيات ، والبحر إشـارة إلى هيـولى الأجسـام الـتي شـأنها القبـول والتجـدد. وإنما يقع تجـدد الفيض بحسب تـوارد انفعالاتها واستعداداتها ، وإنما يتلاحق استعداداتها بمدد بعد مدد من العوالي ، فشأن المواد النفاد والانقطاع ، وشأن الكلمـات الإفاضة بعد الإفاضة ، ولا شك أن الوســـــائط هويــــات وجودية بسـيطة وذوات مجـــردة عن المــواد الجســـمية مرتفعة عن عــــالم الأزمنة والأمكنة ، وكل مجــــرد أمر روحاني وجوده عين العلم والإدراك ، فهي لا محالة عقول قدسية وأرواح عالية ، قال الله

تعـالى : (**وَكَلِمَتُـهُ أَلْقاها إِلى مَـرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْـهُ**) وهي متصـلة بـالحق الأول اتصـال الشـعاع بالشـمس ، ولهـذا أضـيفت إليه تعـالى بقوله : (**وَتَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ صِـدْقاً وَعَدْلاً ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ**) وإنما وصفت بأنها تامـات ، إذ جميع ما لها من الكمال هو بالفعل ، ليس فيها شوب قـوة اسـتعدادية ولا كمـال ينتظر ولا أحـوال مترقبة الحصـول. وقد يعبر عنها بعالم الأمر كما يعبر عن الأجسـام وما معها بعالم الخلق ، قال تعالى : (**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْـرُ**) فجميع ما في عـــالم الأجســـام إنما يصـــدر عن المبـــدإ الأعلى بواســـطته. وقد يعـــبر عنها بقوله تعـــالى : (**إِنَّما قَوْلُنا لِشَـيْءٍ إِذا أَرَدْنـاهُ أَنْ نَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ**) وقـال : (**لَقَـدْ حَـقَّ الْقَـوْلُ عَلى أَكْثَـرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُــونَ**) والأسماء متكثرة والمسمى واحد باعتبار حيثيات مختلفة ، فمن حيث يقع بها إعلام الحقـــائق من الله ، يقـــال لها الكلمـــات ، ومن حيث يجب بها وجـــود الكائنـــات كل في وقته ، يقـال أمر الله وقضـاؤه الحتمي ، ومن حيث يكـون بها حياة الموجودات يقال لها روح (**قُـلِ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي**) وهي في ذاتها واحدة (**وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِـدَةٌ**) وإنما يتعدد ، بتعدد أنواع الآثار (**وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها**) أو باعتبار جهات فيضانها على الأشياء ، أو باعتبـار تعلقاتها بها ، فيتكثر بتكثرها ، كالوجود حقيقة واحـدة تتكـثر بتكـثر الماهيات ، لا بأن يكـون للماهيـات تـأثير في الوجـود ، بل باعتبـار اتحـاد الماهية بـالوجود. وبالجملة كلمـات الله أمر موجود روحاني مؤيد للأنبياء بالوحي ، قال الله : (**وَكَـذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحـاً مِنْ أَمْرِنا**) وملهم للأوليـاء بالكرامة ، ومحيي لقلوب السالكين من المؤمنين بالإيمـان ، وأيـدهم بروح منه ، وهو والد لنفوس المكرمين ، (**وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ**) وهذا هو الروح العلوي الذي قيل : إنه لم يقع تحت ذل كن ، لأنه نفس كلمة كن ، وهو بعينه نفس الأمر ، لأنه أمر الله الـــذي به يوجد الأشـــياء ، ولا شبهة في أن قول الحق وكلامه فوق الأكـوان وأعلى منها ، إذ بها يقع الفعل والتـــأثير والتكـــوين. فكيف يقع تحت الكون وقال : (**وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا**).

قاعدة

في أن الله سبحانه فاعل لما سواه وموجد لما عداه على أربعة أنحاء

: الأول ، الإبداع وهو إيجاده لأفعال تولاها بذاته ، وهي الإبداعيات. ومعنى الإبـداع هو إيجـاد الشـيء عن العـدم ، أي إيجـاده لا من شـيء ، لست أقـول من لا شـيء وإليه أشار بقوله : (**بَـدِيعُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ**) وقوله : (**إِنَّما أَمْـرُهُ إِذا أَرادَ ...**). والثـاني التكـوين ، وهو إيجـاد أفعـال استعبد فيها ملائكته وسماها قوم : التكوينيـات. والثـالث ، التدبير وهو إخراج الشيء من النقص إلى الكمـال إخراجا غير محسـوس ، وهو معـنى الربوبية ، كقوله (**الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعـــالَمِينَ**) وقوله : (**رَبُّ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ**) وبــذلك وصف الله تعــالى ملائكته بقوله : (**فَالْمُـدَبِّراتِ أَمْراً**). فالمقسمات وهم ثلاثة أضرب : ضرب إليهم القيام بالأجرام السماوية ، وقيل هم إسرافيل وميكائيل وجبرئيل ورضــوان والمحتفــون بــالعرش الموصــوفون بقوله : (**حَـافِّينَ مِنْ حَـوْلِ الْعَـرْشِ**) وقوله : (**الَّذِينَ يَحْمِلُـونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**) وضرب إليهم تدبير الأركان الهوائية ، كالملائكة الباعثة للريـاح والموجبة للسـحاب الموصـوفين بقوله (**وَيُسَـبِّحُ الرَّعْـدُ بِحَمْـدِهِ وَالْمَلائِكَـــةُ مِنْ خِيفَتِـــهِ**) وكما وصــــفه النــــبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في صفة الجنين «إنه تعـالى يبعث ملكا فينفخ فيه الروح» وكالحفظة كما في قوله : (**لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ يَحْفَظُونَـهُ مِنْ أَمْـرِ اللـهِ**) وقوله : (**يُمِـــدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَـــةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَـــةِ مُنْـزَلِينَ ...**) إلى قوله : (**يُمْـدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَـةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**). والرابع ، التسخير ، وهي أفعال سـخر الله تعـالى لها موجـودات هـذا العـالم ، كالإضـاءة للشمس والإنارة للقمر والإحراق والإذابة للنار والـترطيب للمــاء ، وبالجملة ما ســخر الله له شــيئا من الأجســام كالأفلاك والعناصر والجمـادات والنباتـات وغـير ذلـك. ونبه عليه بقوله (**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**) وقوله :

(**وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ**) و (**سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ**) إلى غير ذلك من الآيات.

الخامس ، الصناعة وهي المهنة وهي التي استعبد الإنسان فيها واستخلفه ، وهي الأشياء التي يحتاج صنعة أكثرها إلى ستة أشياء. إلى عنصر يعمل منه ، وإلى مكان ، وإلى زمان ، وإلى حركة ، وإلى أعضاء ، وإلى آلة. وهذا الضرب خص الإنسان به ولم يستصلح لها الملائكة كما استصلح الملائكة لأمور لم يستصلح لها الناس ، وجعل لكل ملك مقاما معلوما (**وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ**) وكذا جعل لكل من أصناف الناس مقاما معلوما كما نبه بقوله : (**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ**) وقوله : (**كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**) وقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله : «كل ميسر لما خلق له» ولكن عامة الملائكة ، لا يعصون الله في ما أمرهم ، (**وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ**) ، لبساطتهم وعدم تركبهم من أمشاج. والناس فيما أمروا وكلفوا بين مطيع وعاص ، فهم على القول المجمل ثلاثة أضرب : ضرب أخلوا بأمره وانسلخوا عما خلقوا لأجله واتبعوا خطوات الشيطان وعبدوا الطاغوت. وضرب وقفوا بغاية جهدهم حيثما وقفوا كالموصوف بقوله : (**وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً**). وضرب ترددوا بين الطريقين كما قال : (**خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً**) فمن رجح حسناته على سيئاته ، فهو موعود بالإحسان إليه. وعلى الأنواع الثلاثة دل بقوله : (**وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً ، فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ**) وعلى هذا قسم في آخر السورة وقال : (**فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ...**).

وكثير من الناس يعصون الله ولا يأتمرون له ولكن يستعملهم الله تعالى بغير إرادة للسعي في تصرفه من حيث لا يشعرون ، كفرعون في أخذ موسى ابنا له وتربيته إياه ، وكجمعه السحرة في إيمانهم بالله وبموسى ، وكإخوة يوسف في فعلهم بيوسف ما أفضي به إلى ملك مصر وتمكنه مما مكن فيه ، ويكون مثلهم في ذلك كما قيل :

قصدت مساءتي فاجتلبت مسرتي … وقد يحسن الناس من حيث لا يدري

فيكون فعله محمودا وفاعله مذموما ، كما قيل : رب امرئ أتاك لا يحمد الفعال فيه ويحمد الأفعالا.

قاعدة

في عالم أمره تعالى.

أول الصــوادر عن ذاته تعــالى بذاته يجب أن يكــون أشرف الممكنات وأفضل المفطورات وأكرم المربوبات ، وهي الصــور المجــردة الإلهية والأنــوار المفارقة العقلية دون شيء من الجواهر الجســمانية وطبائعها وقواها الـتي هي من عــالم الظلمــات ومعــدن الشــياطين والشــرور والآفـات ، فـإن الـواهب الحق والجـواد المطلق لا يـترك الأشـــرف ويفعل الأخس ، بل يجب أن يصـــدر من فيض جـــوده الأشـــرف فالأشـــرف إلى أن ينتهي إلى الأخس فالأخس ، فما من شيء من الممكنات سواء كانت شريفا أو خسيسا ، عاليا أو دنيا ، روحانيا أو جســـمانيا إلا ويجب أن يسع إليه رحمته ولا يقصر رداء جـــــــوده وكرمه أن يشـمله ، إذ لا منع في فاعليته ولا راد لقضـائه ولا قصـور في إحسانه ولا دافع لأمره ، لكن يجب في قضية البرهـان أن يصدر عنه الأشياء على حسن الترتيب والنظام وجـودة الهيئة والتمــام على حسب توســيط وســائط في جــوده ووسائل لكرمه وفيض وجوده ، عـبر عنها تـارة بـالملكوت لقوله : (**وَكَـذلِكَ ، نُـرِي إِبْـراهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**) وتارة باليمين المقدس (**وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِـهِ**) وتـارة باليد المبسـوطة المنسوبة إليه تعالى (**يَدُ اللهِ فَـوْقَ أَيْـدِيهِمْ**) ، ، (**قـالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا ، بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ ، يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ**) وتارة بـالأعين الإلهية (**وَاصْـنَعِ الْفُلْـكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا**) وتـارة بمفـاتيح الغيب (**وَعِنْـدَهُ مَفـاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُـوَ**) وتـارة بالخزائن لاختزان الصور العلمية فيها (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ**) وتارة باسمه تعالى (**تَبـارَكَ اسْـمُ رَبِّكَ**) ، (**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ**) وتـارة بجنـود الـرب (**وَما يَعْلَمُ جُنُـودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**) لأنها مرتفعة الـذوات عن أن يحيط به إدراك الجن والإنس ولذلك قال (**وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُـونَ**) وإليهم الإشارة بقوله : (**وَما لا تُبْصِرُونَ**).

والعقل الأول أول ما ينفتح به بـاب الفيض والإبـداع ، ونسبته إلى سائر الجواهر الروحانية نسبة آدم إلى أولاده. وقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله :

«أول ما خلق الله العقـل» وهـذا العقل له وجه إلى الحق ، لأنه يجب به وجـوده ، ووجه إلى ذاته ، لأنه هوية صـادرة عن الحق الأول مغـــايرة له ، فلا بد له من أن يتضـــمن معـــنى النقص والإمكــــان ، وإلا لم يكن بين المفيض والمفاض عليه فرق ، فلتضمنه جهة الخير والوجوب يصدر بواســطته عقل آخر دونه في الرتبة ، ولتضــمنه معــنى النقص والإمكان ، يصدر منه جوهر جسماني فيه الإمكــان الاسـتعدادي ، وهو أول الأفلاك وأعلاها ، وهكـذا صـدر عن كل عقل بحسب جهتيه جــوهر قدسي وجــرم ســماوي ، الأشـــرف من الأشـــرف ، والأخس من الأخس ، حـــتى استوفى عدد الكرات إلى فلك القمر ، وعدد العقــول إلى عقل أخـير. والحق أنها متكـثرة جـدا حسب تكـثر الأنـواع الطبيعية ، حتى يكـون لكل كـرة سـماوية أو كوكبية ولكل نوع من الطبـائع النوعية البسـيطة كالنـار والهـواء والمـاء والأرض ، والمركبة كأنواع المعادن والنباتات والحيوانات ، عقل فعال ذو عناية وتدبير وحفظ لأفراد ذلك النوع.

ففي عــالم الأرواح العقلية كــثرة وافــرة خارجة عن إحصـائنا وضـبطنا لا يعلم عـددها إلا الله كما قـال : (**وَما يَعْلَمُ جُنُــودَ رَبِّكَ إِلَّا هُـوَ**) وإليها الإشــارة بقوله تعــالى (**وَالصَّــافَّاتِ صَــفًّا**) ... (**فَالْمُــدَبِّراتِ أَمْــراً**) وقوله (**السَّـماءَ بَنَيْناها بِأَيْـدٍ ...**) وقوله : (**أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْــدِينا أَنْعامــاً**) فللحق الأول أيد عمالة فعالة لا بجــوارح جســمانية ، بل ذوات نورية هي وســائط جــوده وجهــات فاعليته ، وإفاضــته على الأشــياء وهي كأنها في طريق الإيجاد مباد فعالة لهذه الأنواع ، فهي كما أنها مبــاد لوجود طبائع الأشياء وحركاتها ، كـذلك هي غايـات لوجـود هذه الطبائع واستكمالاتها ، بها يتم ذواتها ويكمل وجوداتها ، ولأجلها يفعل آثار حركاتها واستحالاتها ، وبها يتم النظــام ويكمل الخلق ، وللتشـــوق إليها يـــدور الأفلاك ويتواجد الأملاك ليلا ونهارا ، سرا وجهارا ، وبسبب ذلك تعمر الدنيا ويــدوم الحــرث والنسل (**صُــنْعَ اللــهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُــلَّ شَيْءٍ**) إشارة إلى النظـام المحكم والقـوام الأتم الأدوم ، ولأجل وجود هذه المقومات العقلية للأنــواع الطبيعية كلها قال : (**ما تَـرى فِي خَلْـقِ الـرَّحْمنِ مِنْ تَفـاوُتٍ**) وإليها الإشارة بقوله : (**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**) وذلك لأن

هــذه الطبــائع النوعية هي ظلال وقــوالب لتلك الــذوات النورية والأرواح المهيمة العقلية ، وهي ظلال وقـــــوالب للأســـماء الإلهية الـــتي هي عند محققي العرفـــاء بمنزلة أرباب الأربـاب لتلك الأعيـان الثابتة النوعية العقلية ، وتلك الأسماء كلها موجودة بوجود واحد إلهي هو الغيب المطلق وغيب الغيوب ، وما في هذا العالم شهادة مطلقة.

وأما الأسماء والأعيـان العقلية وكـذا الصـور المثالية ، فكل منها غيب بالنســبة إلى ما تحتها ، وشــهادة بالنســبة إلى ما فوقها. وقد علمت أن أمـره تعـالى يجب أن يكـون موجـودا مفارقا عن الأكـوان الخلقية فهو لا محالة متقـدم على عـالم الأكـوان الخلقية (**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَعْقِلُونَ**) وهم العارفون بكيفية صـنعه تعـالى في الإبـداع والإيجاد وإدامته وحفظه للأشياء حسبما يحتمله الأشخاص والأنواع ، فمنها ما يحتمل الدوام الشخصي ويمكن حفظه بالعــدد ، ومنها ما لا يحتمل إلا الــدوام النــوعي ولا يمكن حفظه إلا بــالنوع لا بالعــدد ، يديمه بــالنوع ويحفظ نوعه بالصور العقلية التي حقيقته ثابتة في صـقع عـالم الربوبية وبتــوارد الأمثـال الــتي هي كـالأظلال والأشــباح. فما من شـــيء من الموجـــودات الكونية إلا وله ظـــاهر وبـــاطن ، فظاهره قشر ظلمـاني ، وباطنه لب نـوراني على اختلاف الأشـياء في الشـرافة والخسة ، فالمنسـوب إلى الله من كل شيء لبه ولطيفه وباطنه النوراني لا قشـره وظـاهره الكـدر الظلمـاني لأن الظلمة والكـدورة منشـؤهما العـدم والنقصــان ومنبعهما الإمكــان (**فَسُــبْحانَ الَّذِي بِيَــدِهِ مَلَكُـوتُ كُـلِّ شَــيْءٍ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ**) ، (**لَـهُ ما فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ.**) أي لطائفها وأرواحها ولـذلك عقبه بقوله : (**كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ**).

قاعدة

في أن جميع الموجودات متوجهة نحو الخير الأقصى والمبدإ

الأعلى طالبة للحق ، سالكة في طريقه ، مشتاقة إلى لقائه

. قال الله تعـالى : (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللـهَ يَسْـجُدُ لَـهُ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّـمْسُ وَالْقَمَـرُ وَالنُّجُـومُ وَالْجِبــالُ وَالشَّــجَرُ وَالــدَّوَابُّ وَكَثِــيرٌ مِنَ النَّاسِ**) ، وهذا سجود

فطـــري ذاتي عن تجل وقع من قبل الله لهم ، فـــأحبوه وانبعثــوا إلى الخضــوع له تقربا إليه بعبــادة ذاتية وحركة جبلية نحوه من غير تكلـف. وقـال أيضا (**أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللـهَ يُسَـبِّحُ لَـهُ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَالطَّيْـرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ**) فلـزم ذلك وثـابر عليه وداوم. وهـذا أيضا تسـبيح فطـري وثنـاء ذاتي انبعث عن ذواتهم وبواطنهم الـتي هي عند ربهم ، فيسـري حكم السجود الفطري والصلاة الحقيقية والتسبيح الـذاتي إلى ظواهرهم وأمثــالهم وأظلالهم كما في قوله : (**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُـهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ**) ومن لطائف كلامه أنه قـال في الآيـتين السـابقتين (**أَلَمْ تَـرَ**) مخاطبا لنبيه ، وفي هــذه الآية (**أَوَلَمْ يَرَوْا**) بلفظ الجمع المــراد به عامة الإنس وكل عاقل ، وذلك لأن متعلق الرؤية فيهما هو الله من حيث كونه مسـجودا ومسـبحا له ، وفي هــذه متعلق الرؤية ما خلق الله ، ولا شك في أن تلك الرؤية مرتبة عظيمة مختصة بـالنبي صـلىاللهعليهوآله شـهودا وعيانا ، فهي له صلىاللهعليهوآله عيان كشفي ، ولنا إيمان علمي ، فأشهده الله تعالى سجود كل شيء وتسبيحه كما أعلمنا بمتابعة دينه وكتابه.

وبالجملة دلت الآيــات أن لهــذه الموجــودات حــتى الجبال والشجر والدواب عبـادة ذاتية لله ونسك فطـري ، ثم قــــال متمما لما ســـــبق : (**وَلِلَّهِ يَسْـــــجُدُ ما فِي السَّـــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ**) أي ممن يـــدب عليهما ، يعني أهل السماوات والأرض إشـارة إلى حركتها الذاتية الفطرية حسب ما بينـــــاه بالبرهــــــان. وقوله : (**وَالْمَلائِكَـةُ وَهُمْ لا يَسْـتَكْبِرُونَ**) يعــني الملائكة الــتي ليست في سماء ولا أرض لا يسـتكبرون عن عبـادة ربهم. ثم وصف المأمورين منهم أنهم (**يَفْعَلُونَ ما يُـؤْمَرُونَ**) ، ثم قال : (**فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ**) أي لا يملون ، لأن مبدأ حركتها وسعيها ليس قوة جسـمانية أو غاية حيوانية شـهوية أو غضـبية بل تشوقا إلى الله وتقربا عنده وتخلصا من ألم الفـراق ونـار الاشـــتياق كل ذلك يـــدل على أن العـــالم كله في مقـــام الاســـتقامة على الصــــراط والعبودية والخضـــوع ، إلا كل مخلوق له قوة الفكر وتسـلط الـوهم وإغـواء الشـيطان ، وليس إلا النفوس الإنسـانية النطقية من حيث أعيـان تلك النفوس ،

وأما أبـــدانهم وهيـــاكلهم فهي أيضا كســـائر العـــالم في التسـبيح والعبودية الذاتية ، فأعضـاء البـدن كلها مسـبحة ناطقة ، ألا ترى أنها يشهد على النفوس المسخرة لها يوم القيامة من الجلـود والأيـدي والأرجل والألسـنة والسـمع والبصر وجميع القوى فالحكم لله العلي الكبير.

ومن الآيات الدالة على الحركـات الذاتية للموجـودات نحو البـاري جل ذكـره قوله تعـالى : (**قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْـفَ بَـدَأَ الْخَلْـقَ ، ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، يُعَـذِّبُ مَنْ يَشـاءُ وَيَـرْحَمُ مَنْ يَشـاءُ وَإِلَيْـهِ تُقْلَبُـونَ**) وقوله : (**وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَإِلَيْـهِ يُرْجَعُـونَ**) ... (**وَمِنْ آياتِـهِ أَنْ تَقُـومَ السَّـماءُ وَالْأَرْضُ بِـأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذا دَعـاكُمْ دَعْـوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ**) وقوله : (**ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ (وَهِيَ دُخـانٌ) ، فَقـالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعـاً أَوْ كَرْهـاً ، قالَتا أَتَيْنا طـائِعِينَ**) قوله : (**طَوْعـــاً**) وقع حـــالا عن السماء في إتيانها ، فـإن حركـات السـماء إرادية نفسـانية تقربا إلى الله تعـــــــالى ، كما بين في مقامه ، من أن نفوسـها يحـرك أجرامها لأجل غايـات عقلية ومعشـوقات قدسية هي أشـعة وأنـوار للهوية الإلهية نـور الأنـوار ، ولها اتصـــالات بها واستشـــراقات بأنوارها ، وكل منها يتصل بمعشوقه العقلي ويتحد بـه. وقوله : (**كَرْهـاً**) إشـارة إلى حـــــــال الأرض في إتيانها ، فإنها لكثافة طبيعتها وبعد مناسـبتها لعـالم قـدس الحق لا تصـير صـالحة للتوجه إلى حضـــــــــرة الأحدية والعبودية والإنابة إلى الله إلا بعد استحالات وانقلابات بالقسر والجبر من جهة قـوى محركة خارجية كالغاذية والنامية فيصـير غـذاء للنبـات مصـورة بصـورته ، ثم للحيـوان مصـورة بصـورته صـائرة إيـاه ، ثم يـدخل في بـاب الإنسـانية وهو بـاب الله الأعظم ، فـإذا دخلت في هـــذا البـــاب تطيع الله وتحشر إليه فصـــارت مطيعة بعد ما كـانت متعصـية ، وكـذلك كل حركة قسـرية فإنها تصير بعد إعـداد القاسر طبيعية صـادرة عن الطبيعة المقسـورة ، ولهـذا قـال (**قالَتا أَتَيْنا طـائِعِينَ**) فحـال السـماء في توجهها إلى الله كحـال المـؤمن الفطـري في عبادته وعبوديته ، وحال الأرض كحال المـؤمن الـذي كـان أولا كـافرا ، ثم تـاب عن كفـره وآمن وعمل الصـالحات.

وقوله : (**إِنَّا (نَحْنُ) نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ**) وقوله : (**لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ**

الْمَصِيرُ) وقوله : (**وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ**) إشارة إلى أن جميع ما في العالم الجسماني سيعود في حركاتها الذاتية الطبيعية والاستحالات الجوهرية والعرضية إلى عالم الأمر العقلي والمقام الواحد الجمعي. وإطلاق الدابة على ما في السماء من الكواكب وغيرها وعلى ما في الأرض من المعادن والنباتات وغيرها لأجل أنها حيوانات سماوية أو أرضية دائمة الدءوب والسعي إلى الله ، إذ ما من جوهر جسماني ذي طبيعة فلكية أو عنصرية إلا وله حركة رجوعيه ذاتية إلى الله كما قال (**يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً ، وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً**) فالسماء والسماوي كالأرض والأرضي في هذه الحركة الذاتية كما برهن عليه في موضعه.

الطرف الثاني

في أفعاله سبحانه وكيفية صدورها عنه ورجوعها

إليه تعالى وفيه مشاهد :

المشهد الأول

في حدوث هذا العالم وكون وجوده ووجود كل ما فيه

مسبوقا بالعدم الزماني

اعلم أن الحـــادث بعد ما لم يكن لا بد له من مـــرجح لاستحالة حدوث شيء لا عن سـبب ، وذلك المـرجح لا بد أن يكون حادثا كله أو شـيء من تمامه وإلا لـدام الـترجيح فدام الأثر ، فلم يكن حادثا ، وقد فرض حادثا ، هذا خلـف. ثم نعود الكلام إلى مـرجح المـرجح فإما أن يتسلسل علل حادثة مجتمعة لا إلى نهاية ، وهو باطل لما علمت أن الباري جل اسمه مبدأ سلسلة الممكنـات كلها ، وهو أزلي غير حادث ، أو يكون أسبابا متعاقبة كل منها سبب للاحقه ، وهذا هو المتعين عند جمهـور الفلاسـفة ، وهـذا لا يمكن تصحيحه إلا بـأن يكـون قبل كل حـادث أمـور نحو وجودها الحـــدوث والتجـــدد والانقضـــاء. ولا يكفي في ذلك نفس الحركة العرضية.

أما أولا ، فلأن الحركة أمر عقلي لا وجـــــــود لها في الخارج ، وما لا وجود له لا يصـير سـببا من أسـباب وجـود الشيء الحادث.

وأما ثانيا ، فلأن وجود الأعـراض بعد وجـود الجـواهر ، فـإذا كـان جـواهر ، العـالم ثابتة في ذاتها ، مسـتقرة في أنفسها فمن أين تحدث صـفة متجـدد بها يتخصص حـدوث حادث فـإذن لا بد أن يكـون من جملة الجـواهر الموجـودة جوهر سيال

متجـدد في ذاته ، نحو وجـوده الانقضـاء والتجـدد بحيث لا يتصور له في وجوده ثبات واستمرار ، ولا في عدمه ثبـات واسـتمرار ، إذ كل ما كـان عدمه ثابتا ، فوجـوده ممتنع ، وكلما لم يكن عدمه ثابتا ، فوجـــــوده ليس إلا وجـــــود الانقضاء والتجدد ، وذلك الجوهر لا يمكن أن يكون جـوهرا غير مادي ولا جسماني ، وإلا لم يكن فيه قوة استعدادية ، بل هو جــوهر مــادي فيه ضـرب من القــوة وضــرب من الفعل ، وما هو إلا الطبيعة الســارية في الأجســام ، فكل حادث بالذات أو بالعرض يستدعي أن يكـون قبله حـوادث غير متناهية إلى حد وبعده إيضا حوادث كـذلك لا يتصـرم ، وإلا ، عـاد الكلام عند انصـرامه ، وهـذه الحـوادث الغـير المنقطعة ولا المتصرمة لا يجوز أن يكون أمـورا متفاصـلة ، وإلا يلزم تتالي الآنات ، ويعود الكلام في بداية كل منها ، بل متصـلة واحـدة بوحـدة هي وحـدة الكـثرة ، وثبـات هو عين الـزوال ، واجتمـاع هو اجتمـاع المتفرقـات ، وما هـذا شأنه يجب أن يكون أمرا متجـدد الهوية والـذات ، وجـوده نفس الاتصــــال التجـــــددي ، وهي الحركة الفلكية عند الفلاسفة ، إذ لا يحتمل من الحركـات الـدوام إلا الوضـعية المسـتديرة ، وعنـدنا هي الطبيعة الجرمية الـتي يقع فيها لما أشـــرنا إليه من أن الحركة نفس مفهـــوم التغـــير ، ومعناها إضافي لا وجود له إلا في الذهن ، فلا يصـير سـببا للحــوادث ، بل المتجــدد بالــذات وما به التجــدد هو أمر متبدل الهوية في الخارج حادث الوجود بالذات.

فــــــإذن قد ثبت أن الطبيعة الجوهرية الفلكية حادثة الوجـود في كل حين ، وإنما الحـدوث نفس وجودها ، وما كـان الحـدوث نفس وجـوده لا يحتـاج في حدوثه إلى علة غـــير ذات فاعله الجاعل لأصل ماهيته ، لا في صـــيرورته حادثا ، لأن التــدرج في وجــوده من صــفاته اللازمة لذاته والصــفة الذاتية للشــيء لا يفتقر إلى جاعل ، والــذاتي لا يعلل.

فــإذن قد ثبت أن العــالم الجســماني لاشـتماله على الطبيعة الهيولانية حــادث بجميع ما فيه وما معه لا يتصــور له قرار في آنين ولا بقاء في زمانين ، ولا ينقطع أيضا إلى مبدإ جسماني ولا ينتهي كـذلك ، بل من الله ابتـداؤه وإلى الله انتهاؤه.

ومما يجب أن يعلم أن الحجة المـذكورة لا يلـزم منها وجود حوادث

غــير متناهية وجــوده ، إذ ما لا وجــود له بالفعل لا يوصف باللاتناهي كما لا يوصف بالتناهي أيضا ، وفــرق بين قولنا : هــذه الحــوادث ليس لها ابتــداء معين على ســبيل الحكم الســلبي ، وبين قولنا : إن الحـــوادث غـــير متناهية حكما إيجابيا عــدوليا ، إذ الأول لا يســتدعي وجــود الموضــوع المحكـوم عليه ، بخلاف الثـاني. فقـول من قـال : العـالم قديم ، والحـوادث فيه غـير متناهية ، قـول باطل ، إذ ما لا جمعية له من الأعـــداد لا يوصف باللاتنـــاهي أيضا ، ولا بالتنـاهي إلا مبلغ حاضر منه في قـوة مدركة جزئيـة. وفي الكتاب الإلهي آيـات كثـيرة دالة على دثـور العـالم وخرابه واضمحلال وجوده مع بقاء صورها العلمية عند الله القديم حسب ما رءاه كبراء ـ الحكمـاء وأسـاطينهم الأقـدمين ما خلا أصــحاب أرســطو ومن لحقهم إلى يومنا هــذا ، فــإن مسألة حـدوث العـالم مع إثبـات الصـانع وتوحيـده وتوحيد صــفاته إحــدى المســائل الشــريفة الــتي من الله علينا بتحقيقها وفضـلنا على كثـير من خلقه تفضـيلا ، وهي مما استفدناه من كتاب الله وسنة نبيه ، صلىاللهعليهوآله ، لا من الأفكـار البحثية ، (**الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي هَـدانا لِهـذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللهُ**).

أما الآيات فمنها قوله تعالى : (**بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْـقٍ جَدِيـدٍ**) وقوله : (**وَتَـرَى الْجِبـالَ تَحْسَـبُها جامِـدَةً وَهِيَ تَمُـرُّ مَـرَّ السَّـحابِ ، صُـنْعَ اللـهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُـلَّ شَيْءٍ**) فـإن إتقانها ببقـاء ذاتها في علمه تعـالى ، وحفظه إياها بتــوارد الأمثـال. وقوله : (**يَـوْمَ تُبَـدَّلُ الْأَرْضُ غَيْـرَ الْأَرْضِ وَالسَّــماواتُ**) فــإن لجميع الموجــودات الطبيعية حركة جوهرية ذاتية وتحولا من صـورة إلى صـورة ، حـتى يقع لها الرجوع إلى الله بعد صيرورتها غير نفســها بحسب الصـورة السـابقة ، وتحولها إلى نشـأة أخـرى ، ولو كـانت هذه الطبائع ثابتة الجوهرية مستمرة الهوية لم ينتقل هـذه الدار إلى دار الآخرة ، ولم يتبـدل الأرض غـير الأرض ، ولا الســماوات غــير الســماوات ، كما دلت عليه الآية ، ولم يــــرث الله الأرض ومن عليها ، ولم تصر الأرض مقبوضة يـوم القيامة والسـماوات مطويـات بيمينه ، كما في قوله تعـــالى : (**وَالْأَرْضُ جَمِيعــاً قَبْضَــتُهُ يَــوْمَ الْقِيامَــةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِـهِ**) ومنها قوله : (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَـعِقَ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**) دل على أن كل ما في الســماوات والأرض يفـنى ويـزول بنفخ الإسرافيل

في الصــور ، وينطــوي يــوم القيامة في يمين الــرحمن ، أعــني الجنة العالية تحت قهر الكبريــاء وســطوة عــالم الجـبروت. وإنما عـبر عن هـذا الفنـاء بالصـعق لا بـالموت ونحوه ، تنبيها على أن لها ضربا من الحياة عند الله لا عند أنفسـهم ، كمن صـار مغمى عليه ، فإنه زالت عنه الحيـاة الحسـية وبقي له ضـرب من الحيـاة في مقـام أعلى من بدنه وقوة حسه وحركته ، ولهذا قد يعـود ويسـري الحيـاة إلى أعضائه من ذلك المبدإ النفساني.

ومنها قوله تعالى : (**إِنْ يَشَـأْ يُـذْهِبْكُمْ وَيَـأْتِ بِخَلْـقٍ جَدِيــدٍ**) وقوله : (**وَما نَحْنُ بِمَسْـبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَـدِّلَ أَمْثـالَكُمْ وَنُنْشِـئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُـونَ**) وقوله : (**يَـوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً**).

والبعث من نشــأة طبيعية إلى نشــأة أخروية لا يمكن إلا بـانقلاب الجـوهر وتبـدل الـذات ، لأن النشـأتين الأولى والآخرة متخالفتان في النوع متباينتـان في نحو الوجــود لا في الأوصـــاف والأعـــراض ، وإلا لم يكن كل منها برأسه عالما تاما ، وقد علمت اسـتحالة تعـدد العـوالم بالعـدد مع اتحادها في النــوع ، فــإذن جــوهر الآخــرة نــوع آخر من الوجود مبـاين لجـوهر الـدنيا ، فـزوال جـوهر نشـأة الـدنيا دليل على حدوثها ، إذ ما ثبت قدمه امتنع عدمه. فإذا ثبت أن جميع ـ الموجـودات الطبيعية منبعثة إلى نشـأة أخـرى متوجهة إلى الدار الآخرة بالسـير الحـثيث والحركة الذاتية الجوهرية.

فثبت أن الـدنيا دار الانتقـال ومـنزل الارتحـال ومعـبر إلى دار القرار ومحل الأبرار. ومنها قوله تعالى : (**إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُـونَ**) ، وقوله تعـالى : (**يا أَيُّهَا الْإِنْسـانُ إِنَّكَ كـادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَـدْحاً فَمُلاقِيــهِ**) إشـارة إلى الانتقـال الفطـري للجـوهر الطـبيعي إلى الله ، ويسـتوي في هـذا التوجه الذاتي والحركة المعنوية المؤمن والكـافر والمطيع والعاصي ، إذ كلها مـأمور بهـذا الإتيـان والسـفر إلى الله والدار الآخرة ، وهذا التوجه الطـبيعي إلى الـدار الآخـرة لا ينــافي الشــقاوة والعــذاب ، إذ منشأ العــذاب أيضا تأكد الوجــود وفعلية الــذات وزوال الالتبــاس ورفع الغشــاوة وكشف الغطــاء وحــدة البصر كما في قوله : (**فَكَشَــفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَـوْمَ حَدِيـدٌ**) فـالنفوس الشـقية عند كشف الغطاء ينتبهون من نوم

الطبيعة ورقـدة الـدنيا فيطلعـون على نتـائج معاصـيهم وجهـالاتهم وخسـران نفوسـهم ، فيتـأذون ويتـألمون غاية الأذى والألم ، فيلحقهم الندامة والحسرة ، ويكـون حـالهم حـال من لسـعته العقـارب والحيـات عند سـكرة الشـديد والخدر ، فإذا زال عنه السكر وأفاق عن سـكره وخـدره ، أصبح متألما متأذيا غاية الألم والأذى ، كما سيأتي توضيحه في مباحث المعاد.

وبالجملة نشأة الآخـرة أشـرف من نشـأة الـدنيا ، مع أن عذاب الآخرة أشد وأقوى ، وأمر وأدهى ، لتأكد الوجود وشدة الإدراك وقوة الحس وحدة البصر.

ومنها قوله تعـالى : (**هُـوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَـرْشِ ...**) هـذه الأيـام ليست من أيـام الـدنيا الـتي يتم كل منها في دورة الشمس بحركة الفلك الأقصى ، بل من أيام الآخـرة وأيام الربوبية التي كل يوم منها مواز لألف سـنة من أيـام الدنيا المعدودة لقوله تعالى : (**وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**) فهذه الستة الأيام هي ستة آلاف سـنة من زمن آدم عليه‌السـلام مبـدأ خلق الكائنـات بحسب ما يعده أهل التواريخ ويضـبطه المنجمـون إلى بعثة الرسـول الخـاتم صـلى‌الله‌عليه‌وآله ونـزول القـرآن ، فالله سـبحانه أخـبر عن خلق المكونـات في هـذه المـدة ، وذلك لأن الحادث التـدريجي الوجـود زمـان حدوثه بعينه زمـان ثبوته واستمراره ، إذ لا بقاء له إلا الحدوث ـ التجددي.

فعلم بالبرهـان والقـرآن جميعا ، أن هـذا العـالم الجسماني بكله حـادث مسـبوق بالعـدم الزمـاني ولا بقـاء للجسم الطبيعي ، لأنه في ذاته لا يخلو عن الحدوث ، وما لا يخلو في ذاته عن الحدوث فهو حـادث الهوية ، تـدريجي الذات متغير ـ الكون ، لكن الحقـائق النوعية ثابتة الوجـود في علم الله فعلمه تعـالى بالأشـياء ثابتة غـير متغـير والمعلومـات متكـثرة متغـيرة ، كما أن قدرته أزلية والمقدورات حادثة ، كما قال الله : (**ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ**).

واعلم أن أيـام الإلهية غـير أيـام الربوبية لأن اليـوم الإلهي هو يوم ذي المعارج مدته توازي خمسين ألف سـنة ، كما قال : (**سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ**

لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ ، مِنَ اللهِ ذِي الْمَعارِجِ ، تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً) وقال مشيرا إلى يوم الربوبية (**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**) وذلك لأن وراء هذه النشأة الدنياوية نشأتان أخرويتان : إحداهما ، صورية حسية وهي المنقسمة إلى جنة محسوسة ونار محسوسة ، والأخرى ، معنوية وهي عالم الحضرة الإلهية ، مرجع الأرواح العقلية والأعيان الثابتة ، ففي كل ألف سنة يرتقي الصور الكونية الأرضية على التدريج إلى عالم النفوس السماوية المدبرة لأجرامها ، ثم في كل سبعة ألف سنة وهو أسبوع واحد من أيام الربوبية ينتقل جميع صور ما في السماوات وما في الأرض إلى عالم الآخرة ويقوم قيامة وسطى على النفوس بنفخة الفزع ، ثم في مدة خمسين ألف سنة وهي سبعة أسابيع التي كل منها سبعة آلاف سنة مع الكبائس والكسورات يقع الفناء الكلي للأرواح بنفخة الصعق وينتقل الأمر كله إلى الواحد القهار. وبيان ذلك : أن الله خلق الوجود ثلاثة : دنيا وبرزخا وأخرى ، فخلق الجسم عن الدنيا والنفس عن البرزخ والروح عن الآخرة ، وجعل الوسائط الناقلة لتنوعات عالم الإنسان ثلاثة ، ملك الموت ونفخة الفزع ونفخة الصعق ، فالموت للأجسام ونفخة الفزع للنفوس ونفخة الصعق للأرواح ، فإذا أراد الله تعالى نقل الأنفس من الدار البرزخ حين كمل اليوم البرزخي للآدمي وهو سبعة أيام من أيام الربوبية التي كل منها منسوب إلى إحدى الكواكب السيارة ، نقلت الأنفس من البرزخ بنفخة الفزع ويعاد إليها الأجسام الدنيوية ، قال الله تعالى : (**وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ**) وقوله : (**كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ**) إشارة إلى أن نفخة الفزع مختصة بنقل الأنفس إلى الأرواح ، وقوله : (**يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ**) إشارة إلى أن نشأة أخرى تكون بعد صعق الأرواح ، حين يقول سبحانه : (**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ...**) فلا يجيبه أحد ويجيب نفسه لنفسه فيقول : (**لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ**).

وهـذا الصـعق هو نهاية الأجل المسـمى عنـده وهو الأجل الروحاني الـذي بـدؤه قبل الأجسـام بـألفي عـام ، ونهايته هذا الصـعق المشـار إليه ، ثم يجيء هـذا الصـعق بالنفخة الثانية بمزيد اقتضـــاء التجلي الأكمل في المظهر الأعظم للأســـــــماء الإلهية الباطنية الـــــــتي نبه عليها بقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله «فأحمــده بمحامد لا أعرفه الآن». فعن التجلي الأعظم ، ظهر المظهر الأعظم ، ومن المظهر الأعظم ظهـرت الأسـماء الباطنة ، وعن ظهـور الأسـماء الباطنة اتسع العـرش ولاتسـاع العـرش تضـاعفت الحملة فصارت ثمانية ، لقوله : (**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ (فَـوْقَهُمْ) يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ**) وعن تضاعفها بدلت السـماء غـير السـماء والأرض غــير الأرض لقوله : (**وَأَشْــرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُــورِ رَبِّها**) فتوسـعت دائـرة دار الآخـرة ، وعن توسـيعها أنشئ الإنســان إنشــاء الآخــرة الروحانية ، فكــانت الــروح هي المشـهودة المباشـرة للأحكـام والمـؤثرة للآثـار ، والنفس والجسم من لوازمها وآثارها ، والإمدادات من الله صـارت متصـلة بهما بواسـطة الـروح ، ودخل المـؤمن الجنة على الخلق القـوي وعلى أحسن تقـويم ، فهـذا ما جـرى على لســان القلم ، وإن لم يكن مناســبا لطــور أهل البحث عصمنا الله عن جحود المنكرين وعنـاد المسـتكبرين والله الهــادي إلى ســبيل أهل اليقين وبه الاســتعاذة من شر الشياطين وجنود إبليس أجمعين.

حكمة إيمانية وحجة قرآنية

الكتب الإلهية والآيات الكلامية قائلة بأن العالم بأسره حادث زماني ، لأن الغرض من خلق العالم ليس نفسه بل هو أشرف منه ، فإن الطبائع الجسمانية وما في حكمها لا يمكن أن يكـــون هي الغاية الأقصى في الوجــــود ، بل البرهان الحكمي ناهض على أن للطبائع غايات أخـرى هي أعلى منها ، وكلما هو أعلى من الطبيعة الكونية لا يكـــون وجوده في هذا العـالم بل في عـالم آخـر. فثبت بالبرهـان أن هـذا العـالم بأسـره واقع تحت الفسـاد ويلحقه العـدم والانقــراض ، وما يلحقه العــدم والانقــراض فهو حــادث زماني لا محالة ، فالعالم

وكل ما فيه حــادث زمــاني ، والغــرض الأقصى من خلق السماوات وإدارة الأفلاك وتسيير الكواكب وجريان الأمور على وفق القضاء الإلهي والقدر الرباني بتبليغ الأشياء إلى غاياتها الذاتية وخيراتها الأصلية ، وإزالة شرورها ونقائصـها عنها ، ليكـون العـالم كله خـيرا محضا لا شر فيه ونـورا لا ظلمة فيه وتماما لا نقص فيه (**وَيَكُـونَ الـدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**) ، إذ لا شك أن الــدنيا طافحة بالشــرور والآفــات مشـحونة بـالمحن والآلام ، والنقـائص والأعـدام (**يَأْبَى اللـهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ**).

فـالغرض من أصل الإبـداع وجـود البـاري وفيضه أن يصل كل نـاقص إلى كماله ، وتبلغ المـادة إلى صــورتها ، والصـــورة إلى معناها ونفســـها ، وأن تلحق النفس إلى درجة العقل ومقـــام الـــروح ، وهنـــاك الراحة المطلقة والطمأنينة التامة والسعادة القصوى والخير الأعلى والنور الأتم ، وهذا هو المقصد الأقصى واللباب الأصفى في بنـاء الأرض والسماء وجرى سفينة الهيولى في الطوفان الـدنيا ، ولأجله مجيء الأنبيـــاء والرسل من ملكـــوت الســـماء بالوحي والأنباء والكتاب والـدعاء ، لـيزول الشر وينقـرض الظلمة وأهلها ويعـود الكائنـات إلى ما بـدئ منه ، فيصـير لاحقا به فيتم الحكمة وتصـــــعد الكلمة وتكمل الخلقة ، وتزول الدنيا وتقوم القيامة وتجيء السـاعة وينمحق الشر وأهله ، وينقــرض الكفر وحزبه ، (**لِيُحِـقَّ الْحَـقَّ وَيُبْطِـلَ الْباطِـلَ**). فاحفظ يا حبيـبي بهـذا العلم المخـزون والسر المكنون الذي (**لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**).

فمن الآيات الدالة على دثور العـالم وزواله وانقطاعه قوله تعـــالى : (**إِذَا السَّـــماءُ انْشَـــقَّتْ ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ ، وَإِذَا الْأَرْضُ مُــــدَّتْ وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ ...**) فانشقاق السماء لخروج روحها ونفسها عن مضيق هـذه النشـأة الناقصة اسـتماعا وإجابة لداعي الحق. ليصير متحققة بالوجود الحقاني بعد المــوت عن الوجـود الطـبيعي والنفسـاني ، والمعـنى ، أنها فعلت في انقيادها لله حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المطـــاع ، أنصت له وأذعن ولم يـــأب ولم يمتنع ، كقوله تعـــالى : (**أَتَيْنا طـــائِعِينَ**) ومد الأرض انبساطها وزوال كل اعوجاج وامتتاء وعقد و

تضاريس كالجبال الرواسي والأشجار وسائر المركبات ، وإلقاء ما فيها من الجثث والموتى والقشور بنزع صفوها الخالص من عكرها ، فالقشر يرمى واللب يرقى ، وعند ذلك لم يبق منها عين ولا أثر إذ لحق الخير بالخير ، ورجع الشر إلى البوار. وقوله : (**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ...**) هذه كلها إشارة إلى تبدل النشأة الطبيعة لجواهر هذا العالم إلى النشأة الأخروية ، وخروج الأرواح من هذه الأجسام العظام إلى ما عند الله وقيامها وحشرها إلى مبدئها الأعلى. فتكوير الشمس اندراس طبيعتها ونفاد قوتها الجسمانية ، لأن تلك القوة متناهية وجودا وتأثيرا ، فلا بد من انقطاعها ، فإذا انصرمت القوة المحركة للجسم ، بطلت صورته وزالت حياته الحسية وبعثت إلى الدار الآخرة. وكذا انكدار النجوم دلالة على انطماس طبيعتها بخروج روحها إلى الآخرة عند انقطاع آجالها الطبيعية ، فإن بطلان اللازم وتبدله ، لازم لبطلان الملزوم وتبدله ، فانكدار النجوم كناية عن زوال نشأتها ، وتسيير الجبال ، تجديد صورتها بالحركة الجوهرية وتبدلها في كل آن ، وتسجير البحار ، إحالتها إلى النار الأخروية ، وتزويج النفوس أنما يكون بالعقول إذا كانت من الكاملين المقربين عند استكمالها وخروجها من القوة الروحانية إلى الفعل ، أو بصور حور العين إن كانت من أصحاب اليمين.

وأما النفوس الشقية ، فتزويجها يكون بالشياطين ، أو بالأبدان الحيوانية المناسبة لأخلاقهم وملكاتهم البهيمية والسبعية كما في قوله : (**فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا**) وقوله : (**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**) وقوله : (**وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ**) وقوله : (**يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**) وقوله : (**إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ**) كلمة إذا ، يراد بها وقت قيام القيامة. وحينئذ يكون الأجسام الطبيعية مدروسة ، وصورتها مطموسة ، وبواطنها مكشوفة ، وأرواحها قائمة ، كما أن اليوم بعكس ذلك فإن الأجسام هاهنا مشهودة بارزة والأرواح كامنة مستورة ،

والأجسام محسوسة بالفعل والأرواح موجودة بالقوة.

وبالجملة هذه الـدار دار الحـرث والزراعة والسـعي ، والآخـرة دار حصد الثمـار والوصـول إلى نتـائج الأعمـال والأفكار وتولد مواليد الأرواح عن بطون أمهـات الأشـباح.
قوله : (**وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِـرَتْ ، وَإِذَا السَّـماءُ كُشِـطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُـعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ، عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ**).

تنبيه

قوله : (**عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَـــدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ**) كل ذلك إشـارة إلى فنـاء الـدنيا وانقطـاع نشـأتها وبـروز مكامنها وخروج هويات ما فيها إلى النشأة الآخرة.

قاعدة

خلق العالم الكبـير وبعثه كخلق العـالم الصـغير وبعثه (**ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِــــدَةٍ**) ولكل منها جسم وروح ، فــالخلق للجسم والبعث للـــروح ، فكما أن أعضــاء البــدن وأجــزاء الشــخص متبدلة مســتحيلة كائنة فاســدة وروحه باقية ، إلا أنها في أوائل النشــأة ضــعيفة الوجود بالقوة شـبيهة بالعـدم ، ثم يخـرج في أيـام الحيـاة البدنية من القوة إلى الفعل ويشتد وجود الروح ويستكمل ويقوى على التدريج ويخرج من القوة إلى الفعل ويضـعف البدن ويهرم ويكل القـوى والآلات شـيئا فشـيئا ، لأن كلها جسمانية شأنها الاستحالة والسيلان والـدثور ، وهكـذا إلى أن يفني البدن ويموت (**كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَـوْتِ**) ويبقى الـــــــــروح راجعة إلى ربها (**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِــــيَةً مَرْضِــــيَّةً**) وإنما وصـــــفها بالاطمئنـــــان وهو الســــكون العقلي لأن النفس قبل صــيرورتها عقلا بالفعل شــأنها التغيــير والانقلاب ، فــإذا صارت مطمئنة عقلية رجعت إلى بارئها (**راضِيَةً مَرْضِيَّةً**) ، فكذلك جملة العالم ، فإن السماوات والأرض وما بينهما ، أبدا في الانتقـال والتبـدل من حـال إلى حـال ومن نقص إلى كمال ،

وخروج ما فيها من النفوس والأرواح من القوة إلى الفعل على التدريج في مـدة عمر طـبيعي للعـالم ، ودورة كاملة لأجرامها الدوارة في مدة خمسين ألف سنة ، فـيرجع في تلك المدة جميع تلك النسب والأوضاع إلى ما كـانت أولا ، لقوله تعـالى : (**وَالسَّـماءِ ذاتِ الرَّجْـعِ**) ، وقوله تعـالى : (**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالـرُّوحُ إِلَيْـهِ فِي يَـوْمٍ كـانَ مِقْـدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَـنَةٍ**) فـإذا انقضت المـدة وتمت العـدة ، برزت إلى عالم الآخرة حقيقة الدنيا ، وخـرجت من القـوة إلى الفعل جميع ما هو مكنون في قبور الأجسام ومخزون في صدور النفـوس وخـزائن الأرواح (**يَوْمَ يَقُـومُ الـرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُـونَ ، إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَـهُ الـرَّحْمنُ وَقـالَ صَـواباً**) وكما أن الشـخص الآدمي إذا عــرض له المـوت وخـرجت روحه من البـدن قـامت قيامته ، لقوله صـلىاللهعليهوآله : «من مـات فقد قـامت قيامتـه» وعند ذلك انفطرت سماؤه التي هي أم دماغه ، وانتثرت كواكبه الــتي هي قــواه المدركة ، وانكــدرت نجومه الــتي هي حواسه ، وكورت شمسه التي هي قلبه ومنبع أنـوار قـواه وحرارته الغريزية وتزلـزلت أرضه الـتي هي بدنه ، ودكت جباله التي هي عظامه ، وحشرت وحوشه التي هي قــواه المحركة سيما الغضبية ، فكذا قياس موت الإنسان الكبير أعني جملة العالم الجسماني الذي هو عند الحكماء حيوان مطيع لله تعالى متحـرك بـالإرادة والجبلة ، وله بـدن واحد هو جـــرم الكل وطبع واحد ســـار في الجميع وهو طبيعة الكل ، ونفس واحـدة كلية مشـتملة على جميع النفـوس ، وروح كلي مشـــتمل على جميع العقـــول وهو العـــرش المعنــوي يســتوي عليه الــرحمن فبــدن العــالم وطبيعته هالكتـــان داثرتـــان ، وأما نفسه وروحه الكليتـــان. فهما محشـورتان إلى الـدار الآخـرة راجعتـان إلى الله قائمتـان عنده.

المشهد الثاني

في تحقيق الانقــراض والنهاية وإثبــات الغاية كالبداية للدنيا وما فيها ، وبروز الكل إلى الله وخروجها من مكامن هوياتها عند انكشـاف أسـتارها ، وارتفـاع حجبها وبقـاء ما عند الله في علم الله من الحقــائق المتأصــلة والأســماء الإلهية والأضواء القيومية.

يجب عليك أن تعلم أولا ، أن كل هوية عينية ســـــواء كــانت واجبة أو ممكنة ، لا بد لها من لــوازم عقلية تابعة لذاته من غــير جعل وتــأثير ، وأقلها الشــيئية والمعلومية والموجودية والإمكــان العــام وغــير ذلك ، ســيما الهوية الإلهية التي هي أصل الهويات ومنبع الإنيـات والماهيـات ، فإذا الذات الإلهية لها أشـعة وأنـوار عقلية ولـوازم وآثـار ، كيف والوجود كله من شروق نوره وآيـات ظهـوره ، وتلك الأشعة والأنوار سماها جمهور الفلاسفة بالعقول الفعالة ، والمشــاءون أتبــاع أرســطو ســموها بالصــور العلمية ، وأفلاطونيون بالمثل النورية ، والصوفية بالأسـماء الإلهية ، وجمهـور المتكلمين ذهبـوا بالصـفات الزائـدة ، والمعتزلة قـالوا بـالأحوال كما قـالوا بثبـوت المعـدومات الخارجية ، وتلك الأشعة الإلهية كيف يفارق أصـلها ومنبعها ، أو يكـون أشياء مباينة الوجود مستقلة الـذوات ، وإلا لم تكن أشـعة فهي ليست من جملة العـالم ومما سـوى الله ، وإنما هي الدرجات الإلهية والحجب النورية والسـرادقات القدسـية ، باقية ببقـاء الله لا بإبقائه ، موجـودة بوجـود الله لا بوجـود أنفســهم ولا بإيجــاده ، إذ لا جعل ولا تــأثير بين الــذات والشئون الإلهية.

فمن الآيـــات الدالة على فنـــاء الكل ورجوعها إلى الواحد القيـــوم بحركتها المعنوية وتـــولى وجهها إلى وجه الحق قوله : (**مَتــاعَ الْحَيــاةِ الــدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَـرْجِعُكُمْ**) وقوله : (**هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْـلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللـهِ مَـوْلاهُمُ الْحَـقِّ وَضَـلَّ عَنْهُمْ ما كـانُوا يَفْتَـرُونَ**) وقوله : (**قُـلِ اللــهُ يَبْـدَؤُا الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيــدُهُ ، فَـأَنَّى تُؤْفَكُونَ**) وقوله (**لِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَـلٌ ، فَـإِذا جـاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْـتَأْخِرُونَ سـاعَةً وَلا يَسْـتَقْدِمُونَ**) وذلك لأن نســبة القيامة الكبرى وهي فناء جميع الخلائق وقيامها عند الله ، إلى القيامة الصـغرى وهو مـوت كل أحد كنسـبة الـولادة الكبرى أعـني خـروج الأرواح عن بطن الـدنيا إلى الـولادة الصغرى وهي خروج الجـنين عن بطن أمـه. فكما أن لكل نفس أجل مســمى ولادة وموتا ، كــذلك لكل أمة وطائفة بل لجميع الخلائق ميعاد وأجل معلـوم عند اللـه. وإنما قلنا : معلــوم عند الله ، لأن فهم النـاس لا يبلغ إلى درك هــذا الأجل والموعد إلا العرفاء الشـامخون والأوليـاء الكـاملون عند تجردهم عن الدنيا ، ولو أمكن تعليم ذلك لهم لما وقع في الجــواب عند سـؤالهم عن وقت قيـام السـاعة (**قُـلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي**) والذي يبلغ فهمهم دركه هو سـاعة موت الإنسان الصغير لا ساعة موت الإنسان الكبير يعــني القيامة الكـــبرى. وقوله : (**إِنَّا نَحْنُ نَــرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُــونَ**) وهــذه الوراثة والرجـــوع أنما يتحققان إذا صارت الأرض غير الأرض بأن تصير أرضا حية بيضاء منيرة مشرقة عقلية ، كما في قوله : (**يَـوْمَ تُبَـدَّلُ الْأَرْضُ غَيْـرَ الْأَرْضِ**) وقوله : (**وَأَشْـرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُـورِ رَبِّها**) وإلا فما دامت كثيفة مظلمة ميتة فهي بعيــــــــدة المناسبة عن الحضرة الإلهيـة. وقوله : (**إِنْ كُـلُّ مَنْ فِي السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الــرَّحْمنِ عَبْــداً ، لَقَــدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَـرْداً**) أي مجــردا عن الأجســام وعوارضــها المادية وأوضــاعها الحســية ، بل عن إنيـــاتهم وهويـــاتهم المغـــايرة للحق لاستغراقهم في بحر الطبيعة وانغمـارهم في الـدنيا. وذلك التجـــرد أنما يحصل بالفنـــاء عن هـــذه النشـــأة الطبيعية والحشر إلى الله والبعث في القيامــــــــــــــة. وقوله : (**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبـالِ فَقُـلْ يَنْسِـفُها رَبِّي نَسْـفاً ، فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَـفاً لا تَـرى فِيها عِوَجـاً وَلا أَمْتـاً**) وقوله : (**يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**

كَما بَــدَأْنا أَوَّلَ خَلْــقٍ نُعِيــدُهُ وَعْــداً عَلَيْنا ، إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ).

قد مر سابقا أن هذه الأجسـام الطبيعية منشـورة في الـدنيا مطوية في الآخـرة ، والأرواح بعكس ذلك ، ولهـذا الكلام معنيان.

أحـدهما ، بحسب المقايسة والنسـبة ، يعـني أن هـذه الأجسـام وإن كـانت بالفعل هاهنا ، لكنها لقصـور وجودها وحقارتها بالقيـاس إلى موجـودات عـالم الآخـرة مقهـورة مدروسة ، وكذا الأرواح وإن كـانت موجـودة بالفعل هنـاك فهي بالقيـــاس إلى مشـــاعر هـــذه الأدنى ، لقصــــورها واحتجابها يغيب عنها تلك الموجودات الجلية الباهرة.

وثانيهما ، أن هــذه الأجســام تســتحيل وتتقلب في حركاتها الذاتية واســــتحالاتها الجوهرية إلى أن تصــــير منطوية في صورة عقلية صــائرا كل منها روحا محضا كما في الابتــداء كــانت أرواحا نازلة إلى منــازل الأجســام ، فــافهم. وقوله : (**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ...**) ففيه استدلال على وقوع النشأة الآخرة بتطـورات الإنسـان في أطوارها الوجودية على نحو التوجه إلى الكمــال شــيئا فشــيئا ، فلا بد لهــذه الحركة الرجوعية في القــوس العروجي من غاية أخيرة يقف لديها ويقـوم عنـدها ، وتلك الغاية لا يمكن أن يكــون من الأكــوان الخلقية الطبيعية ، وإلا لاحتــاجت إلى غاية أخــرى فيتسلسل أو يــدور وهما محـالان ، فهي أمر أخـرى وكـون تـام خـارج عن سلسـلة ذوي الغايـات من الأكـوان الناقصـة. قوله : (**وَهُـوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**) وقوله : (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ**).

واعلم أن هـذه الحجج القرآنية كما يجـري في إثبـات النشـأة الآخـرة للإنسـان كـذلك يجـري في إثباتها لجملة العالم وهو الإنسان الكبير ، لأن العلة مشـتركة وهو لـزوم الحكمة وترتب الغاية وبطلان العبث والجزاف ، فـإن هـذه الحسبان المذكور في قوله : (**أَفَحَسِـبْتُمْ أَنَّما خَلَقْنـاكُمْ عَبَثاً**) منشؤه غطاء على البصـيرة يـورث الجهل بـأن لكل خلق فائــدة وحكمة ، ولكل طبيعة كونية غاية ذاتية ، وأن لكل أجل كتابا ، ولو لم يكن للطبائع الكونية غايات

حقيقية ينتهي إليها وتســكن ، لكــان معوقا عن خيراتها ، ممنوعا عن كمالاتها ، فيكـــــون وجودها عبثا معطلا ، ولا عبث ولا معطل في الوجـود كما بـرهن عليه ، إذ لم يخلق هـذه الخلائق مجازفة ، بل عن علم وتـدبير لفاعل مـدبر عليم وصانع حكيم ، ومنع الكمال عن مستحقه قصـور في الوجـود ونقص في الإعطـاء للوجـود ، وهو ينـافي الرحمة الواســعة والجــود الأعم الأتم. فعلم أن لكل نقص كمــالا ولكل قوة فعلا ، وهكذا إلى أن يزول النقائص ، ويصل كل مخلوق إلى أقصى كماله الذي ليس له زوال ولا انقطاع ، ويستقر عند ذلك صافيا لبه عن كل دنس وقشـر. والعـالم الذي فيه لباب الأشياء من غير كـدر ، عـالم آخر غـير هـذا العالم ، إليه رجعى الطاهرات الزاكيات من نفوسنا ، وفيه مأوى القادسـات الطيبـات من عقولنا ، وقوله في النـور : (**وَلِلَّهِ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللـهِ الْمَصِـيرُ**) وقوله في النمل (**وَيَـوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّـورِ فَفَـزِعَ مَنْ فِي السَّــماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شـاءَ اللـهُ**) وهم الذين سبقت لهم هذه القيامة (**وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ**). وقد سبقت الإشـارة إلى أن القيامة قيامتـان : قيامة على النفــوس بنفخة الفــزع ، وبها يقع النقل من الصــور إلى عالم العقـول ، وقيامة على العقـول بنفخة الصـعق ، وبها يقع الفنــاء التــام وينتقل الأمر إلى الواحد القهــار. وفي العنكبوت (**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ إِنَّ ذلِـكَ عَلَى اللـهِ يَسِـيرٌ**) وقوله : (**قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْـفَ بَـدَأَ الْخَلْـقَ ثُمَّ اللـهُ يُنْشِـئُ النَّشْأَةَ الْآخِـرَةَ**) أي بعد انخلاعه عن كسـوة هـذا الكـون الطبيعي وتحققه بالوجود الأخروي البـاقي بإبقـاء الله ، ثم عن لبــاس الإنانية الأخروية وتحققه بــالوجود الحقــاني الباقي ببقاء الله ، وقوله : (**يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَـرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ**) وقوله : (**كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ**) مـوت البـدن الـذي هو مقـام وجودها الطـبيعي (**ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ**) بعد فنائها عن الوجودين الطبيعي والنفســاني ، وانسلاخها عن الكـونين الـدنيا والآخـرة عند قيامها بوجـود الحق. وقوله : (**وَما هذِهِ الْحَياةُ الـدُّنْيا إِلَّا لَهْـوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**).

فـإن من اكتحل عين بصـيرته بنـور العرفـان ، وتنـور بيت قلبه بسواطع

آيات القـرآن ، يجد أعيـان العـالم وصـور الكائنـات متبدلة وتعيناتها متزايلة مترادفة خلقا بعد خلق ، سيالة طورا بعد طـور إلى طريق الآخـرة ، ولهـذا سـمى الله تعـالى هـذا الكون الـدنياوي لهـوا ولعبا ، لأن أكوانها متبدلة كالحركة ، والمتحرك بما هو متحرك شأنه التأدي إلى أمر آخر ، فـإذا نظر إليه مع قطع النظر عما يئـول إليه كـان لهـوا وعبثا بـاطلا. وأما الـدار الآخـرة فلكـون وجودها ووجـود ما فيها وجودا علميا وصورة إدراكية بالفعل ، وكل صـورة إدراكية بالفعل وجودها عين الحيـاة ، فلا محالة كلما في الآخـرة حيوان محض ، حياته عين ذاته ، ليست كأبدان هذا العـالم الـتي حياتها عارضة لها واردة عليها من خـارج ، فهي لا محالة ميتة في ذاتها تقبل صـفة الحيـاة من الأرواح النفسانية المتعلقة بها.

وأما أجسـاد الآخـرة وأشـكالها فهي بعينها النفـوس المتصورة بتلك الصور بحسب ملكاتها وأخلاقها المكتسـبة ، فالجسد والنفس هنـاك شـيء واحد كما يتضح لك في عـالم المعـاد وحشر الأجسـاد إن شـاء اللـه. وقوله في الروم : (**مَا خَلَقَ اللـهُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِـالْحَقِّ**) أي بما عند الله من حقائقها العلمية وصـورها العقلية ، كما أثبتها الأقدمون من الحكماء كـأفلاطون ومن قبله ، وأجل مسمى أي بحسب وجودها الطبيعي الكوني ، لما علمت مرارا أن هذا الوجود زماني متدرج في الكون ، والتـدرج في الكـون لغاية طبيعية لا محالة ، فينقطع بالضرورة لـدى الغاية ، وتلك الغاية إن كـانت من الأكـوان الخلقية فيعود الكلام إلى غايتها أيضا ، فأما أن يكـون لكل غاية غاية ذاتية إلى ما لا نهاية ، ففي ذلك إبطال للغاية إذا كان الكل أوساطا وإثبـات للعبث والجـزاف في خلق هـذا العـالم ، أو ينتهي إلى غاية خارجة عن هـذه الأكـوان الخلقية ، وهو المطلوب.

فغاية الأكـوان الخلقية أكـوان عقلية ينتهي الأمر إليه وقوله : (**اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُـونَ**) أي يوجـدهم في عـالم الخلق والتقـدير والمسـاحة. وإنما أتى بصـيغة المضـارع ، لما علمت أن وجـود كل خلق مسبوق بعدم زماني ثم يعيـدهم إلى عـالم الآخـرة ثم إليه ترجعون بفناء

الكل والصـعقة الكليـة. قوله : (**وَمِنْ آياتِـهِ أَنْ تَقُـومَ السَّـــماءُ وَالْأَرْضُ بِـــأَمْرِهِ**) لأن قوامها بمباديها العقلية وصـورها القضـائية الإلهية كما ذهب إليه أفلاطـون ومن قبله ، ثم إذا دعـاكم دعـوة من الأرض بانقطـاع الآجـال وانقضـاء الأحـوال ونفـاد القـوى الجسـمانية ، إذ أنتم تخرجـون من المحـابس الكونية والمقـابر الطبيعية إلى فضـاء الآخـرة وأرض المحشـر. وقوله تأكيـدا لما سـبق وتقريـرا : (**وَهُـوَ الَّذِي يَبْـدَؤُا الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ**) في سلسلة البدو والرجوع ، (**وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْـهِ**) لأن الرجـوع إلى الفطرة الأصلية أنسب من الخـروج عنهـا. وقوله في لقمـان : (**وَسَـخَّرَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ ، كُـلٌّ يَجْـرِي إِلى أَجَـلٍ مُسَـمًّى**) كما في سـورة الملائكة تأكيـدا وتقريـرا (**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَـلٍ مُسَـمًّى**) أي مقدر معلوم عند الله ، ولغاية محدودة. والنكتة في أن قال في لقمان (**إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى**) وفي الملائكة (**لِأَجَـلٍ مُسَمًّى**) ، أن الغاية كما حقق في مباحث العلة والمعلول لها اعتباران : اعتبار أنها ما ينتهي إليه الفعل ، واعتبار أنها ما لأجله الفعل ، فبالاعتبـــار الأول يقع التعـــدي بـــإلى ، وبالاعتبار الثاني يقع بـاللام ، وذلك لأن القـوى العمالة في تلك الأجرام العالية قوى جسمانية متناهية الوجود والتـأثير ، فلا بد من وقوفها واندراســـها وانتهائها إلى غاية عقلية يتصل بها وينقلب إليها.

وبيـــان ذلك بوجه آخر عقلي ، أن محـــرك الأفلاك ومجـرى الكـواكب فاعل حكيم وقـادر عليم هو أرفع من الطبيعة ، مختـار في صـنعه وقدرته ، وكل فاعل كـذلك لا بد أن يكون لفعله غرض عقلي وفائدة حكمية تترتب عليه والغـــرض إن لم يحصل وقتا من الأوقـــات ولم يكن مما ينتهي إليه الفعل فلم يكن غرضا صـحيحا ، ومحـرك هـذه الأجـرام العالية يمتنع أن يكـون تحريكه إياها عبثا وجزافا ، كما قـال : (**وَما خَلَقْنَا السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ**) فـإذن لا بد أن يكـون خلق الأفلاك وتحريكها إلى غـــرض واجب البلـــوغ إليه ، وإذا بلغ الفاعل بفعله غرضه فســبيله لا محالة أن يمسك عن فعله ، فمحـــرك الأفلاك ومجـرى الكـواكب سـبيله أن يمسك عن تحريكها وإدارتها ويقطع الفعل والعمل ، فـــــإذا أمسك عن فعله وعمله وقفت الأفلاك عن الدوران و

الكواكب عن الجريان ، وقد علمت أن الحركة ذاتية لهـذه الطبائع الكونية ، فإذا سكنت بطلت وبطل ترتيب الزمـان ، ووقف الكـون والفسـاد ، وانقطع الحـرث والنسل ، وانتقل الأمر إلى النشـأة الآخـرة ، كما مر من قوله : (**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**) في الحركة الرجوعية للموجـودات المتعلقة بـالمواد في يوم من أيام الربوبية (**مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ**) و (**هذا يَوْمُ الْفَصْلِ**) وأما يـوم عـروج الكل ورجـوعهم إلى الله في القيامة الكـبرى وهو (**يَوْمَ الْجَمْعِ**) ويـوم ذي المعـارج ، فمقداره كما قال الله تعالى : (**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**) وقوله في الزمر : (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ**) أي صـور الأشـياء في عالم القضاء الحتمي (**فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ**). وقد مر بيانه.

وفي الحـديث عن النـبي ، صـلىاللهعليهوآله : «إنه يموت أهل الأرض حتى لا يبقى أحد ، ويموت أهل السماء حتى لا يبقى أحد إلا ملك المـوت وحملة العـرش وجبرئيل وميكائيل ...» قال : «فيجيء ملك الموت حتى يقـوم بين يدي الله عزوجل ويقـال له : من بقي ، وهو أعلم بـذلك ، فيقـول لم يبق إلا ملك المـوت وحملة العـرش وجبرئيل وميكائيل ، فيقـال : فليموتا جبرئيل وميكائيل ، فيقـول الملائكة : وهما رسـولاك وأمينـاك ، فيقـول : إني قضـيت على كل نفس فيها الروح الموت ، ثم يجيء ملك المـوت حتى يقف بين يـدي الله عزوجل ، فيقـال له من بقي وهو أعلم بذلك ، فيقول لم يبق إلا ملك الموت وحملة العرش ، فيقـول ، قل لحملة العـرش فليموتـوا ، قـال : ثم يجيء ملك المـوت كئيبا حزينا لا يرفع طرفه ، فيقـال : من بقي فيقـول لم يبق إلا ملك المـوت ، فيقـال له : مت يا ملك الموت ، ثم يأخذ الأرض بيمينه والسماوات بيمينه ، ويقول أين الـذين كـانوا يـدعون معي شـريكا ، أين الـذين كـانوا يجعلون معي إلها ، (**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى ، فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ**) ...» لتحققهم بالوجود الأخروي الباقي بـدلا عن الوجود الـدنيوي الـداثر وبـالوجود التـام الحقـاني بـدلا عن الوجود الناقص الإمكاني. قوله في حمعسق : (**اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**) وفي الزخـرف (**وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ**) وفي ق : (**وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ**

مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ ، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ). وذلك اليوم ليس من أيام الدنيا ، بل من أيام الآخرة. وكذا في قوله : (**يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً**). وكذا قوله : (**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ**) ... (**لا رَيْبَ فِيهِ**) لأن يوم الدنيا يوم التفرقة في الوجود ، ويوم الشك. وكذا قوله : (**فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ**) لأن وقوع الأشياء فيه على الحق واليقين. وقوله : (**وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ**) لأن وجود الأشياء الطبيعية من حيث صورها المادية الوضعية مضمحلة مدروسة هناك كاضمحلال الظل عند النور وذوبان الثلج والجمد عند الحرور.

فهذه الآيات وأمثالها من الآيات الكثيرة التي تركنا ذكرها مخافة التطويل ، مشيرة إلي رجوع هذه الأشياء كلها إلى عالم الآخرة ، ورجوع أهل الآخرة كلهم إلى الحق الأول تعالى. وإلى زوال هذا العالم بكله ودثور ما فيها من الصور الحسيه وفنائها يوم القيامة ومحو آثارها وتبدل وجودها يوم بروز مكامنها وظهور حقائقها وكشف بواطنها ونشر صحائف نفوسها وكتب أعمالها على رءوس الجمع ، وذلك بعد خروجها من مقابرها ، وهي مقابر أكوانها التدريجية ومدة حركاتها الاستكمالية في دار الدنيا التي هي مقبرة ما في علم الله الكائن في صقع الربوبية قبل الورود في مقابر الدنيا وبعد الخروج عنها عند انقضاء مدة مكثها الدنيوي.

تنبيه

إن لكل من الروح والجسد والقلب والقالب قبرا حقيقيا. أما قبور القوالب والأجساد فهي مقادير أكوانها التدريجية ، وأما قبور القلوب والأرواح فإلى مأوى النفوس ومرجع الأرواح البشرية ، وهي سدرة المنتهى قبل ظهور القيامة الكبرى فالله سبحانه أبدع بقدرته الكاملة دائرة العرش وجعلها مأوى القلوب والأرواح ، وأنشأ بحكمته البالغة نقطة الفرش وجعلها مسكن القوالب والأجساد ، ثم أمر بمقتضى قضائه الأزلي للأرواح والقلوب

العرشية إن تعلقت بالقوالب والأبدان الفرشية شطرا من الأزمنة والأوقات ، فإذا بلغ أجل الله الذي هو آت ، وقرب الممات للملاقاة والحياة ، رجعت الأرواح إلى رب الأرواح قائلين : (**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ**) وعادت الأشباح إلى التراب الرميم : (**مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ**).

وأما الأرواح الكدرة الظلمانية المنكوسة ، والنفوس الشقية التي «كفرت (**بِأَنْعُمِ اللهِ**) فهي أيضا قصدت من حضيض الفرش إلى ذرى العرش ، لكن مع أثقالها وأوزارها بأجنحة مقصوصة وقلوب مقبوضة وأيدي مغلولة بحبائل التعلقات وأرجل مقيدة بقيود الشهوات ، (**وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ**) فصاروا منكوسين معلقين بين العرش والفرش ، (**وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**).

تنبيه آخر

في موت الإنسان الكبير أعني العالم.

اعلم أن العالم مشتمل على الخلق والأمر ، والخلق كله هو قالب العالم والأمر كله هو روح العالم ثم قوام الخلق بالأمر كما أن قوام القالب بالقلب فالتعانق بين الأمر والخلق هو حياة الإنسان الكبير والعالم ، كما أن التعانق بين الروح والجسد هو حياة الإنسان الصغير وكذا التفارق بينهما هو موت العالم الكبير والقيامة الكبرى ، كما أن الافتراق بين الروح والجسد هو موت هذا الإنسان والعالم الصغير والقيامة الصغرى ، والله خالق الموت والحياة ، كما أنه جاعل الظلمات والنور (**خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**) فإذا وقعت الواقعة وقامت القيامة ، رجع الأمر إلى الأمر إليه ، يرجع الأمر كله إليه (**أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**) ويعود الخلق إلى الخلق (**مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ**).

قاعدة

في الخلق والأمر

قال الله تعالى : (**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**) وقال : (**قُلِ الـــرُّوحُ مِنْ أَمْـــرِ رَبِّي ، وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً**) ، (**أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ**) ، (**إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**).

اعلم أن الله خلق عـوالم كثـيرة ، كما ورد في الخـبر بروايــات متعــددة وفي بعضــها أنه خلق ثلثمائة وســتين عالما.

قال الشيخ محيي الـدين الأعـرابي في البـاب الثـامن من الفتوحـــات المكية : «إن في كل نفس خلق الله فيها عوالم (**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُـرُونَ ... ،**) وخلق الله من جملة عوالمها عالما على صـــورتنا إذا أبصـــرها العارف يشاهد نفسه فيها ، وقد أشار إلى ذلك ابن عباس فيما روي عنه في حديث : هذه الكعبة وإنها بيت واحد من أربعة عشر بيتا ، وإن في كل أرض من الأرضــين الســبع خلقا مثلنا ، حتى أن فيهم ابن عباس مثلي» والعوالم وإن كـانت متعــددة ، إلا أن الجميع مترتبة منتظمة في ســلك واحد متفاوتة باللطافة والكثافة والظهــور والبطــون ، لما مر من استحالة وجود عالمين متباينين غير منتظم أحدهما بـالآخر كما بين في مقامه ، والعـوالم مع كثرتها منحصـرة في قسـمين عـالم الأمر وعـالم الخلق ، فعـبر عن عـالم الــدنيا وهو ما يــدرك بهــذه الحــواس الظــاهرة الخمس بــالخلق ، لقبوله المســاحة والتقــدير ، وعــبر عن عــالم الآخـــرة وهو ما يـــدرك بـــالحواس الخمسة الباطنة وهي النفس والقلب والعقل والــروح والسر بــالأمر ، لأنه وجد بــأمر كن دفعة بلا واســطة شــيء آخر ، إذ وجــوده غــير متعلق بالحركـات والاسـتعدادات ، فيوجد بمجـرد الجهـات الفاعلية لا بالجهـــات القابلية الانفعالية ، فكل ما يقع في تصور الفاعل أو يخطر بباله يوجد دفعة من غير اســتعمال آلة أو تهيؤ قابل ، فعالم الأمر هو الأوليـات العظـائم الـتي أوجدها الله تعالى للبقاء ، كالعقل والــروح والقلم واللــوح والعــرش والجنة ، وآخرها الكرسي ، ولهـذا قيل : فــرش الجنة الكرسى وسقفها عرش الرحمن.

وأما دار الجحيم فهي بوجه من الآخـــرة : وبوجه آخر من الـــدنيا ، فإنها من حيث تجـــدد ما فيها وتـــوارد الآلام والمحن على أهلها وذوبـــان جلـــودهم وتبـــديلها وتعــاقب الكون والفساد عليها من الدنيا ، ومن حيث خلودها ودوام العذاب فيها لأهلها هي من الآخرة.

وبالجملة فكل ما كونها الأمر القـديم كـان باقيا ببقـاء الله ، وما كونه بالوسائط كان حادثا ناشئا في عالم الخلق وسمي عالم الخلق خلقا لأنه أوجده الله تعالى بالوسـائط من شيء كما في قوله (**وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ**) فكلما كان مخلوقا بالوسائط كان قابلا للفنـاء وإنما خلقه للفنـاء لكونه وسيلة إلى غيره. والروح الإنسـاني وإن كـان مكونا مع الخلق ولكنه ليس مكونا بالخلق ولا مخلوقا من شــيء فـــإن النفس حادثة مع البـــدن لا بالبـــدن بل بـــأمر الله وتكوينه.

وقد بينا في بعض كتبنا المبســـوطة تحقيق حـــدوث النفس الإنســـانية المجـــــردة بما لا مزيد عليه ، من أن حدوثها بما هي جوهر مفارق ليس مسـبوقا بالمـادة ، وإلا لم يكن بقاؤها بعد المـــادة ، بل البـــدن شـــرط تعلقها وتدبيرها وتصرفها ، ولهذا يزول التعلق والتدبير والتصـرف بزوال البدن. ومن هنا يتبين أن قوله تعـالى (**قُـلِ الـرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**) إنما هو لتعريف الروح ، عني به أنه جــوهر بسيط من عـالم الأمر والبقـاء لا من عـالم الخلق والفنـاء ولهـذا عــبر عنها بالكلمة في قوله (**وَكَلِمَتُـهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْـهُ**) وقوله : (**إِلَيْـهِ يَصْـعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**) وأنه ليس للاســـتبهام كما ظنه جماعة ، من أن الله أبهم علم الـــروح على الخلق واســتأثره لنفسه ، حــتى قــالوا لفرط جهلهم بمنصب النبوة : إن النبي صــلىاللهعليهوآله لم يكن عالما به ، جل منصب حـبيب الله أن يكـون جـاهلا بـــالروح ، مع أنه عـــالم بالله ، وقد من الله عليه لقوله (**وَعَلَّمَـكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكـانَ فَضْـلُ اللـهِ عَلَيْـكَ عَظِيماً**).

وأما سـكوته عن جـواب السـؤال عن الـروح وتوقفه انتظـارا للـوحي حين سـألته اليهـود ، فقد كـان لغموضه ، فــرأى في معــنى الجــواب دقة لا يفهمها اليهــود ، لبلادة طبائعهم ، وقساوة قلوبهم وفساد عقائدهم ، فإن المدرك لا يـدرك شـيئا ليس من جنسه ، فـالحس لا يـدرك غــير المحسوسات ، والخيال

لا يدرك ما وراء المتخيلات ، والوهم لا يدرك المعقـولات ، فمن لا عقل له لا يدرك المعقولات الصرفة ، قال تعالى : (**وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعـالِمُونَ**) وهم أربـاب العقـول الكاملة والسائرون إلى الله فإنهم لما عبروا بالسلوك عن النفس وصفاتها والقلب وصفاته ووصلوا إلى مقام السر وعرفــوا بعلم السر معنى القلب والنفس والحس كما عرفـوا بنـور الحس سائر المحسوسات وبنور الخيـال المتخيلات وبنـور الـوهم الموهومـات ، وإذا عـبروا عن السر ووصـلوا إلى عـالم الأرواح عرفـوا بنـور الـروح السر ، وإذا عـبروا عن عـالم الـروح ووصـلوا إلى سـاحل بحر الحقيقة ، عرفــوا بأنوار مشاهدات صفات الجمـال عـالم الأرواح وما دونها ، وإذا فنوا بسطوات الجلال عن إنانية وجودهم ووصلوا إلى لجة بحر الحقيقة ، كوشـــــفوا بهوية الحق تعـــالى ، وإذا اســتغرقوا في بحر الهوية الأحدية وبقــوا ببقــاء الألوهية عرفوا الله بالله ، ووحدوه وقدسوه وعرفوا به كل شيء.

وهذا هو مسئول دعاء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ، قال : «رب أرنا الأشـــياء كما هي» وكــــان قبل هــــذا وقت (**سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**) فحينئذ وقت (**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) وهذا مقام «كنت له سمعا وبصرا ويـدا ، وبي يســــمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش» ففي هـــذه الحالة كيف يبقى لمعرفة الــــروح حظر عند من له هذه المقامات العلية.

واعلم أن الــــروح شـــيء واحد في ذاته وحقيقته ، وتعـدده بحسب تعـدد النفـوس المتصـلة به ، وكـذا عـالم الأمر موجود واحد بالذات متكثر بحسب جهـات الإفاضـات والإيجادات (**وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَـرِ**) وهكـذا الكلام ، وغير ذلك من الأمور الإلهية ، فإن من وراء عــالم الخلق وعـالم الـدنيا وما فيها وما معها وهو عـالم النـور ، كله مــراتب الإلهية ، كأنها طبقــات بســيطة متفاوتة في شـدة النورية وضـعفها ، وكل طبقة منها منطوية مقهـورة تحت طبقة أعلى منها ، وهكــذا إلى نــور الأنــوار ، فالكل منطوية مطموسة تحت سـلطان نـوره ، وسـطوة كبريائه (**أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**).

وعــالم الخلق طبقاته ظلمــات بعضــها فــوق بعض ، وكلما هو أبعد من

عــــالم النــــور فهو أظلم وأوحش ، وهكــــذا إلى أســــفل السافلين ومهوى الشياطين والكفرة والمطــرودين (**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ**) والله خالق الظلمات والنور وجاعل الليل والنهار «وهو (**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**) والناس في أول الخلقة قابل للسلوك إلى الجانبين والسير إلى السبيلين ، إما إلى عالم النور والحياة ، وإما إلى عالم الموت والظلمة (**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ، يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**).

قاعدة

في كيفية البدو والإعادة والإشارة إلى سلسلتي الهبوط والصعود

قال الله تعالى : (**هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**) يشير إلى أنه تعالى كما بدأ الخلق بإخراجهم عن مكمن الإمكان إلى عالم الأرواح ثم أهبطهم من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح عابرين على الملكوت الأعلى والأسفل من النفوس السماوية والأرضية ، مارين على الأفلاك والأنجم والأثير والهواء والماء والأرض ، إلى أن يبلغوا إلى أسفل السافلين والهاوية المظلمة أعني الهيولي والبحر المظلم والقرية الظالم أهلها ، وهي نهاية تدبير الأمر على ما قال : (**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ**) ثم يقع الإعادة في باب الإنسانية بجذبات العناية إلى الحضرة الإلهية من حيث وقع النزول مارا على المنازل والمقامات التي كانت على ممره بقطع التعلق عنها وترك الانتفاع بها ، فإنه حالة العبور على هذه المنازل استعار خواصها لاستكمال الوجود الإنساني مادة وصورة وروحا وجسما ، فصار محجوبا عن الحضرة مشتغلا بالكثرة عن الوحدة ، كما في قوله : (**أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ**) يعني الأبدان المظلمة لكونها مقابر للأرواح ، فإذا جاء وقت الرجوع بجذبة ارجعي إلى ربك يرد ما استعار من كل منزل ، فإن العارية مردودة إلى أن يبقى بلا إنانية

عارضة ويصفى وجه المرآة عن كل صـورة فيتصـرف فيه جذبة العناية ويتجلى في مرآته وجه الحق البـاقي ، وكـان العالم كله كدائرة انعطف آخرها إلى أولها ، إحدى قوسيه نزولية والأخـرى صـعودية ، ولها نقطتـان إحـداهما نهاية أولاهما وبداية أخراهما وهي الهيـولى ، والثانية بـالعكس وهو الإنسـان الكامل ، روح العـالم ، مظهر اسم الله وخليفة الرحمن ، كما قيل :

ليس على الله بمسـتنكر   أن يجمع العـالم في واحد

قاعدة

في تحقيق الخلافة الإلهية

اعلم أنه لما اقتضى حكم الإلهية الجامعة لجميع الكمالات المشتملة على الأسماء الحسنى والصفات العليا بسط مملكة الإيجاد والرحمة ونشر لواء القـدرة والحكمة ، بإظهـار الممكنـات وإيجـاد المكونـات وخلق الخلائق وتسـخير الأمـور وتـدبيرها ، وكـان مباشـرة هـذا الأمر من الـذات الأحدية القديمة بغـير واسـطة بعيـدة جـدا ، لبعد المناسـبة بين عـزة القـدم وذلة الحـدوث ، فقضى الله سـبحانه بتخليف نـائب ينـوب عنه في التصـرف والولاية والإلايجـاد والحفظ والرعاية ، فلا محالة له وجه إلى القديم يستمد من الحق سبحانه ، ووجه إلى الحـدوث يمد به الخلق ، فجعل على صـورته خليفة يخلف عنه في التصـرف ، وخلع عليه خلع جميع أسـمائه وصـفاته ومكنه في مسند الخلافة بإلقـاء مقـادير الأمـور إليه وإحالة حكم الجمهور عليه وتنفيذ تصرفاته في خـزائن ملكه وملكوته ، وتسـخير الخلائق لحكمه وجبروته ، وجعل له بحكم مظهرية اسـميه الظـاهر والبـاطن حقيقة باطنة وصـورة ظاهرة. ليتمكن بهما من التصـرف في الملك والملكـوت. فالمقصود من وجود العالم وإيجاد الأشياء فيه شيئا فشيئا ، أن يوجد الإنسـان الـذي هو خليفة الله في العـالم ، فـالغرض من الأركـان أن يحصل منها النباتـات ، والغـرض من النباتـات أن يحصل منها الحيوانـات ، ومن الحيوانـات أن يوجد الأجساد البشرية ومن

الأجسـاد البشـرية أن يحصل منها الأرواح الناطقة ، ومن الأرواح الناطقة أن يحصل خليفة الله في أرضه ، كما دل عليه بقوله : (**إِنِّي جاعِـلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً**) فحقيقته الباطنية هي الـــروح الأعظم ، والنفس الكلية وزيـــره وترجمانه ، والطبيعة عامله ورئيسه ، والعملة من القـوى الطبيعية جنوده ، وكذلك إلى آخره. وأما صورته الظـاهرة فصـورة العـالم من العـرش إلى الفـرش وما بينهما من البسائط والمركبات ، فهذا هو الإنسان الكبير المشير إليه قول المحققين ، العالم إنسان كبير. وإنما سـمي إنسـانا ، لإمكـان وقـوع الإنس بينه وبين الخلق برابطة الجنسـية وواسـطة الإنسـية وأرادوا بالعـالم حقيقة العـالم وذاته وروحه الأعظم أعـني العقل البسـيط الـذي انـدمجت فيه صـورة ما في العـالم ظـاهره وباطنه ، وهو أول ما خلق الله وأبدعه. وأما قولهم : الإنسان عالم صـغير ، أرادوا به الكمل من أفراد البشر ، وهو خليفة الله في الأرض لقوله في حق آدم (**إِنِّي جاعِـلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً**) وقوله : (**يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**).

والإنسـان الكبـير خليفة الله في السـماء والأرض ، وماهيتهما واحـدة ، وهـذا الإنسـان نسـخة منتسـخة ونخبة منتخبة من الإنسـان الكبـير بمثابة الولد من الوالد ، فله أيضا حقيقة باطنة وصـورة ظـاهرة ، أما حقيقته الباطنة فالروح الجـزئي المنفـوخ من الـروح الأعظم ، نسـبته إلى ذلك كنسبة الشعاع إلى الشـمس ، فكـذلك عقله الجـزئى ونفسه الشخصـية والطبيعة الشخصـية ، وأما صـورته الظاهرة فنسخة منتخبة من صـورة العـالم الظـاهر ، فيها من كل جـزء من أجـزاء العـالم ، لطيفها وكثيفها قسط ونصيب ، فسبحان من صانع جمع العالم في واحد.

من كل شـيء لبة ولطيفه ، مسـتودع في هـذه المجموعة وصـورة كل شـخص كامل نتيجة صـورة آدم وحـواء ، ومعنـاه نتيجة الـروح الأعظم والنفس الكلية اللذين هما آدم كلي وحواء كلية ، ومن هذا يصح أن يقـول الكامل من أولادهما.

وإني وإن كنت ابن آدم صـورة ... فلي فيه معـنى شـاهد بـأبوتي

وكذلك كل واحد من أفراد البشر ناقصا أو كاملا كـان له نصيب من الخلافة بقدر حصة إنسانية ، لقوله تعالى : (**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ**) ، مشيرا إلى أن كل واحد من أفاضل البشر وأراذلهم خليفة من خلفائه في أرض الدنيا ، فالأفاضل مظاهر جمال صفاته تعالى في مرآة أخلاقهم الربانية ، وهو سبحانه تجلى بذاته وجميع صفاته لمرآة قلوب الكاملين منهم ، المتخلقين بأخلاق الله ، ليكون مرآة قلوبهم مظهرا لجلال ذاته وجمال صفاته ، والأراذل يظهرون جمال صنائعه وكمال بدائعه في مرآة حرفهم وصنائعهم ، ومن خلافتهم أن الله استخلفهم في خلق كثير من الأشياء كالخبز والخياطة والبناء ونحوها ، فإنه تعالى يخلق الحنطة بالاستقلال والإنسان بخلافته يطحنها ويعجنها ويخبزها ، وكالثوب فإنه تعالى يخلق القطن والإنسان يغزله وينسج منه الثوب بالخلافة ، وعلى هذا قياس في سائر الصنائع الجزئية والحرف.

قاعدة

في الحقيقة المحمدية مظهر اسم الله الجامع الأعظم (**يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ**) إلى قوله (**مُسْتَقِيماً**)

قد تقرر في العلوم الإلهية أن الحق تعالى برهان على كل شيء كما قال (**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) وقد ثبت أيضا أن المبدأ عين الغاية والبداية عين النهاية ، وأن الله فاعل كل شيء ، وأن الإنسان الكامل الذي لا أكمل منه غاية المخلوقات ، «لولاك لما خلقت الأفلاك» ، فإذن يجب أن يكون هو البرهان على سائر الأشياء ، كما قال (**وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً**).

ومن الشواهد الدالة على هذا المطلب أن الله أعطى لكل نبي آية وبرهانا وجعل نفس النبي الخاتم برهانا فقال (**قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ**) ، وذلك لأن برهان الأنبياء كان في أشياء غير أنفسهم ، مثل برهان موسى في

عصـاه وفي يـده ، وفي الحجر الـذي انبجست (**مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ**) ، وكـان نفس النـــبي برهانا بالكلية فكـــان برهـــان عينه ما قـــال ، لا تسـبقوني بـالركوع فـإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي ، وبرهـان بصـره (**ما زاغَ الْبَصَـرُ وَما طَغى لَقَـدْ رَأى مِنْ آيـاتِ رَبِّهِ الْكُبْـرى**) ، وقوله : زويت لي الأرض فأريت مشـارقها ومغاربها ، وبرهـان سـمعه قوله أطت [1] السـماء وحق لها أن تئط ليس فيها موضع قـدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكع ، وبرهان شـمه قوله : إني لأجد نفس الـرحمن من جـانب اليمن ، وبرهـان ذوقه قوله : إن هـذا الذراع مسموم ، وبرهـان لمسه قوله : وضع الله يـده بين كتفي فـأحس بـرده ، وبرهـان لسـانه قوله تعـالى : (**وَما يَنْطِـقُ عَنِ الْهَـوى إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْيٌ يُـوحى**) ، وبرهـان بصـاقه [2] ما قـال جـابر : إنه أمر يـوم الخنـدق لا تخـبزن عجينكم ولا تنزلن بـرمتكم حـتى أجيء ، فجـاء فبصق في العجين وبـــــــارك وبصق في البرمة ، فأقسم بالله إنهم لأكلوا وهم ألف حتى تركوه وانصرفوا ، وإن برمتنا لتغط [3] كما هي وإن عجيننا ليخـــبز كما هي ، وبرهـــان تفله أنه تفل في عين علي عليهالسلام وهي ترمد فبرئ بـإذن الله يــوم خيـبر ، وبرهــان يـده قوله تعــالى : (**وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللـــهَ رَمى**) ، وأنه ســبح الحصى في كفه ، وبرهـان إصـبعه أنه أشـار به إلى القمر فانشق فلقـتين ، وكان الماء ينبع من أصـابعه حـتى شـرب منه خلق كثـير ، وبرهان صدره قوله تعـالى : (**أَلَمْ نَشْـرَحْ لَـكَ صَـدْرَكَ**) ، وأنه كـان له أزيز كـأزيز المرجل [4] وبرهـان قلبه أنه كـان تنام عيناه ولا ينام قلبه ، وقال تعالى : (**ما كَـذَبَ الْفُـؤادُ ما رَأى**) ، وأمثــال هــذه الــبراهين في مظــاهر وجــوده المقدس أكثر من أن يحصى.

وأما براهين مطاوي وجوده وقـواه المسـتورة ، فمنها برهان قوة

---

(1) صوت بالزحام ، أي كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حـتى أطت ، هذا إيذان ومثل بكثرة الملائكة.

(2) البزاق.

(3) لاشتد غليانها.

(4) صوت غليان القدر أي إن جوفه يجيش ويغلي بالبكاء.

حفظه كقوله : (**سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى**) ، وبرهان قوة علمه قال علي عليه‌السلام : علمني رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ألف باب من العلم فاستنبطت من كل باب ألف باب ، وإذا كان حال الولي هكذا فكيف حال النبي المعلم ، وأما برهان قوته المحركة العملية فلعروجه بجسده النوراني إلى أقصى عالم السماوات وهو سدرة المنتهى ، وبروحه المقدس إلى قاب قوسين أو أدنى ، وأما برهان عقله العملي فقوله : (**إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**) ، وقوله : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

قاعدة

في حقيقة الدنيا والآخرة

قال الله تبارك وتعالى (**أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ**) إلى قوله (**وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ**) ، وقال : (**وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ**) ، وقال : (**إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ**) إلى قوله (**فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ**) وقال : (**كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ**).

واعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الملكوت والغيب ، وربما قيل : إن الدنيا عالم المحسوسات والآخرة عالم المعقولات ، وهذا غير سديد عندنا ، وإنما هو قول جمع من الفلاسفة المنكرين للمعاد الجسماني ، ولوجود الجنة والنار الجسمانيين ، والأجود أن يقال إن الدنيا عالم الكون والفساد ، والآخرة دار القرار ، أو يقال : إن الدنيا عالم الظلمات ، والآخرة عالم النور ، أو يقال : إن الدنيا عالم الموت ، والآخرة عالم الحياة ، والله تعالى هو (**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ**) و (**جَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ**) ، يعني الدنيا والآخرة.

وتوضيح ذلك على نسق البرهان العقلي أن الصورة التي يتعلق بها العلم والإدراك على ضربين ، إما صورة مادية مغموسة في المادة ، التي شأنها العدم والقوة وقبول الكثرة والانفصال والتباعد في الجهات ، و

الغيبة والحجـاب وعـدم الحضـور ، حـتى أن كل جـزء منها يغيب عن صـاحبه وليس لها وجـود جمعي حضـوري ، فلم يكن مدركة ولا معلومة ولا محسوسة إلا بالتبع لا بالـذات ، فهي مناط الجهل والمـوت والظلمة ، وأما صـورة مفارقة عن المادة ولواحقها فوجودها وجود حضوري إدراكي ، لأن وجودها في نفسـها بعينه وجودها لمـدركها ، سـواء كـانت صــــــــورة جزئية أو كلية ، محسوسة أو معقولة ، فهي المدركة بالفعل دائما ، والأولى ليست مدركة بالفعل ما لم ينـتزع عن مادتها ، والقسم الأول هو وجـود الـدنيا وما فيها ، ولا يكـون لها في نفسـها حيـاة إلا بـأمر خـارج عنها وارد عليها ، والقسم الآخر ، هو وجــود الآخــرة وما فيها ، وإن حياتها ذاتية لها لا بأمر خارج ، ولهـذا قـال الله تعـالى في حق الدنيا : (**إِنَّمَا الْحَياةُ الـدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْـوٌ**) ، وقـال في حق الآخرة : (**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِـرَةَ لَهِيَ الْحَيَـوانُ لَـوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**) ، ولأجل ذلك قيل : إن حـال الإنسـان في كل ما يراه من الـدنيا كحـال النـائم في المنـام عن الرؤيا الــتي يراها ، ما هي إلا أمثــال وحكايــات لما هي حقــائق موجودة في الخارج يحتاج إلى التعبير.

فالعارف بمنزلة المعبر الذي يعبر عنها بــأمور أخروية ، كما قال سبحانه : (**وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْـرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعــالِمُونَ**) ، وقيل أيضا : إن الــدنيا مـــرآة الآخرة فإنها عالم الشهادة ويـرى فيها ما في عـالم الغيب وهي الآخرة.

وما أحسن تشــبيه الــدنيا بــالمرآة ، حيث إن ســطح المـرآة من جهة اللـون لأجل الصـقالة صـار عـدميا ، لكنه يصـير لأجل صــقالته وقـوة إمكانه مظهـرا لما يقابله من الأشكال والألوان ، كذلك الدنيا أمر عـدمي إمكـاني حامل للعـدم والقـوة الإمكانية ، فصـارت مظـاهر لما يقابله من عالم الآخـرة ، فـيرى فيها صـور الأشـياء الثابتة في عـالم آخر على وجه محســوس جــزئي ، لتطــرق النقــائص والأعدام إلى تلك الصور من جهة المظهر الدنياوي ، فهذا العالم في الوجود تابع لعـالم الغيب ، كما أن الصـورة في المـرآة تابعة لصـورة النـاظر ، ألا تـرى أن صـورتك في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة

الوجود فإنها قد صارت أولى في حق نفسك فإنك لا تـرى نفسك ، وتـرى صـورتك في المـرآة أولا ، وربما تغـيرت بحسب حال المرآة مستقيمة ومعوجة واحـدة ومتكـثرة ، ثم تعرف بها صـورتك الـتي هي قائمة بك لا بـالمرآة أصلا على سبيل المحاكاة في ثاني الحـال ، فـانقلب التـابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة ، وانقلب المتأخر متقـدما ، وهذا النوع من الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم ، وكذلك عالم الدنيا محاك لعـالم الآخـرة ، فمن النـاس من وفقه الله ويسر له النظر والاعتبـار فلا ينظر إلى شـيء من هـذا العـالم إلا ويعـبر به إلى عـالم الآخـرة ، فيسـمى عبـوره عـبرة ، وقد أمر الله تعـالى عبـاده به وقـال : (**فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ**) ، ومنهم من عميت بصـيرته فلم يعتبر ولم يعبر عن هـذا الحبس ، فـاحتبس في عـالم الحس والشهادة ، وسيفتح إلى حبسه أبـواب جهنم ، وهي مشـاعره الـتي كـانت تصـلح أن تكـون أبوابا إلى فسـحة الجنان أيضا كما تصلح لأن تكون أبوابا إلى النيران ، وهـذا الحبس ممتلئ نـارا شـأنها أن تطلع على الأفئـدة ، إنها عليهم مؤصـدة في عمد ممـددة ، إلا أن بينه وبين إدراك حرقها وألمها حجـاب ، فـإذا رفع الحجـاب بـالموت أدركها بعين اليقين ، وهذه النار موجودة اليوم كما دل عليه قوله تعـالى : (**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَـةٌ بِالْكـافِرِينَ**) ، وقوله : (**وَما هُمْ بِخـارِجِينَ مِنَ النَّارِ**) ، وقوله : (**أُولئِكَ ما يَـأْكُلُونَ فِي بُطُـونِهِمْ إِلَّا النَّارَ**) ، وقد أظهر الله الحق على لسان قوم اسـتنطقهم بـالحق فقـالوا : الجنة والنـار مخلوقتان ، نظرا إلى ظاهر قوله تعالى : (**وَجَنَّةٍ عَرْضُـها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُـوا**) ، وقوله : (**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّـماوات وَالْأَرْضُ أُعِـدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**) ، وقوله : (**فَـاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجـارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ**) ، وقوله : (**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُـوا آلَ فِرْعَـوْنَ أَشَـدَّ الْعَـذابِ**) ، وقوله : (**أُغْرِقُـوا فَـأُدْخِلُوا نـاراً**) ، وقوله : (**يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ**).

وهذا هو المروي عن الأئمة الطاهرين عليهم السلم ، روى قـدوة المحـدثين أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي رضي الله عنه في عيـون أخبـار الرضا بسـنده المتصل إلى عبد السـلام بن صـالح الهـروي ، قـال قلت لعلي بن

موسى الرضا عليه‌السلام يا ابن رسول الله أخبرني عن الجنة والنار ، أهما اليوم مخلوقتان ، قال نعم قد دخل رسول الله (ص) الجنة ورأى النار لما عرج به إلى السماء ، قال فقلت له إن قوما يقولون إنهما اليوم مقدرتان غير مخلوقتين ، فقال عليه‌السلام : ما أولئك منا ولا نحن منهم ، من أنكر خلق الجنة والنار فقد كذب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وكذبنا ، وليس في ولايتنا على شيء ويخلد في نار جهنم ، قال تعالى : (**هـذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ**) ، وقال النبي (ص) : لما عرج بي إلى السماء أخذ بيدي جبرئيل فأدخلني الجنة ، فناولني من رطبها فأكلته فتحول ذلك نطفة في صلبي ، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة عليهاالسلام ففاطمة حوراء فكلما اشتقت إلى الجنة شممت رائحة ابنتي فاطمة عليهاالسلام.

وبالجملة الدنيا هي النشأة النارية الداثرة الكائنة الفاسدة ، من ركن إليها استحق النار ، والآخرة هي النشأة النورية العلمية الباقية ، وهي صورة الجنة ومنازلها ، إلا أنها محجوبة عن هذه الحواس لانغمارها في البدن الذي هو أيضا من الدنيا ، فمن عرف نفسه وعرف ربه تجرد ذاته عن غشاوة الدنيا وصار من أهل الآخرة ونعيمها ، ومن لم يستكمل ذاته بقوة الإيمان ونور العرفان ، ولم ينتزع صورته عن المادة البدنية ، ولم يتجرد ذاته عن مقبرة الدنيا وتابوت البدن الذي استحق بذاته أن يصير صندوقا من صناديق الجحيم ، فلا نجاة له من عذاب النار ، ولا خلاص له منها إلى محل الأبرار ومعدن الأنوار.

والعارف يشاهد ببصيرته أن الدنيا ضد الآخرة وأنها معدن الجهل والكفر ومنشأ الظلمة والعذاب في يوم القيامة ، وأنها مذمومة ، شهواتها مهلكة ، ظلماتها مغوية ، وهي مع ذلك لا بد منها لأنها مزرعة الآخرة في حق من عرفها ، إذ منها ينشأ بذر الثمرات الأخروية ، فمن تزود منها للآخرة واقتصر على قدر الضرورة فقد حرث وبذر وسيحصد في الآخرة ما زرع ، وحقيقة هذه الحراثة هي الإيمان والزهد ، أعني اكتساب أنوار المعلومات

والتجرد عن الماديات والظلمات وهي يخالف حراثة الـدنيا ، وهي تحصيل المال والجـاه ، فلا نجـاة لأحد إلا لمن كـان حاله في الدنيا كحال المسافر الذي يقتصر منها على قـدر الضرورة ، ولا سعادة لأحد إلا لمن قـدم إلى الله عارفا به وبملكوته وآيـات جلاله وعظمته ، وأحب الله بقلبه ، فـإن المعرفة والمحبة لا ينـالان إلا بـدوام الطلب والفكر ، ولا يفرغ القلب إليهما إلا بالإعراض عن شواغل الدنيا والفراغ عن محبة غـير الله ، وغـير صـفاته وأفعاله من حيث هي أفعاله ، فإن من أحب أحدا أحب آثاره لأجله.

فأنت يا حبيـبي إن كنت من أهل البصـيرة فقد علمت أن مدار النجـاة على الأعـراض عن الـدنيا وأهلها ، ومـدار السعادة الحقيقية والتقـرب عند الله بالحكمة الإلهية الـتي هي المعبر عنها بالإيمان (**بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُـلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**) ، وإن لم تكن من أهل الكشف والبصـيرة فكن لا أقل من أهل التقليد والإيمـان بظـاهر القـرآن ، وانظر إلى تحذير الله تعالى إياك في عدد كثير من الآيات كقوله : (**مَنْ كـانَ يُرِيـدُ الْحَيـاةَ الـدُّنْيا وَزِينَتَها نُـوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ**) الآية ، وكقوله تعالى : (**فَأَمَّا مَنْ طَغى وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَـأْوى**) ، وكقوله : (**الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجـاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ**) ، وكقوله : (**وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَـدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيـاةَ الـدُّنْيا عَلَى الْآخِـرَةِ**) ، وقوله : (**مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَـةَ عَجَّلْنا لَـهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيـدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَـدْحُوراً وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَـعْيَها**) الآيـة» ، (**فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُـولُ رَبَّنا آتِنا فِي الـدُّنْيا وَما لَـهُ فِي الْآخِـرَةِ مِنْ خَلاقٍ**) الآية ، وفي حمعسق (**مَنْ كـانَ يُرِيـدُ حَـرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيـدُ حَـرْثَ الـدُّنْيا نُؤْتِـهِ مِنْها وَما لَـهُ فِي الْآخِـرَةِ مِنْ نَصِـيبٍ**) ، وقوله : (**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُـونَ لِقاءَنا وَرَضُـوا بِالْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَاطْمَـأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غـافِلُونَ أُولئِكَ مَـأْواهُمُ النَّارُ بِما كـانُوا يَكْسِـبُونَ**) ، وقوله : (**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَـوْا فَـوْقَهُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ**) ، وقوله : (**تِلْـكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي**

الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) وقوله : (**فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ**) ، وقوله : (**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا**) الآية ، ولعل ثلث القرآن في ذم الدنيا وأهلها.

وفي الحديث عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله «الدنيا ملعون ، ملعون ما فيها ، الدنيا دار من لا دار له ، الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، الدنيا جيفة وطالبها كلاب ، وإن الله عزوجل لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا ، وإنه لم ينظر إليها منذ خلقها بغضا».

قاعدة

في اللوح والقلم

قال تعالى : (**ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ**) ، وقال : (**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ**) ، وقال : (**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ**) ... (**فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**) ... (**لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**) ، وقال : (**يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**) ، وقال : (**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**).

وفي الخبر أن إسرافيل ملك موكل باللوح ينظر فيه وينتظر متى يؤمر أن ينفخ في الصور ، واللوح مجمع علوم الكوائن ، وقيل أصله من ذهب دفتاه ياقوتتان حمراوان ، عرض كل منهما من المشرق إلى المغرب ، وطوله من العرش إلى الثرى ، وأما القلم فهو درة بيضاء طوله ألف سنة.

وفي الأثر : لما خلق الله القلم قال اكتب ، قال ما أكتب قال علمي في خلقي ، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

وروي عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله سبق القلم وجف القلم وتم القضاء بتحقيق الكتاب وتصديق بالسعادة من الله والشقاوة من الله.

وفي كتاب الاعتقادات لابن بابويه القمي رضوان الله عليه ، إن اللوح والقلم هما ملكان ، فإثباتهما من طريق الخبر والرواية هكذا ، وأما طريق الاعتبار والاستبصار ، فالبرهان العقلي يجوز جميع ما ذكروا ولا يأبى

عنه ، ويشبه أن يكون إحداهما وهو القلم جوهرا عقليا بل العقل الكلي وهو العــالم العقلي بجملته ، وثانيهما أعــني اللــوح جــوهرا نفســانيا بل النفس الكلية وهو العــالم النفساني بجملته.

قاعدة

في العرش والكرسي

قيل ســـــئل محمد بن الحنفية رضي الله عنه عن الكرسي فقــال : فلك الــبروج ، فمن جعله فلك الــبروج جعل العرش فلك الكل أو فلك الأفلاك ، وذهبت المشـبهة إلى أن العرش موضع التدبير والتقـدير ، والكرسي موضع التجلي والزيـارة ، وذكـروا أن الله يـنزل من العـرش إلى الكرسي فيتجلى للخلق ويقضي بينهم بالحق.

أقــول : «إنما قــالوا ذلك وأمثاله لآثــار بلغت إليهم منقولة عن النـبي صـلىاللهعليهوآله في هـذا البـاب ، لو عرفوها حق معرفتها لما ضلوا وأضلوا ،

وقــال بعضــهم إن العــرش مظهر الــرب ، والكعبة معلمه ، فدعا الله العباد إلى مظهره بقلوبهم وإلى معلمه بأبـدانهم ، ومنهم من قـال : إن الله متمكن على العـرش وقدماه على الكرسي ، جل الباري عن صفات المخلوقين ونعوت المحدثين ، وقال بعض أرباب القلـوب العـرش هو قلب العالم والإنسان الكبـير والكرسي هو صـدره ، وهـذا أصح الأقــوال وأســدها وأحســنها ، وذلك لأن المــراد من القلب المعنــــوي هو مرتبة النفس المـــــدبرة المدركة للكليـات ، والقلب الصـوري مظهرها ، وكـذا المـراد من الصــــدر المعنــــوي هو مرتبة النفس الحيوانية المدركة للجزئيـات ، وهـذا الصـدر الجسـماني مظهرها ، ونسـبة اسـتواء النفس الإنسـانية على قلبه بالتـدبير إلى اسـتواء الـــرحمن على عرشه بالعناية والرحمة كنســـبة القلب الصـنوبري إلى العـرش الصـوري ، وكـذلك نسـبة تصـرف النفس الحساسة الحيوانية في الصـــدر المحيط بجـــوهر الكبد لمكـان الـدم الطـبيعي المنتشر في البـدن كله إلى تصرف

القـوة الملكوتية بـإذن الله في الكرسي المحيط بجـوهر السماوات السبع بأنوارها النافذة في الكل كنسـبة الصـدر الجزئي إلى الكرسي الجسماني ،

وأيضا نسـبة العـرش إلى الكرسي كنسـبة القلم إلى اللوح ، فالقلم واللوح جوهران بسيطان عقليان في عـالم الأمر ، ولكن القلم أبسط وأشـرف وأقـوى عقلا ، وكـذا العرش والكرسي جوهران بسيطان حيان من عالم الخلق ، لكن العـرش أبسط وأنـور وأقـوى حيـاة ، والله أعلم بحقائق أموره وخـزائن ظهـوره ومنـازل شـهوده ومجـالي وجوده.

وقـال الشـيخ أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي رضوان الله عليه ، اعتقادنا في اللـوح والقلم أنهما ملكـان كشف الله بهما مخفيـات علمه واطلعهما على علومه الغيبية ، وهو قريب مما ذكرناه من أنهما واسطتان في إفاضة العلـوم من الله على خلقه ، وقـال عظم الله قـدره في الاعتقـاد في الكرسي : إنه وعـاء جميع الخلق والعـرش والسـماوات والأرض وكل شـيء خلق الله في الكرسي ، وقال وجه آخر : قد سئل الصـادق عليهالسـلام عن قـول الله عزوجل (**وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ**) ، قال هو علمه ، وقال في الاعتقاد في العـرش : إنه حملة جميع الخلق ، والعـرش في وجه آخر هو العلم ، وسـئل الصـادق عليهالسـلام عن قـول الله عزوجل (**الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى**) ، فقـال : «اسـتوى من كل شـيء فليس شـيء أقـرب إليه من شـيء» ، «وأما العـرش الـذي هو حملة جميع الخلق فحملته ثمانية من الملائكـة» ، لكل واحد منهم ثمانية أعين كل عين طبـاق الـدنيا ، واحد منهم على صـورة بـني آدم يسـترزق الله تعالى لولد آدم ، وواحد منهم على صـورة الثـور يسـترزق الله للبهائم ، وواحد منهم على صورة الأسد يسـترزق الله للسـباع ، وواحد منهم على صـورة الـديك يسـترزق الله للطيـور ، فهم اليـوم أربعة وإذا كـان يـوم القيامة صـاروا ثمانية ، وأما العـرش الـذي هو العلم فحملته أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين ، فأما الأربعة من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهمالسلام ، وأما الأربعة من الآخرين فمحمد وعلي والحسن والحسـين عليهمالسـلام ، قـال : هكـذا روي بالأسـانيد الصـحيحة عن الأئمة عليهمالسلام ، في العرش وحملته.

المشهد الثالث

في أحكام المخلوقات الواقعة في سلسلة العود إلى الله معاكسة

للمبدعات الكائنة في سلسلة البدو منه تعالى وفيه قواعد :

قاعدة

في المركبات الناقصة

اعلم أنه إذا وقعت آثار القوى السـماوية من الأضـواء والأشـعة الكوكبية وغيرها بـإذن الله وملكوته العمالة في العناصر والمـــواد الســـفلية ، فحركتها وهيجتها ، اختلط بعضـــها ببعض واســتحال بعضـــها إلى بعض ، حصل من اختلاطها واسـتحالتها موجـودات شـتى ، فـإذا هيج النـور الفلكي بإســخانه الحـــرارة ، بخر من الأجســـام الرطبة المائية ، ودخن من الأجسـام اليابسة الأرضـية ، وأثـار من البخار والـدخان من مهبطي الأرض والمـاء وأصـعده ، أما الدخان فقد يتعدى صعوده حيز الهواء إلى أن يوافي تخوم النــار فيشــتعل ، وربما يبقى فيه الاشــتغال لغلظ المــادة الدخانية ، فرأى كأنه كوكبا في السماء فيتحـرك بمشـايعة حركة الأثير مـدة ، وربما لم يبق فيه الاشـتعال بل احـترق بسرعة وانطفى ولم يثبت فيه أثر الاحـتراق وهو الشـهاب الثــاقب ، وقد ثبت فيه أثر الاحــتراق ، فــيرى العلامــات الهائلة الحمر والسود ، وأما البخار الصاعد فمنه ما يلطف ويرتفع جـــدا فيـــتراكم ويبقى مـــدة في أقصى الجو عند منقطع الشـعاع فيـبرد ويكشف فيقطر فيكـون المتكـاثف منه سحابا ماطرا و

المتقـاطر مطـرا ، ومنه ما يقصر عن الارتفـاع لثقله ، بل يبرد سريعا ويـنزل ، فما يوافيه بـرد الليل قبل أن يـتراكم فهو الطل ، وربما جمد البخار المتراكم في الأعالي أعـني السـحاب فـنزل وكـان ثلجا ، وربما جمد البخـار الغـير المتراكم في الأعالي أعني مادة الطل فنزل وكان ضـعيفا ، وما يسقط بالليل من السماء شبيها بالثلج ، وربما انجمد البخـار بعد ما اسـتحال قطـرات مـاء فكـان بـردا ، وإنما يكون جموده في الربيع ، وقد فارق السـحاب في الشـتاء وهو داخل السحاب ، وذلك لشدة برد الشتاء وضـعف بـرد الربيع ، والمشهور أنه إذا سخن خارجه بطنت البرودة إلى داخله فيتكاثف داخله لشدة البرد واسـتحال مـاء وأجمـده شـدة الـبرد ، وهو كما تـرى ، وربما تكـاثف الهـواء نفسه لشدة البرد فاستحال سحابا ثم مطرا.

وأما الجـواهر البخارية الدخانية الحاصـلة من مـادتي الرطوبة واليبوسة فمنها ما يتخلص من الأرض فيكـــــون منها الريـاح ، وإذا تصـعدت فيتمـيز البخـار من الـدخان ، انعقد البخار سحابا فيبرد ويقلقل فيه الدخان طلبا للنفـوذ إلى العلو ، فحصل من تقلقله فيه ضرب من الرعد ، وهو صـوت ريح عاصـفة في سـحاب كـثيف ، وربما امتد ذلك التقلقل لكثرة وصـول المـواد وتكـون أعـالي الجو أكثف ، لأن البرد هناك أشد ، وتكون هنـاك ريح مقادمة يعوقه عن النفوذ فيندفع إلى أسـفل ، وقد أشـعلته المحاكة والحركة نارا تبرق ، وتشق السحاب شـعلة كجمر يطفي ، ويسـمع من ذلك ضــرب من الرعد ، وإن كــان قويا شــديدا غليظ المـــادة كـــان صـــاعقة ، وربما وجد منـــدفعا فيه ســـهل الانشقاق فخرج بالرعد واشتعل.

فهـــذا القـــدر من الحقـــائق لا ضـــير في معرفتها ، والكتـــاب أشـــار إليها ، ولا شك في انتهـــاء أســـبابها إلى ملائكة السـماوات والأرضـين ، ثم إلى مـدبر الكل تعـالى عما يصـفه الجـاهلون ويعتقـده الظـالمون من المعطلة والمجسمة.

فللإشـارة إلى إيجـاده تعـالى لهـذه الكائنـات الناقصة بتهييجه لأسبابها قـال : (**هُـوَ الَّذِي يُـرِيكُمُ الْبَـرْقَ خَوْفـاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِـلُ الصَّـواعِقَ فَيُصِـيبُ بِها مَنْ يَشاءُ**) ، و

قال : (**اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**) ، وقوله : (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ**) ، وقوله : (**وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً**) ، وقوله : (**وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ**) ، وقوله : (**وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**).

قاعدة

في خلق أنواع المعادن من المركبات التامة التركيب ، التي لها

صور نوعية حافظة للتركيب ، فاعلة لآثار مخصوصة».

لما أراد الله سبحانه ، بمقتضى قضائه الأزلي وعنايته أن يجعل في الأرض خليفة وخلق من هذه العناصر المتضادة الوجود ، البعيدة عن عالم القدس والجود ، موجودا كاملا يصلح لأن يكون نائبا من الله في عمارة النشأتين ، وكان لا يتصور وجوده من هذه المواد إلا بعد تعديلها وتهذيبها عن الكدورة والظلمة اللازمة لهذه الأجسام ، سيما الأرض التي هي العنصر الغالب فيه ، فقلبها في الأطوار ، وخمر طينة الغالب بفنون من التخميرات ، فجعلها أولا جمادا ، ثم نباتا ، ثم حيوانا ، وهكذا استوفى درجات هذه الأكوان ليتهيأ منها ويعدها خلقة الإنسان ، فأول تعديل وتصفية وقعت في هذه المواد بأن حصل منها صورة الجماد ، قال تعالى : (**وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ**

سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) ، وقوله تعـالى : (**أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللـهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَـراتٍ مُخْتَلِفـاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبـالِ جُـدَدٌ بِيضٌ وَحُمْـرٌ مُخْتَلِـفٌ أَلْوانُها وَغَـرابِيبُ سُودٌ**) ، وقوله : (**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِـلُ الرِّيـاحَ بُشْـراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُـقْناهُ لِبَلَـدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْمـاءَ فَأَخْرَجْنا بِـهِ مِنْ كُـلِّ الثَّمَـراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ**) ، وقوله : (**أَنْـزَلَ مِنَ السَّـماءِ مـاءً فَسـالَتْ أَوْدِيَـةٌ بِقَـدَرِها فَاحْتَمَـلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَـةٍ أَوْ مَتـاعٍ زَبَـدٌ مِثْلُـهُ كَـذلِكَ يَضْـرِبُ اللـهُ الْحَـقَّ وَالْباطِـلَ فَأَمَّا الزَّبَـدُ فَيَـذْهَبُ جُفـاءً وَأَمَّا ما يَنْفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَـــذلِكَ يَضْـــرِبُ اللــــهُ الْأَمْثالَ**).

قاعدة

في خلقة النبات والحيوان والإنسان من صفوة العناصر والأركان.

إن العناصر إذا امتزجت بإذن الله واسـتخدامه للقـوى العالية ، وخــرجت بســبب اعتــدال مزاجها عن صــرافة تضادها وتعصيها عن قبول الفيض الرحماني ، فتصير قابلة لأثر من الحيـــــاة ، فـــــأول ما قبلته من إفاضة الله هي الصورة الحافظة لتركيبها ، وهي الصورة المعدنية ، ثم إذا وقع لها امتزاج أتم وحصل مزاج أعدل وأقرب إلى الوحدة والجمعية قبلت أثـرا آخر من آثـار الحيـاة أشـرف ، وهي النفس النباتية ، شـــأنها التغذية والتنمية والتوليد ، فـــإذا امـــــتزجت امتزاجا وحصل لها مــــزاج أتم وأفضل وإلى الوحدة الخالصة أميل ، تهـيئت لقبـول أصل الحيـاة بعد ما اســتوفت درجــات المعــادن والنبــات بفيضــان النفس الحيوانية الشاعرة المحركة بالاختيـار ، ولها قوتـان مدركة ومحركة ، كما قـال : (**وَجـاءَتْ كُـلُّ نَفْسٍ مَعَها سـائِقٌ وَشَهِيدٌ**) ، فالمدركة منقسمة إلى ظـاهرة ، هي الحـواس الخمس المشهورة ، وباطنة هي الحواس الخمس الباطنة للحيوانات الكاملة ، الحس المشترك والخيال والمتصـرفة والواهمة والحافظة ، وأما القــوة المحركة ، فمنها الباعثة ذات شعبتين ، الشهوة و

الغضب ، ومنها الفاعلة لجـــذب الأوتـــار وإرخائها وآلتها الأعصاب المنشعبة بعضها عن الدماغ وبعضـها عن النخـاع ، وقد جعله الله خليفة الدماغ ، وحامل هذه القوى الــروح البخـاري الـذي جعله الله خليفة النفس ورسـولا منها إلى البدن ، وهو الحار الغريزي عند الأطباء ، المنبعث أولا من القلب الصنوبري صورة القلب المعنـوي ، وإذا لطف جـدا حـتى يشـبه الجـرم الفلكي صـار محل اسـتواء الـروح النطقي المضــاف إلى الله في قوله : (فَــإِذا سَـــوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي).

قاعدة

في أن الغرض من هـذه الموجـودات وقواها الطبيعية والنباتية والحيوانية كلها خلقة الإنسان الـذي هو غاية خلقة العناصر والأركان ، لأنه صفوها وأصلها وخلق من فضـالتها وثفلها سائر الأكوان ، فهو الصفوة العليا واللباب الأصـفى وغيره كالقشور لصـيانة وجـوده عن الآفة ، ولـذلك تـزول هي وتـرمى ، وهو يـدوم ويبقى محشـورا راجعا إلى ربه ، والإشارة إلى أن كل ما يوجد في العالم من سائر الأكوان إنما خلق لأجل الإنسان.

قال تعالى في باب المعادن والجمـاد : (وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفـاً أَلْوانُـهُ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيَـةً لِقَـوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) ، وقال : (هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْـرَ لِتَـأْكُلُوا مِنْـهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْـتَخْرِجُوا مِنْـهُ حِلْيَـةً تَلْبَسُـونَها وَتَـرَى الْفُلْــكَ مَــواخِرَ فِيــهِ وَلِتَبْتَغُــوا مِنْ فَضْــلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ ، وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِـيَ أَنْ تَمِيـدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) ، وقـال : (وَاللـهُ جَعَـلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَـقَ ظِلالاً وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبـالِ أَكْنانـاً وَجَعَـلَ لَكُمْ سَـرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَـرَّ وَسَـرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَـكُمْ كَـذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـلِمُونَ) ، وقال : (وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِـرَةً وَذِكْـرى لِكُـلِّ عَبْـدٍ مُنِيبٍ) ، وقــــال : (وَالْأَرْضَ مَـــــدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِـيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُـلِّ شَـيْءٍ مَـوْزُونٍ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ) ، وقـال في بـاب النبـات : (اللـهُ الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ

مِنَ الثَّمَـراتِ رِزْقـاً لَكُمْ) ، وقـال أيضا في حقه : (**هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ مِنَ السَّـماءِ مـاءً لَكُمْ مِنْـهُ شَـرابٌ وَمِنْـهُ شَـجَرٌ فِيـهِ تُسِـيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِـهِ الـزَّرْعَ وَالزَّيْتُـونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) ، وقـال : (**وَمِنْ ثَمَـراتِ النَّخِيـلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِـذُونَ مِنْـهُ سَـكَراً وَرِزْقـاً حَسَـناً إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيَـةً لِقَـوْمٍ يَعْقِلُـونَ**) ، وقـال في حق الحيـوان : (**وَالْأَنْعـامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنـافِعُ وَمِنْها تَـأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيها جَمـالٌ حِينَ تُرِيحُـونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَـدٍ لَمْ تَكُونُـوا بالِغِيـهِ إِلَّا بِشِـقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَـرَؤُفٌ رَحِيمٌ وَالْخَيْـلَ وَالْبِغـالَ وَالْحَمِـيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَـةً وَيَخْلُـقُ ما لا تَعْلَمُـونَ**) ، وقـال أيضا : (**إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعـامِ لَعِبْـرَةً نُسْـقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِـهِ مِنْ بَيْنِ فَـرْثٍ وَدَمٍ لَبَنـاً خالِصاً سـائِغاً لِلشَّـارِبِينَ**) ، وقـال : (**وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّـجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُـونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُـلِّ الثَّمَـراتِ فَاسْـلُكِي سُـبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِـفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيَـةً لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) ، وقـال : (**اللـهُ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ الْأَنْعـامَ لِتَرْكَبُـوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْـكِ تُحْمَلُـونَ**) ، وقـال مشـيرا إلى أن جميع ما في عــالم الأرض مخلــوق لأجل الإنسـان ، و (**خَلَـقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعـاً**) ، وقـال مشـيرا إلى أن ما في السـماء لأجله ، (**هُـوَ الَّذِي جَعَـلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَـرَ نُـوراً وَقَـدَّرَهُ مَنـازِلَ لِتَعْلَمُـوا عَدَدَ السِّـنِينَ وَالْحِسـابَ ،**) وقـال مشـيرا إلى أن إيجـاد الكل لأجلـه. (**وَسَـخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**).

فللإنسـان أن ينتفع بكل ما في هـذا العـالم على وجه من الوجــوه ، إما في غذائه وفي دوائه ، أو ملبوســاته أو مركوباته أو زينته أو الالتذاذ بشيء منها بصـورته أو صـوته أو طيبه أو رؤيته ، أو الاعتبــار به وباســتفادته العلم منه والاقتــداء بفعله فيما يستحسن منه ، والاجتنـاب عنه فيما يسـتقبح منه ، وقد نبه الله على منـافع جميع الموجـودات إما بألسنة الأنبياء عليهمالسـلام ، وإما بإلهـام الأوليـاء ، أو بغير ذلك من الإعلامات بالفكر والقياس والحــدس ، فحق الإنسـان أن ينتفع بكل شـيء في السـماء والأرض ، فقد أحسن من قال :

تعلمت من كل شـــيء أحسن ما فيه ، حـــتى من الكلب حمايته على أهله ، ومن الغــراب بكــوره في حاجته ، ولا يبعد أن يكـون قوله تعـالى : (**وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْـلِ**) الآية تنبيها للإنســـان على التعلم والاقتـــداء بالنحل في مراعاته لوحي الله تعـالى ، فكما أنها لا يتخطى وحي الله في مجرى المصـالح طبعا ، كـذا يجب على الإنسـان أن لا يتخطى وحي الله اختيارا.

قاعدة

في خلقة الإنسان وأنه الثمرة العليا واللبـاب الأصـفى والغاية القصـوى من وجـود سـائر الأكـوان ، والكلام هاهنا في مادة وجوده ، وسيجيء الكلام في صورة وجوده.

اعلم أن الطبيعة ما لم تـوف بالمــادة جميع درجــات النوع الأخس لم يتجاوز بها إلى النوع الأشرف ، وقد حقق بالبرهان أن الموجـود الأشـرف يجب أن ينـدرج فيه جميع المعــاني المتحققة في الموجــود الأخس على وجه أعلى وألطف ، وقد أشرنا آنفا إلى أن العناصر إذا امتزج بعضـها ببعض وخرجت بسبب اعتدال كيفياتها عن صرافة تضـادها وتعصيها عن قبول الفيض الإلهي تصـير قابلة لأثر من آثـار الحياة ، فـأول ما قبلته من إفاضة الله هي صـورة حافظة لتركيبها مبقية لوجودها بإذن الله تعـالى ، ثم إذا حصل لها امتزاج أتم واعتدال أفضل وأقـرب إلى الوحـدة الجامعة ، قبلت أثــرا آخر من آثــار الحيــاة أشــرف ، وهي النفس النباتية الــتي شــأنها التغذية والتنمية والتوليد للمثل ، وإذا امـتزجت امتزاجا أكـثر اعتـدالا وأرفع قـدما من التسـفل والتضاد والتفرقة ، وأقرب مقاما إلى عالم الصفاء والنــور ، تهيأت لقبول أصل الحياة بعد أن يستوفي درجات الجماد والنبـــات بفيضـــان النفس الحيوانية الحساسة المتحركة بـالإرادة ، وإذا لطفت المـادة العنصـرية جـدا حـتى تشـبه الجرم الفلكي صار محل استواء الـروح النطقي الإضـافي الــذي من الله مشــرقه وإلى الله مغربه ، ففي الإنســان شيء كالفلك وشيء كالملك ، وبهما جميعا يصـلح عمـارة الدارين ويستحق خلافة الله أولا في العالم الأسفل

الأرضي ثم في العــالم الأعلى الســماوي ، فقد تــبين أن وجود الإنسان لم يحــدث من الله إلا بعد اســتيفاء الطبيعة جميع درجـات الأكـوان ، وطيها منـازل النبـات والحيـوان ، فيجتمع في ذاته جميع القـــوى الأرضـــية والآثـــار النباتية والحيوانية ، وهذا أول درجات الإنسانية الـتي اشـترك فيها جميع أفــراد النـــاس ، ثم في قوته الارتقـــاء إلى عـــالم السماء ومجاورة الملكـوت الأعلى بتحصـيل العلم والعمل ، كما قـال تعـالى : (**إِلَيْهِ يَصْـعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَـلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**) ، ثم له أن يطوي بسـاط الكـونين ويرتفع من العـــالمين بـــأن يســـتكمل ذاته بالمعرفة الكاملة والعبودية التامة ، ويفـــوز بلقـــاء الله بعد فنائه عن ذاته ، وحينئذ يصير رئيسا مطاعا في العـالم العلـوي ، مسـجودا للملائكة السماوية ، يسـري حكمه في الملك والملكـوت ، ويسمع دعاؤه في حظـيرة قـدس الجـبروت ، قـال تعـالي في خلقة بـــدن الإنســـان : (**وَلَقَـدْ خَلَقْنَا الْإِنْسـانَ مِنْ سُـلالَةٍ مِنْ طِينٍ**) ، فــالطين مادته الأولى ، لأنه الجــزء الغـالب من عناصـره ، كالنـار في الجن ، والسـلالة مادته الثانية مرتبتها مرتبة المعـــدنيات لكـــون صـــورتها حافظة لتركيبها ، ولهذا عقب بقوله (**ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ**) ، وقوله (**ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَـــةَ عَلَقَـــةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَـةَ مُضْـغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْـغَةَ عِظاماً فَكَسَـوْنَا الْعِظـامَ لَحْمـاً**) ، إشــارة إلى المــراتب الســابقة على الإنسانية المشتركة جميع الحيوانات مع الإنسان ، وقوله : (**ثُمَّ أَنْشَـأْناهُ خَلْقـاً آخَـرَ فَتَبـارَكَ اللـهُ أَحْسَـنُ الْخـالِقِينَ**) ، إشـارة إلى نحو آخر من الوجـود ، مخـالف الـــذات والحقيقة لما ســبق من الأطــوار الســابقة على الإنسانية ، وهي كلها صور كونية قائمة بالجسم ، وهذا نور فـائض من الله قـائم بذاته ، بل بـذات الله تعـالى ، قيـام الضوء الوارد على وجه الأرض بـذات الشـمس لا بذاته ولا بـــذات الأرض بل الأرض مظهر قابل لظهـــوره ، وكـــذلك البدن العنصري باستعداده مظهر قابل لظهـور هـذا النـور الرباني الذي من الله مشرقه وإلى البــدن مغربه ومهبطه ، وسيرد إلى الله يوم طلعت الشمس من مغربها ، فتطلع هــذه النفس عند خــراب القــالب إلى خالقها ومنشــئها ، ويرجع إلى الله إما زاهرة مشرقة ، وإما مظلمة منكسـفة ، والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضـــــرة الإلهية ، إذ مرجع الكل ومصيره إليه ، إلا أنها ناكسة الرءوس

عن أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، ولذلك قال : (**وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**) ، وقال : (**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**) ، وهؤلاء هم المنافقون الذين هم أسوأ حالا من الكفار المحضة ، لأنهم المحجوبون أزلا وأبدا.

واعلم أن التحقيق يقتضي أن قوله : (**ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ**) مختص ببعض أفراد الناس كما ستعلم ، وبالجملة ظهر أن المقصود الأصلي من إيجاد الكائنات هو الإنسان الكامل الذي هو خليفة الله ، قوله تعالى : (**وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**) ، وقوله : (**إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ**) ، وقوله : (**ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**) ، وقوله ، (**يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ**) ، وقوله : (**وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ**) ، وقوله : (**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها**) ، كل ذلك إشارة إلى أنه لا يستصلح لخلافة الله وعمارة الدارين إلا الإنسان الكامل ، وهو الإنسان الحقيقي مظهر اسم الله الأعظم كما نبه بقوله : (**إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ**).

قاعدة

في ذكر العناصر التي منها تكون الإنسان

واعلم أنه ذكر الله تعالى في غير موضع من القرآن العناصر التي منها أوجد الإنسان ونبه على أنه جعله إنسانا في سبع درجات ، وأشار إلى ذلك في عدة مواضع مختلفة حسب ما اقتضت الحكمة ، فقال في موضع (**خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ**) إشارة إلى المبدإ الأول ، وفي آخر (**مِنْ طِينٍ**) إشارة إلى الجمع بين التراب والماء ، وفي آخر من (**حَمَإٍ مَسْنُونٍ**) إشارة إلى الطين المتغير بالهواء أدنى تغير ، وفي آخر (**مِنْ طِينٍ لازِبٍ**) إشارة إلى الطين المستقر على حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة ، وفي آخر (**مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**) إشارة إلى يبسه وسماع صلصلة منه ، وفي آخر (**مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ**) وهو الذي قد أصلح بأثر من النار فصار كالخزف ، وبهذه القوة

النارية حصل في الإنسان أثرا من الشيطنة ، وعلى هـذا المعـــنى دل بقوله : (**خَلَــقَ الْإِنْســـانَ مِنْ صَلْصـــالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَـقَ الْجَـانَّ مِنْ مـارِجٍ مِنْ نـارٍ**) ، فنبه على أن الإنسان فيه من القوة الشيطانية بقـدر ما في الفخـار من أثر النـــار ، وأن الشــيطان ذاته من المــارج الــذي لا استقرار له ، ثم نبه على تكميل الإنسان بنفخ الروح فيه ، بقوله : (**إِنِّي خـــالِقٌ بَشَـــراً مِنْ طِينٍ فَـــإِذا سَـــوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـــــــهِ مِنْ رُوحِي**) ، ثم نبه على تكميل نفسه بـالعلوم والمعـارف بقوله : (**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها**) ، وليس المراد منها صور الألفاظ ، بل المعاني والمفهومات ، ثم ذكر مادة خلقة الإنسان وتقلبها في الأطوار وتـدرجها من حالة إلى حالة ومن خلق إلى خلق ، فقـــال : (**لَقَـــدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَـةً فِي قَـــرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَـــةَ عَلَقَـــةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَـةَ مُضْـغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْـغَةَ عِظامـاً فَكَسَـوْنَا الْعِظـامَ لَحْمـاً ثُمَّ أَنْشَـأْناهُ خَلْقـاً آخَـرَ فَتَبـارَكَ اللـهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ**).

فإن قيل لم قال (**فَكَسَوْنَا الْعِظـامَ لَحْمـاً**) ولم يقل فخلقنا العظام لحما كما في السوابق.

قلنا لأن النطفة انتهت إلى صـــورة العظم الـــتي هي صـــورة نوعية جوهرية كغيرها من الأعضـــاء البســـيطة ، وليس من شـأنها الاسـتحالة إلى شـيء آخر إلا بعد فسـاد صـورتها ، وهي باقية الصـورة في بـدن الإنسـان ، وليس اللحم متكونا من النطفة كـــالعظم والربـــاط والعصب وغيرها ، بل أنشأ الله اللحم من الغـــذاء لا من النطفة ، وأجراها مجرى الكسوة الـتي تحصل لا من مـادة البـدن ، ولذلك إذا قطع من الإنسـان أو الحيـوان اللحم عـاد ، ولم يكن كـالعظم الـذي لا يعـود بعد قطعه ، وكـذلك العصب وغـيره ، وقـال أيضا : (**هُـوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُـرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ**) ، «فهـذا هو الأشد الصـوري والبلـوغ الحيـواني» (**ثُمَّ لِتَكُونُـوا شُـيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَـوَفَّى مِنْ قَبْـلُ**) «بأسباب قدرية مانعة عن الوصول إلى حد الشيخوخية» ، والغاية في هـــذا المقـــدار من العمر الوصـــول إلى الأشد المعنوي والبلوغ العقلي ، فإن هذا الكمال أعـني صـيرورة النفس عقلا بالفعل بعد ما كـــانت عقلا بـــالقوة ينشأ غالبا في حـــدود الأربعين وما بعـدها كما قـال : (**وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ**

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ، وأردف هذا الكلام بقوله : (**هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**) ، إشارة إلى الحياة العقلية النورية ، ومقابلها وهو موت الجهل كما في قوله : (**أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ**) الآية ، إشارة إلى أن مبدأ هذه الحياة من عالم الأمر الذي وجوده بكلمة الله التامة الوجودية ، ولا يتعلق وجوده بشيء آخر كبدن أو مادة أو طبيعة أو غيرها.

وقال تعالى إشارة إلى مبادي تكون الإنسان ونفسه : (**إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ**) ، وهذه التسوية فعل وقع من جانب الله في محل قابل لفيضان الروح بعد تردده في أطوار الخلقة بالتسوية والتعديل ، وكما أن القابل للصورة النارية لا يمكن أن يكون جسما يابسا محضا كالتراب والحجر ولا رطبا محضا كالماء والشجر الرطب ، بل لا بد لقبولها من مادة دخانية تحدث من نبات يابس لطيف فتشبث به النار وتشتعل فيه ، كذلك الطين ، بعد أن أنشأه الله خلقا بعد خلق في أطوار متعاقبة يصير نباتا ، فيأكله الآدمي فيصير دما ، فينزع القوة المميزة المركوزة في كل حيوان من الدم صفوه الذي هو أقرب إلى الاعتدال وأبعد من الكثرة والتضاد ، فيصير نطفة يقبلها الرحم ويمتزج بها مني المرأة فيزداد اعتدالا ، ثم ينضجها الرحم بحرارته فيزداد تناسبا حتى ينتهي في الصفا ، واستوى نسبة الأجزاء إلى غاية يستعد لقبول النفس وإمساكها ، كما يستعد الفتيلة الممتزجة بالدهن لقبول النارية وإمساكها ، ثم هذه النفس الآدمية كأنها نطفة روحانية وقعت من صلب القضاء في مشيمة البدن ورحم الدنيا ، يحتاج إلى تصفية وتعديل الأخلاق والملكات النفسانية ، بأدهان المعارف ولبوب الأغذية العلمية ، لتصير مادة لفيضان الروح الإلهي المنفوخ بإذن الله في قالب العقل الهيولاني بعد تطوره بالأطوار الملكية ، والتسوية عبارة عن هذه الأفعال المرددة لمادة خلقة الإنسان في الأطوار السالكة بها إلى صفة الاستواء صورة ومعنى.

فالتسوية تسويتان ، بإحداهما يحصل الإنسان البشري لأجل فيضان

النفس عليه ، وبالأخرى يحصل الإنسان الملكي بواسطة فيضان الروح الإلهي على نفسه ، فالتسوية الأولى للبدن والثانية للنفس ، كما قال : (**وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها**) ، وقوله أيضا مشيرا إلى مبادي أطوار الخلقة ونهايات كمالها ، (**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ**) ، وهذه التسوية المذكورة هاهنا هي التي وقعت من فعل الله بعد خلق الإنسان ونسله ، وهذا الروح المنفوخ المضاف إلى الله هو الروح الأمري الذي من عالم الأمر لا النفس التي وقع فيه الاشتراك لجميع الناس ، وقوله (**وَجَعَلَ لَكُمُ**) على سبيل الخطاب لجماعة مخصوصين من هذه الأمة المرحومة دال على أن المراد بهذا السمع والبصر والأفئدة ما هي المخصوصة بأهل الفضل والكمال ، لا الذين أصمهم الله (**وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ**) ، فهم ممن ليس لهم سمع عقلي ولا بصر عقلي ولا فؤاد نوراني ، فيظهر من هذا أن المراد من الروح المذكور هو الروح العلوي الإلهي لا البشري النفساني.

ثم أشار إلى أن هذا الروح هو المستحق للقاء الله ، وهو يكون في قليل من أفراد الناس ، ولهذا قال : (**قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ**) إلى قوله (**بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ**) وهذا حال أكثر الناس.

قاعدة

في فضل معرفة الإنسان نفسه

اعلم أن في معرفة النفس الإنسانية اطلاعا على أمور كثيرة.

أحدها أنه بواسطتها يتوصل إلى معرفة غيرها ، ومن جهلها جهل كل ما عداها.

والثاني أن النفس الإنساني مجمع الموجودات كما سيظهر ، فمن عرفها فقد عرف الموجودات كلها ، ولذلك قال تعالى : (**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي**

أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ) ، تنبيها على أنهم لو تدبروا أنفسهم وعرفوها ، عرفوا بمعرفتها حقائق الموجودات فانيها وباقيها ، وعرفوا بها حقيقة السماوات والأرض ، ولما أنكروا البعث الذي هو لقاء ربهم وقال : (**سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ**) ، وقال : (**وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**).

والثالث أن من عرف نفسه عرف العالم ، ومن عرف العالم صار في حكم المشاهد لله تعالى ، لأنه خالق السماوات والأرض ، ولم يك كالكفرة الجهلة الذين اتكلهم الله ووبخهم في جهلهم وانحطاطهم عن هذه المنزلة ، فقال فيهم : (**ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً**).

والرابع أنه يعرف بمعرفة روحه العالم الروحاني وبقاءها ، وبمعرفة جسده العالم الجسداني ودثورها وفناءها ، فيعرف خسة الفانيات الداثرات ، وشرف الباقيات الصالحات ، كما قال : (**الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**).

والخامس أن من عرف نفسه عرف أعداءه الكامنة فيها المشار إليه بقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» فيستعيذ منها ، كما في قولهم عليهم‌السلام : «اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي ، وقوله : لا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأهلك» ، ومن عرف أعاديه الكامنة ومكايدها وكيفية انبعاثها ، أحسن أن يحترز منها وأن يجاهدها ، فيستحق ما وعد الله به المجاهدين في سبيله ، ومن لم يعرفها فجدير أن يتراءى له عدوه الذي هواه بصورة العقل ، فيسول له الباطل بصورة الحق ، كما قال : (**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ**) ، وقوله : (**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ**) ، وكما ورد في قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله : الهوى شيطان ، وقوله : الهوى إله يعبد من دون الله ، وروي أيضا أنه قال : ما عبد في الأرض إله أبغض إلى الله تعالى من الهوى ، ثم تلا (**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ**).

والسادس أن من عرف نفسه عـرف أن يسوسـها ، ومن أحسن أن يسوس نفسه وجنودها أحسن أن يسـوس العالم فيستحق أن يصير من خلفاء الله تعـالى المـذكورة في قوله تعـــالى ، (**لَيَسْـــتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ**) ، ومن الملوك المذكورة في قوله : (**وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً**).

الســـابع أن من عرفها لم يجد عيبا في أحد إلا رءاه موجـودا في ذاته ، إما ظـاهرا مشـهودا وإما كامنا كمـون النـــار في الحجر ، فلا يكـــون غيابا همـــازا لمـــازا معجبا متفـاخرا ، فـإن كل عيب تـراءى له من غـيره وجـده في نفسه ، ومن تـــراءى له عيب نفسه فجـــدير به أن يكـــون ممن دعا له النبي صلىاللهعليهوآله بقوله : رحم الله من أشغله عيبه عن عيب غيره.

والثـامن أن من عـرف نفسه فقد عـرف ربه ، وقد روي أنه ما أنـــزل الله كتابا إلا وفيه ، اعـــرف نفسك يا إنسان تعرف ربك ، وفي الخبر ثلاثة تأويلات.

أحدها أن بمعرفة النفس يتوصل إلى معرفة الـرب ، كقولك : اعرف العربية تعـرف الفقه ، أي بمعرفة العربية يتوصل إلى معرفة الفقه ، وإن كان بينهما وسائط.

والثـــاني أنه إذا حصل معرفتها حصل بحصـــول معرفتها معرفة الله بلا فاصل ، كقولك : بطلـوع الشـمس يحصل الضـــوء ، مقترنا بها وبطلوعها غـــير متـــأخر عنه بزمان.

والثـالث أن معرفة الله ليست تحصل إلا أن تعـرف النفس ، لأنك إذا عرفتها على الحقيقة تعرف العالم ، وإذا عرفت العالم تعرف الحق تعالى.

وفيه وجه رابع وهو أنك إذا عرفت النفس فقد عرفت الرب ، وهذا هو الغاية في معرفته ، لا يمكن لك فوق هذه المعرفة ، وإليه الإشـارة بما قـال علي عليهالسـلام : إن العقل لإقامة رسم العبودية لا لإدراك الربوبية ، ثم تنفس الصعداء وأنشأ يقول :

كيفية النفس ليس المـــرء يـــدركها	فكيف معرفة الجبـــار في القـــدم
هو الـــذي أنشأ الأشـــياء مبتـــدعا	فكيف يدركه مســـتحدث النسم

وقوله تعـالى : (**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ**) ، تنبيه على أنهم لو عرفوا أنفسهم لعرفوا الله ، فلما جهلوا دل جهلهم إياه على جهلهم أنفسهم.

قاعدة

في الإشارة إلى قوى الأشياء التي جمعت في الإنسان

قد جمع الله فيه قوى العالم ، وأوجده بعد وجود الأشياء التي جمعت فيه ، قال تعالى تنبيها على ذلك ، (**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ**) ، فإنه تعالى أوجد فيه بسائط العالم ومركباته وروحانياته وجسمانياته ومبدعاته ومكوناته ، فالإنسان من حيث إنه جمع فيه جميع ما وجد في العالم من أقسام الجواهر والأعراض والبسائط والمركبات والأرواح والأجسام هو العالم ومن حيث إنه صغر شكله وجمع فيه قوى العالم ، فهو كالمختصر من الكتاب والنسخة الموجزة المنتخبة منه ، لأن المختصر الموجز من الكتاب هو الذي قلل لفظه واستوفى معناه ، والإنسان هو هكذا إذا قابلناه مع العالم ، ومن حيث إنه صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمرته فهو كالزبد من المخيض والدهن من السمسم والزيت من الزيتونة ، ومعرفة الله فيه إذا حصلت فكنور المصباح إذا اشتعل الزيت ، قال تعالى : (**مَثَلُ نُورِهِ**) ، أي في قلب المؤمن كما في قراءة ابن مسعود (**كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ**) الآية ، فالمشكاة البدن ، والزجاجة الروح الحيواني التي هي بمنزلة المرآة لصفائها وقبولها لصور المحسوسات ، التي هي عكوس الصور الحقيقية وأشباحها المثالية ، والزيت القوة القدسية التي هي أفضل ضروب العقل الهيولاني ، وهو أول درجة النفس الناطقة وآخر درجة النفس الحساسة ، وهو بعينه القوة الخيالية عندنا ، لأنها أيضا مجرد عن البدن موجودة لا في عالم الطبيعة ، بل فيما فوق هذا العالم ، والشجرة المباركة هي القوة الفكرية التي هي أفضل ضرب من القوة الخيالية ، لأنها إذا قويت تصير متفكرة.

فإذن نقول في بيان أن الإنسان مطابق للعالم : إن فيه أشياء هي أمثال ما في العالم الكبير ، ففيه أشياء كالعناصر من حيث ما فيه من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، أو من حيث ما فيه الدم والبلغم والصفراء والسوداء ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ**) ، أي مختلطة من قوى أمور مختلفة ، وفيه أشياء كالمعادن والجبال من حيث ما فيه من العظام والأعضاء ، وشيء كالنبات من حيث ما يتغذى وينمو ويولد ، وشيء كالبهيمة من حيث ما يحس ويتخيل ويلتذ ويتألم ويشتهي ويغضب ، وشيء كالسباع من حيث ما يحارب ويصول ، وكالشيطان من حيث ما يغوي ويضل ، وكالملائكة من حيث ما يعرف الله ويعبده ويهلله ويحمده ويسبحه ويقدسه ، وكاللوح المحفوظ لقوة حفظه لمدركات الأشياء أو من حيث ما جعله مجمع الحكم التي كتبها فيه على سبيل الاختصار.

وقد ذكر بعض الحكماء أن في بدن الإنسان أربعة آلاف حكمة وفي نفسه قريبا من ذلك ، وكالقلم من حيث ما يستحضر ويستثبت صور المعقولات في نفسه على وجه التفصيل بقوة عقله البسيط الذي كمن فيه الكل على وجه الإجمال ، أو من حيث ما يثبت بكلامه صور الأشياء في قلوب الناس ، كما أن القلم يثبت الحكم والعلوم في اللوح المحفوظ وقلوب الملائكة ، ولأجل صحة المطابقة بين الإنسان والعالم قال : (**ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ**).

قاعدة

في ذكر تكون الإنسان شيئا فشيئا حتى يصير إنسانا كاملا

الإنسان يتكون أولا من أمر عدمي ، وهي قوة هيولانية ، وإليه الإشارة (**هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً**) ، ويتكون أيضا جمادا ميتا ، لقوله تعالى : (**كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ**) ، وذلك حيث كان ترابا وطينا وصلصالا ونحوها ، ثم يصير نباتا ناميا لقوله تعالى : (**وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً**) ، وذلك حيث ما كان نطفة وعلقة ومضغة ، ثم يصير حيوانا

لقوله : (فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً) ، ثم يصير إنسانا بشريا متفكرا متصرفا في الأمور ، لقوله : (إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) ، وقوله : (أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً) ، ثم يصير إنسانا معنويا ذا نفس ناطقة ، لقوله : (ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ) ، ثم يصير إن ساعده التوفيق والعناية جوهرا قدسيا وروحا إلهيا ، لقوله : (فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ).

وأول ما يظهر فيه قوة النزاع الموجودة في النبات والحيوان وهو الميل إلى الملائم ميلا بالطبع ، ثم قوة تناول الموافق ودفع المخالف ، وهي قوة الشهوة والنفره ، ثم الإحساس ثم التخيل ثم التصور ثم التفكر ثم التعقل النفساني التفصيلي ثم العقل البسيط الإجمالي ، لكنه لم يصر إنسانا إلا بالفكرة وبالعقل الذي به يتميز في الجملة بين الحلال والحرام في الأفعال ، وبين الخير والشر في الذوات ، والجميل والقبيح في الصفات ، وهو أول درجة الإنسانية.

وإلى العقل أشار بقوله تعالى : (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) ، فالإنسان صار بعقله معدن العلم ومركز الحكمة ، ووجود العقل فيه في ابتداء الأمر بالقوة ، كوجود النار في الحجر المحتاج في أن يوري إلى القدح وكوجود النخل في النواة المحتاج في أن يثمر إلى غرس وسقي ، ونفس الإنسان واقعة بين عالمين عالم الملكوت وعالم الملك ، بل بين قوتين قوة العقل وقوة الشهوة ، فبقوة الشهوة يحرص على تناول اللذات والمشتهيات البهيمية والسبعية ، وبقوة العقل يحرص على تناول العلوم الحكمية والأفعال الجميلة ، وإلى هاتين القوتين أشار بقوله : (إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) ، والأغلب على أكثر الناس هي قوة الشهوة والميل إلى الدنيا ، ولذلك قال تعالى : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ) ، ولذلك قال صلى‌الله‌عليه‌وآله : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ، ولأجله لا يستغني أكثر الناس في سلوك طريق الآخرة عن سياسة قاهر زاجر إياه ، حتى ورد أنه قال عليه‌السلام : يا عجبا لقوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل.

وبالجملة فــذات الإنســان من حيث ما اجتمع قــوى جميع الموجــودات صــار معــدن آثارها ومجمع حقائقها ، مســتودعا فيه معــاني العــالم ، وكأنه مــركب من جمــاد ونبات وبهائم وسباع وشياطين وملائكة ، ولذلك يظهر في شعار كل واحد منها ، فيجري تـارة مجـرى الجمـادات في الكسل وقلة التحــرك والانبعــاث ، وعلى هــذا نبه بقوله : (**ثُمَّ قَسَتْ قُلُـوبُكُمْ مِنْ بَعْـدِ ذلِـكَ فَهِيَ كَالْحِجـارَةِ أَوْ أَشَـدُّ قَسْـوَةً**) ، وقد يظهر في شــعار النباتــات الجميلة والذميمة ، فيصير إما كالأترج في لونه وطيبه وطعمه ، أو كالنخل والكـــــرم في المنــــافع ، أو كالحنظل في خبث المـذاق ، وكالكشـوث [1] في عـدم الخـير ، وعلى هـذا نبه بقوله : (**مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً**) و (**مَثَلُ كَلِمَـةٍ خَبِيثَـةٍ**) الآية ، ويظهر تارة في شعار الحيوانات المحمودة أو المذمومة ، فيصــير إما كالنحل في كــثرة منافعه وقلة مضــاره وفي حسن سياسته ، كما في قوله تعالى : (**وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْـلِ**) الآية ، او كـالخنزير في الشـره ، او كالــذئب في العيث [2] ، أو كالكلب في الحرص ، أو كالنمل في الجمع والادخــار ، او كالفــأرة في الســرقة ، أو كــالثعلب في المراوغة [3] ، أو كـالقرد في المحاكـاة ، أو كالحمـار في البلادة ، أو كـــــالثور في الأكل ، وإلى هـــــذا النحو من المشابهات دل بقوله تعـالى : (**وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ**) ، ويظهر تارة في صـفات الشـياطين ويسـول الباطل في صـورة الحق كما دل بقوله تعـالى : (**شَـياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُـوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**).

وأفضل قــوة فيه الــتي بها يســتحق خلافة الله في العالم هي القوة العقلية ، وأشرف صفاتها التي بها يفــوق على الملائكة كلها هي العلم والحكمة ، كما جعل الله النبــات زبــدة العناصر والحيــوان زبــدة النبــات ، وجعل الإنسان سلالة العالم وزبدته ، وهو المخصـوص بالكرامة ، كما قال : (**وَلَقَدْ**

---

(1) نبـات مجتث مقطـوع الأصل وهو أصـفر يتعلق بـأطراف الشـوك وغيره والذي يركب النباتات الزارعية.

(2) عاث الذئب في الغنم أي أسرع في إفساده.

(3) خادعه أي على وجه المكر.

كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ) الآية ، فكذا جعل قـوة العقل والمعرفة غاية وجود الإنسان والغـرض منه ، إذ ليس فضل الإنسـان بقــوة الجسم ، فالفيل والبعـير أقـوى منه أجسـاما ، ولا بطول البقاء في الدنيا ، فالنسر والفيل أطول منه عمرا ، ولا بقوة الغضب وشـدة البطش ، فالأسد والنمر منه أشد بطشا ، ولا باللبـاس والزينة ، فالطـاوس والـدراج أحسن منه لباسا ، ولا بقوة النكاح ، فالحمار والعصفور أقوى منه نكاحا ، ولا بكثرة الذهب والفضة ، فالمعادن والجبال أكـثر منه ذهبا وفضة ، وما أحسن قول الشاعر.

لو لا العقــول لكــان أدنى ضـــــــــــــــــــــيغم	أدنى إلى شـــــــــرف من الإنســــــــــــــــــان
لما تفاضـــــلت النفـــــوس ودبـــــــــــــــــــرت	أيدي الكماة عوالي المران

وليس فضل الناس على غيره بعنصره الموجود منه ، كما زعم إبليس اللعين حيث قـــال : (**خَلَقْتَنِي مِنْ نــــارٍ وَخَلَقْتَـــهُ مِنْ طِينٍ**) ، بل ذلك بما خصه الله تعـــالى من المعـنى الـذي ضـمنه فيه ، والأمر الـذي أعطـاه له وبه استحق سجدة الملائكة ، فأشار إليه بقوله تعـالى : (**فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سـاجِدِينَ**) ، والملئكة لما تنبهوا بذلك فأذعنوا وسجدوا له ، كما أمرهم الله ، وإبليس لما نظر ظـــاهر آدم ومبـــدأ أمـــره تغلظ وتعامى فيما ذكـره الله تعـالى ، ولم يتأمل المعـنى الـذي ضــــمنه الله فيه ، والعاقبة الــــتي حوله الله إليها (**أَبى وَاسْتَكْبَرَ**) ، وقد اقتدى بإبليس الكفار في رد الأنبياء حيث قالوا «(**ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ**) ، وقوله : (**ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْـواقِ**) ، ونبه الله تعـالى أن الاعتبـار بفضـلهم ليس بظاهر أبدانهم ، وإنما ذلك لمعـنى مسـتودع في نفوسـهم تعمى الكفار عنها فقال : (**وَتَراهُمْ يَنْظُـرُونَ إِلَيْـكَ وَهُمْ لا يُبْصِــرُونَ**) ، أي لا يعرفــون ما فضــلهم الله به (**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ**) ... (**ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللـهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**) ..

قاعدة

في تفاوت أفراد الناس واختلافهم

الأشـــياء كلها متســـاوية غـــير متفاوته من حيث إنها مصـنوعة بحكمة صـانع واحد حكيم ، وعلى ذلك نبه بقوله تعالى : (**ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ**) ، وذلك لاشـــتراكها بقبـــول فيض الرحمة والجـــود ، ولاتفاقها في التوجه إلى جـانب الحق المعبـود ، ولكن يختلف من حيث إن كل نوع يختص بمعـنى معين وحد محـدود ، بعد اتفاقها في الاتصـاف بـالوجود ، فـاختلاف الماهيـات أنما نشأ من اختلاف مراتبها في القرب والبعد من منبع الوجود ومعدن الفيض والجـود ، وكـذلك يختلف أفـراد ماهية واحـدة بعد اتفاقها في النوع بأمور لاحقة لها مخصصة لأفرادها ، ثم لا شيء من أفـراد نـوع واحد أكـثر اختلافا وتفاوتا من أفـراد البشر ، كما قال تعالى : (**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً**) ، وقال : (**وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجـاتٍ**) ، وقـال : (**انْظُـرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجـاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً**).

واعلم أن اختلاف أفراد الإنسان بحسب هـذه النشـأة اختلاف بـــالعوارض ، وبحسب النشـــأة الآخروية اختلاف بالذاتيات ، وتحقيق ذلك موكول إلى بعض كتبنا ، وسنشير إليه فيما سـيأتي من أحـوال المعـاد ، وقـال : (**وَلَوْ شـاءَ اللـــهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِـــدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُـــوَكُمْ فِي ما آتـاكُمْ**) ، وقـال : (**وَلَـوْ شـاءَ رَبُّكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ**).

واعلم أن الحكمة مقتضـية لاختلاف النـاس في هـذه النشأة ، وذلك لأن الإنسان لما كان غير مكفي بتفرده لأن يعيش ، حـتى لو أن إنسـانا حصل وحـده لامتنع أو تعـذر بقـاؤه أدنى مـدة ، فـإن أول ما يحتـاج إليه ما يغـذوه وما يواريه ، وليس يجد ما يغـــــــذوه مطبوخا ، ولا ما يواريه مصنوعا ، كما يكـون لكثـير من الحيوانـات بل هو مضـطر إلى إصلاحهما ، وإصلاح شيء منهما يحوجه إلى آلات غـير مفـــروغ عنها ، والإنســـان الواحد لا توصل له إلى إعـــداد جميع ما يحتـاج لتعيش به المعيشة الحميـدة ، فلم يكن بد للناس ممن

يشـارك ويعـاون ، فجعل لكل قـوم صـنعة وهيئة مفارقة للصـنعة الأخـرى وهيئاتها ، فقسـمت الصـناعات بينهم كما قـال : (**نَحْنُ قَسَـمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَـتَهُمْ**) ، فيتـولى كل صـنعا من الصـناعات فيتعاطـاه بـاهتزاز ، كما قـال : (**فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُـراً كُـلُّ حِـزْبٍ بِما لَـدَيْهِمْ فَرِحُـــونَ**) ، فاقتضى ذلك أن يختلف جثثهم وقـــواهم وهممهم وأغراضـهم ، ليكـون كل ميسـرا لما خلق له ، وقال : (**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ**) ، فيكون معايشهم مقتسـمة بينهم كما نبه تعـالى بالآيـات المتقدمة ويمثل قوله : (**وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ**) ، فالناس إذا اعتـبروا من حيث اختلاف أغراضـهم ودواعيهم وهممهم فهم في تعـاطي صـناعاتهم في حكم المسـخرين ، وإن كانوا في الظاهر من المختارين ، وقد وقعت الإشـارة إلى ما يتعلق بالمصـلحة بتبـاين النـاس في ما روي أنه قـال صـلىاللهعليهوآله : لا يـزال النـاس بخـير ما تبـاينوا فـإذا تساووا هلكوا.

تذكرة فيها تبصرة

واعلم أن أسباب تفاوت الناس في الصنائع والأغراض أمور سبعة.

أولها اختلاف الأمزجة وتفـــــاوت الطينة واختلاف الخلقه ، كما أشـير إليه فيما روي «إن الله لما أراد خلق آدم أمر أن يؤخذ قبضة من كل أرض فجـاء بنو آدم على قـدر طينتها الأحمر والأبيض والأسـود والسـهل والحـزن والطيب والخـبيث» ، وإلى هـذا أشـار بقوله : (**وَالْبَلَـدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِـإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْـرُجُ إِلَّا نَكِداً**) ، وبقوله : (**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ**).

وثانيها اختلاف أحوال الوالدين في الصلاح والفساد ، وذلك أن الإنسان قد يـرث من أبويه آثـار ما هما عليه من جميل السيرة أو قبيحها ، كما يرث تشـابههما في خلقتهما ، ولهذا قال تعالى : (**وَكـانَ أَبُوهُما صـالِحاً**) ، وعلى نحو ما روي أنه قال في التـوراة إني إذا رضـيت بـاركت ، وإن بركتي

لتبلغ البطن السابع ، وإذا سـخطت لعنت وإن لعنـتي لتبلغ البطن السـابع تنبيها على أن الخـير والشر الـذي يكتسـبه الإنسان ويتخلق به يبقى أثره موروثا إلى البطن السابع.

والثـالث اختلاف ما يتكـون منه النطفة الـتي تكـون منها الولد ، ودم الطمث الــذي يــتربى به ، فلــذلك تــأثر بحسب طيب ما يكونـــــان منه وخبثه ، ولهـــــذا قـــــال صلى‌الله‌عليه‌وآله : تخيروا لنطفكم ، وقال : الناكح غارس فلينظر أين يضع غرسه ، وقـال : إيـاكم وخضـراء الـدمن قيل وما خضراء الدمن ، قال : المرأة الحسـناء في منبت السوء.

ورابعها اختلاف ما يتغـــــذى به من طيب الرضـــــاع وطيب المطعم الـذي يـتربى به ، ولتـأثير الرضـاع الطيب ورد في الحديث «الرضاع يغير الطبـاع» ، ويقـول العـرب لمن تصفه بالفضل «لله درك».

وخامســها اختلاف أحــوالهم في تــأديبهم وتلقينهم وتعويدهم العادات الحسنة والقبيحة ، فحق الوالد أن يأخذ الولد بــالآداب الشـرعية ، وإخطـار الحق بباله ، وتعويـده فعل الخــيرات ، كما قــال صــلى‌الله‌عليه‌وآله : مــروهم بالصـلاة لسـبع ، واضـربوهم لعشر ، ويجب أن يصـان عن مجالسة الأردياء في حـال صـباه ، فإنه كالشـمعة يتشـكل بكل شـــكل ، وأن يحسن في عينه الكرامة والشـــرف والمــدح ، ويقبح عنــده المهانة والمذلة والخسة والــذم ، ويعــوده مخالفة الشــهوة ومجانبة الهــوى ، قــال بعض الحكماء : من سـعادة الإنسـان أن يتفق له في صـباه من يعوده تعاطى الشريعة ، حتى إذا بلغ الحلم وعرف وجوبها فوجــدها مطابقة لما يعودها قــويت بصـيرته ونفـذت في تعاطيها.

وسادســــــها من يتخصص به ، فيأخذ طريقة فيما يتمذهب به.

وســابعها اختلاف اجتهــاده في تزكية نفسه بــالعلم والعمل حين استقلاله بنفسه.

فالفاضل التام الفضيلة من اجتمعت له هذه الأسـباب المسـعدة ، وهو أن يكـون طيب الطينة معتـدل الأمزجة ، جاريا في أصلاب آباء صلحاء ذوي أمانة واستقامة ، متكونا من نطفة طيبة ودم طمث طيب على مقتضى الشرع ،

ومرتضع بــدر طيب ، مــأخوذا في صــغره من قبل مربية بــالآداب الصــالحة ، وبالصــيانة عن مصــاحبة الأشــرار ، ومتخصصا بعد بلوغه بمــذهب حق ، ومجتهــدا بنفسه في تعــرف الحق مســارعا إلى الخــير فمن وفق في هــذه الأشـياء يجمع فيه الخـيرات من جميع الجهـات ، كما قـال تعــالى : (**لَأَكَلُــوا مِنْ فَــوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**) ، ويكـون جـديرا أن يعد ممن وصـفه الله تعـالى : (**وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ**) ، والـرذل التـام الرذيلة ، هو من يكون بعكس ذلك في الأمور التي ذكرناها.

قاعدة

في أن أفراد البشر ذوات نفوس حيوانية جزئية مجردة

كلها عن البدن الطبيعي لا عن الصورة المثالية

اعلم أن لكل من أفـــراد البشر قـــوة خيالية يحضر عنـدها الصـور الإدراكية الغـير الموجـودة في مـواد هـذا العالم ، إذ ليست هي ذوات جهات وأوضاع وأحياز من هذا العالم الطبيعي ، وكل قوة هذا شأنها فهي مجـردة الـذات عن المواد الطبيعية ، فلكل من أفراد البشر خيـال بالفعل ، ولأجل ذلك يحشرون في الآخرة ويبعثون إلى عــالم آخر قوله تعالى : (**يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجــاً**) ، ولسائر الحيوانات نفوس حساسة بالفعل متخيلة بـالقوة ، فليس لها نشأة أخـرى ، ولا حشر ولا نشر ، اللهم إلا على ضرب آخر لا على وجه الامتيـاز والاسـتقلال كما بينـاه في بعض رسائلنا.

قاعدة

في أن أفراد الإنسان تصير متخالفة الحقائق والماهيات في

آخر الأمر بحسب الباطن ، بعد ما كانت متفقة الحقيقة

والماهية في بداية الخلقة ، بيان ذلك

أن النفس الإنســـانية هي آخر الصـــور الجســـمانية وأفضلها ، وأول

المعـــاني الروحانية وأدونها ، لأنها جســـمانية الحـــدوث روحانية البقاء ، وأنها إنما تحدث بسـبب اسـتعداد البـدن ، وتبقى بسبب ملكات نفسانية راسخة تصـير صـورة ذاته ، وتخـرج بها من القـوة إلى الفعل ، لأنها في أول الحـدوث أمر بالفعل في هـــذه النشـــأة الطبيعية ، وهي بعينها أمر بـالقوة في النشـأة الآخـرة ، فهي صـورة في هـذا العـالم وهيولى في عالم آخر ، فلها أن تخرج ذاتها من القـوة إلى الفعل بواسـطة حركـات واسـتحالات نفسـانية تسـتعد بها لصـورة من أجنـاس الصـور الأخروية وتتحد بها ، وتصـير ذاتها بعينها كـــالهيولى للأجســـام الطبيعية أن يخـــرج من القـوة إلى الفعل بواسـطة حركـات جسـمانية تسـتعد بها لصـورة من أجنـاس الصـور الدنياوية ويتحد بها ، كما هو التحقيق من الاتحـاد بين المـادة والصـورة ، وكما أن الله خلق في هـــذا العـــالم من المـــادة الجســـمانية أنواعا من الحيوانات كالسباع والبهائم والوحوش والحيات والعقـارب وغيرها ، فكـذلك يخلق في الآخـرة من المـادة النفسـانية من الإنســـان أنواعا من المخلوقـــات كالملك والشـــيطان والسبع والبهيمة وكل نوع من أنواع الحيوانات ، وهي كلها مخلوقة من النفس الإنســـانية ، والإنســـان نـــوع واحد في هـذا العـالم ، كما قـال تعـالى : (**إِنَّما أَنَا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ**) ، وستصير أنواعا من أجناس كثـيرة متخالفة ، وفي القـرآن آيـات كثـيرة دالة على ما ذكرنـاه من التحقيق ، وهو مما ألهمنا الله به خاصة من بين أهل النظر ولم أجد في كلام أحد من الحكمـــاء وغـــيرهم ، والحمد لله العزيز الوهـــاب الـــذي شـــرفنا به من بين الأصـــحاب ، منها قوله تعـــالى : (**وَيَـوْمَ نَحْشُـرُ مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ فَوْجـاً مِمَّنْ يُكَـذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُـونَ**) وقوله : (**يَوْمَئِذٍ يَصْـدُرُ النَّاسُ أَشْـتاتاً لِيُـرَوْا أَعْمـالَهُمْ**) ، وقوله : (**وَما كـانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِـدَةً فَـاخْتَلَفُوا ، وَلَـوْ لا كَلِمَـةٌ سَـبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**).

يعـــني حكم عليهم في الـــدنيا بما هو مقتضى صـــور قلـوبهم وظهورها في الخـارج وتشـكل أبـدانهم بأشـكال مناسبة لهيئـات نفوسـهم كما في الآخـرة ، وقوله : (**وَلَـوْ شـاءَ اللـهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِـدَةً وَلكِنْ يُضِـلُّ مَنْ يَشـاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) ، وقوله : (**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ**

تَحْكُمُــونَ) ، وقوله : (**هَــلْ يَسْــتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُــونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُــونَ**) ، وقوله : (**وَامْتــازُوا الْيَــوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُـونَ**) ، وقوله : (**ما كـانَ اللـهُ لِيَـذَرَ الْمُـؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْــهِ حَتَّى يَمِــيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**) الآية ، وقوله في حق بلعم بن بــاعور : (**فَمَثَلُــهُ كَمَثَــلِ الْكَلْبِ**) ، وفي حق حملة الأسـفار من غـير فهم : (**مَثَـلُ الَّذِينَ حُمِّلُـوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَـلِ الْحِمـارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيـاتِ اللهِ**) ، وقوله : (**أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَـلْ هُمْ أَضَـلُ**) ، وقوله في حق بعض أفراد البشر (**أُولئِكَ هُمْ شَـرُّ الْبَرِيَّةِ**) وفي حق بعض آخر (**أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**).

ولا شبهة في أن نفس من هو خير الخلائق لا تسـاوي في الحقيقة النوعية لنفس من هو شر الخلائق ، وما أشد في الســخافة والبطلان قــول من زعم أن نفس أفضل البرية خـاتم الأنبيـاء صـلىاللهعليهوآله مع نفس أبي جهل متمــاثلان في تمــام الحقيقة النوعية الإنســانية ، وإنما التخالف بينهما بواسطة عوارض وأحوال خارجة عن تمـام الماهية النوعية وعن أصل الجوهر والذات.

واعلم أن الله قد حكم بكفر من قال بأن نفس النـبي صلىاللهعليهوآله مماثلة لنفـوس سـائر البشر في قوله : (**فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا**) ، وقوله تعالى : (**أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُـهُ**) وأما قوله تعـالى : (**قُـلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**) فإنما ذلك بحسب هذه النشأة الظاهرة.

قاعدة

في أن الروح الناطقة باقية بعد خراب البدن وبيانه على ما هو المشهور

أن أجزاء البدن يتحلل ويتبـدل والمـدرك منك ثـابت ، فلو كانت النفس تبطل ببطلان البدن لبطلت عند التبدل ، كيف وعلاقتها مع الــروح البخــاري وهو أبــدا في التحلل والسيلان ، ولأن كل ما ينعدم فانما ينعـدم بانعـدام شـيء من علله وأسبابه ، والنفس ليست لها مادة ولا صـورة بل صورتها ذاتها وفاعلها غير قابل للفناء ، وكذا غايتها ، وإذ لا محل لها فلا مضاد ولا

مزاحم لها حتى يبطلها أو يتغير به استعداد محلها ، وليس بينها وبين البـدن إلا علاقة شـوقية وهي إضـافة والإضـافة أضعف الأعراض ، وزوالها لا يوجب زوال الـذات المضـافة ، وإلا لكـان أضـعف الأعـراض مقوما لوجـود الجـوهر وهو محـال ، هـذا خلاصة كلام الفلاسـفة في هـذا البـاب وفيه بحث من وجهين.

الأول أن النفس الإنسانية عنـدهم جـوهر عقلي وإنها عنـــدهم أولا عقل بـــالقوة وإنما يصـــير عقلا بالفعل بعد مزاولة الاكتساب وتحصيل العلـوم الحقيقية ، حـتى يخـرج ذاتها من القـــوة إلى الفعل ، فقبل صـــيرورتها عقلا كيف يبقى بدون البدن مستقل الوجود مفارق الذات ، فـإن كل مفارقة الذات مستقل الوجود عنــدهم عقل بالفعل ، وكل عقل بالفعل كامل في العلم والمعرفة ، والمقــدر خلافه ، هـذا خلف ، ولهـذا وقع الاختلاف بين تلامـذة المعلم الأول وشراح كلامه في بقـاء العقل الهيـولاني بعد بـوار البـدن ، فـذهب الإسـكندر الأفروديسي إلى أن النفـوس الإنسـانية إذا فارقت الأبدان وهي هيولانية ، فإنها تبطل إذ لم يتصور بشــيء من الصــور العقليه الــتي تقــوم بها بالفعل ، وأما ثامسطيوس فإنه كان يخالفه في هذا الرأي ويرى أن هذه القوة باقية ، وأما رئيسـهم أبو علي فقد مـال إلى مـذهب ثامسطيوس في أكثر كتبه ومال إلى مذهب الإسكندر في بعض رسائله.

واعلم أن الموافق لأصول الفلاسفة القائلين بعرضــية القـوة الخيالية ، الغـافلين عن جوهريتها وقوامها بـذاتها لا بالعضو الدماغي ، هو المذهب الأول لما أشرنا إليه من أن المــادة العقلية لا وجــود ولا بقــاء لها إلا بصــورة عقلية تقومها بالفعل.

وأما ما رأينا وتفردنا بإثباته بالبرهان من تجـرد القـوة الخيالية عن البدن الطبيعي ، واتحادها ببدن محشـور بـاق في عالم الـبرزخ ، فجميع نفـوس الإنسـانية حـتى العـوام والصـبيان باقية بعد هـذا البـدن ، كما هو موافق للشـريعة والكتاب والسنة ، بل هو من ضروريات الملة الحنيفة.

وثانيهما أن نفسية النفس نحو وجودها الخاص الذي يلزمه الإضافة إلى البدن الطبيعي ، وليست هذه الإضـافة كإضافة الأشياء التي عرضت

لها الإضافة بعد تمام وجودها وهويتها ، كالملك والربان والرئيس والأب وغير ذلك مما يعرض له الإضافة بعد تمام الذات فالإضافة التي من قبيل القسم الأول يزول بزوالها ذات المضافة بنفسها كهيولية الهيولى ، وكذا حكم نفسية النفس ، فيلزمهم بطلان جوهر النفوس ببطلان إضافاتها إلى البدن ، اللهم إلا أن يذهبوا إلى ما ذهبنا إليه من إثبات الحركة الجوهرية وإثبات الاشتداد في وجود الجوهر النفساني ، كما دلت عليه البراهين المذكورة في كتبنا ، والآيات القرآنية المذكورة آنفا ، والمتأخرون من الحكماء كأبي علي ومن يحذو حذوه مصرون غاية الإصرار في نفي هذه الاستحالة الجوهرية ، ولذلك قصروا وعجزوا عن إثبات كثير من المقاصد الحقة ، كحدوث الأجسام ودثور العالم الطبيعي كله ، وكاتحاد العاقل بالمعقول ، وكإثبات المعاد الجسماني ، وبقاء أكثر النفوس وهي الناقصة والمتوسطة في الكمال وغير ذلك من المطالب الشريفة التي من أوتيها (**فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**).

أما الآيات الدالة على بقاء النفوس بعد خراب هذا البدن الطبيعي فكثيرة منها قوله تعالى : (**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**) ، وكأن المراد من هذه الحياة هي الحياة العقلية المختصة بالكاملين في العلم ، فإنهم الأحياء حياة عقلية ، الساكنون في حظيرة القدس عند ربهم المرزوقون بالأرزاق المعنوية والأنوار العقلية ، ويكون فرحهم أي ابتهاجهم ولذتهم العقلية بالحكمة لا بغيرها من اللذات الحسية والخيالية ، وقد وقع التعبير عن الحكمة بما آتاهم الله من فضله على وفاق قوله : (**مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**) ، وقوله في سورة الجمعة بعد ذكر تعليم الكتاب والحكمة : (**ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**) ، فعلم أن المراد هاهنا بما آتاهم الله من فضله هو بعينه المذكور في تينك الآيتين ، ومنها قوله : (**وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ**) ، وقوله : (**إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ**) ، وقوله : (**إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ**) ، وقوله : (**إِلى رَبِّكَ

الرُّجْعى) ، وقوله : (**إِنَّ الْأَبْـرارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**) ، وقوله : (**وَهُــوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**) ، وقوله : (**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْـهِ الْمَصِـيرُ**) ، وقوله : (**يَـوْمَ يَقُـومُ النَّاسُ لِـرَبِّ الْعـالَمِينَ**) ، وقوله : (**إِنَّ كِتـابَ الْأَبْـرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ**) و (**إِنَّ كِتـابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِـجِّينٍ**) ، والمـراد منه كتـاب النفس ، وكـذا قوله : (**وَإِذَا الصُّـحُفُ نُشِـرَتْ**) ، فـإن النفــوس في هــذا العــالم مطوية بما فيها من الهيئــات والنقــوش ، والأجســام بما فيها من الأعــراض والصــور منشـورة ، وفي الآخـرة بـالعكس من ذلك ، فـإن أجـرام السـماوات مطوية هنـاك لقوله تعـالى : (**يَـوْمَ نَطْـوِي السَّــماءَ كَطَيِّ السِّــجِلِّ لِلْكُتُبِ**) ، والأجــرام الأرضــية مقبوضة لقوله : (**وَالْأَرْضُ جَمِيعـــاً قَبْضَـــتُهُ يَـــوْمَ الْقِيامَةِ**) ، والنفوس والأرواح مكشوفة بارزة.

واعلم أن جمهــور الفلاســفة لم يعلمــوا من حقيقة الـروح وماهية النفس إلا قـدرا يسـيرا ، يلـزم من أحـوال بعض مراتبها ومقاماتها من جهة ما نظــــروا في أحــــوال البدن وعوارضه ، وذلك مثل كونها مدركة مدبرة ، وهاتـان صفتان نسبيتان يشترك فيهما الحيوانـات ، وأما ما ادركـوا من بقائها بعد انقطاع تصرفها عن البدن فإنما عرفوا ذلك من كونها محل العلـوم ، وإن العلم لا ينقسم ، فلا يتصـور انقسـام محله ، وفيه مواضع أنظـار كما ذكرنـاه في كتبنا العقلية ، ســـيما عند المحقق العـــارف أنه ليس العلم بالحقائق العقلية بحلول صــورتها في النفس ، وأما الحكم بكونها قبل البدن فأكثرهم أنكروا ذلك ، ومن قال منهم به فلم يقم عليه برهانا ولم يقدر على دفع الشكوك الــواردة على ذلك ، ولم يمكنه اختيــار أحد الشــقين ، من كـــون النفس قبل البدن هل كـانت واحـدة أو كثـيرة ، لأنه يلـزم على كل من الشقين ما يخـالف أصـولهم الاعتقادية ، وإذا كـان حـال هـؤلاء العقلاء الفضـلاء من أمر النفس هكـذا ، فكيف حال من سـواهم من أهل الجـدال وأولى وسـاوس الخيال ، ولأجل ذلك قال تعالى : (**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الـرُّوحِ قُــلِ الــرُّوحُ مِنْ أَمْــرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً**).

قاعدة

في بطلان التناسخ

التناسخ أعني انتقـال النفس الشخصـية من بـدن إلى بدن محال ، سواء كان البدن عنصريا أو فلكيا أو طبيعيا أو برزخيا ، ببرهان أفادنا الله تعالى إياه ، وهو أن النفس في أول تكونها الطـبيعي متحـدة مع البـدن ، وهي بـالقوة في كل ما لها من الأحـــوال والإدراكـــات ، حـــتى في كونها حساسة ، ثم يتـدرج في الاشـتداد والـترقي ، فيصـير أولا طبيعية حافظة ، ثم جوهرا غاذيا منميا مولـدا ، ثم حساسا على التدريج من أكثف الحـواس إلى ألطفها ، فكـانت أولا قـــوة اللمس ثم الـــذوق ثم الشم ثم الســـمع والبصر ثم يصير متخيلا ، وهاهنا أوان تجرده عن البـدن الطـبيعي كما أشرنا إليه ، ثم يصير متفكـرا ذاكـرا ، ثم عـاقلا ومعقـولا ، وعند ذلك أوان تجردها عن العالمين ومفارقته للنشـأتين ، فقد بـان أن للنفس قبل تجردها مطلقا مقامـات طبيعية ، يناسب كل منها لمـــزاج خـــاص وتكـــون معين ، وسن مخصـــوص من أســـنان البـــدن من الجنينية والطفولية والصـــبوية المراهقية والشـــباب والكهولة والشـــيخوخة والموت والبعث.

وبالجملة النفس والبـدن يتحركـان معا في التحـولات الطبيعية ، ويستكملان معا في الكمـالات الـتي تناسب كلا منهما بحسـبه إلى أن يقع لها التفـرد بـذاتها منسـلخة عن البــدن ، والحاصل أن لكل طبيعة حركة جوهرية ذاتية إلى غاية ما ، ولها في كل حد من حـــدود الانتقـــال مرتبة من الوجــود يكــون بحســبها فعلا وقــوة ، فعلا بالقيــاس إلى سـابقها ، وقـوة بالقيـاس إلى لاحقها ، وكل موجـود صـار بالفعل شيئا ، فلا يمكن عوده إلى الحالة الـتي كـانت فيها بــالقوة ، ولأن الحركــات الطبيعية متوجهة إلى ما لها من الكمــال ، فيمتنع أن يقع شــيء منها على وجه الانتكــاس مخالفا للمجرى الطبيعي.

فإذا تمهد هـذا فنقـول : كما لا يمكن أن تصـير القـوة الحيوانية نباتية ولا النباتية معدنية ولا المعدنية صـــــــورة عنصرية على عكس ما هو المجرى

الطــبيعي الــذي فطر الله الأشــياء عليه ، فكــذا يمتنع أن يتعلق النفس التي كانت متعلقة ببــدن وخــرجت في بعض ما لها من الأحوال من القوة إلى الفعل تارة أخرى بمــادة بدنية حادثة عند أول تكونها كالنطفة أو الجــنين ونحو ذلك ، فإن النفس المنسـلخة عن بـدن من الأبـدان قد خـرجت في بعض ما لها من كمالات الوجـود من القـوة إلى الفعل ، وظاهر أنها لا يمكن فرض تعلقها الثـانوي ببــدن جديد إلا عند حدوثه وأول تكونه ، فإذن يلزم من انتقال النفس إلى بــدن آخر كــون إنســان واحد بحيث يكــون نفسه بالفعل وبدنه بـــالقوة ، وهـــذا محـــال كما أوضـــحناه ، فثبت أن التناسخ بالمعنى المذكور محال.

أما التناسخ بمعنى تحول النفس وانتقالها على ســبيل الاتصـال من نـوع إلى نـوع فليس بممتنع ، كنقل الصـورة الطبيعية لمـــادة خلقة الإنســـان من الجمادية إلى النباتية ومنها إلى الحيوانية ومنها إلى الإنســــانية ثم إلى الملكية وما بعـــدها ، أو على وجه الـــنزول كما في أمة موسى عليهالسلام ظـاهرا وفي هـذه الأمة باطنا ، وهـذا الانتقـال على وجه الـنزول لا ينـافي ما ذكرنـاه آنفا ، من توجه كل نفس إلى ما فوقها ، وذلك لأن الخـــروج من القـــوة إلى الفعل في شيء من الكمالات الحيوانية لا ينافي الشـقاوة في الآخـرة بل يؤكـده ، فـإن الطـرق إلى الـدار الآخـرة متفاوتة ، بعضها طرق السعادة والوصول إلى دار الكرامة والقرب من عند الله ، وبعضها طـرق الشـقاوة والوصـول إلى دار الانتقام والبعد من رضوانه.

ومما ورد في مسخ الباطن لهذه الأمة هو قول النــبي صـلىاللهعليهوآله في حق طائفة : إخـوان العلانية أعـداء الســريرة ، يلبســون جلـود الكبـاش وقلـوبهم كالـذئاب ، ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر.

كشف خفاء لبسط ضياء

اعلم أن ما نسب إلى قدماء الحكماء كـالفلاطن ومن سبقه من أساطين الحكمة وهم المقتبسون أنوار علومهم من مشكاة النبوة ، هو بعينه ما ورد

في الشــرائع الحقة الإلهية من صــيرورة النفــوس الآدمية على صور أنواع الحيوانـات ، مناسـبة لأعمـالهم وأفعـالهم المؤدية إلى ملكـــاتهم ، ولهـــذا قيل : ما من مـــذهب إلا وللتناسخ فيه قــدم راسخ ، ثم إن المتــأخرين كــأبي نصر وأبي علي ومن يقتفي أثرهما ، لما لم يظفــــــروا بتحقيق النشأة الأخروية الجزئية للنفوس الحيوانية المنسـلخة عن الأبـدان الطبيعية ، التجئـوا تـارة إلى القـول بـأن النفـوس الشقية الفاجرة ينتقل بعد هذا البدن إلى أبدان الحيوانـات الصامتة في جهنم ، وهي عالم العناصر عنـدهم والنفـوس الكاملة العارفة يـرتقى إلى عـالم السـماوات وهي الجنة عندهم ، وهذا ما ذهب إليه إخـوان الصـفا ، وتـارة التجئـوا إلى القــول بــأن بعض النفــوس كنفــوس البله والعــوام لا حشر لها ، وأن بعض الصـــلحاء الغـــير العـــارفين ينتقل نفوســـهم ببعض الأجـــرام الســـماوية وتصـــير موضـــوعا لتخيلاتهم حسب ما وعـدهم الشـريعة ، ونفـوس الأشـقياء أيضا يتعلق بتلك الأجـــــرام ، وعند بعضـــــهم كصـــــاحب التلويحات تتعلق هذه النفوس الشـقية بجـرم دخـاني غـير منخـــرق تحت كـــرة القمر وفـــوق العناصر ، وكل هـــذه الأقــوال خــروج عن طريق الصــواب وانحــراف عن جـادة الحق ، وقد علمت من طريقتنا خــــراب الأفلاك ومن فيها فضلا عما تحتها ، وأيضا لــزوم التناسخ المســتحيل بحاله ، وأيضا الجسم التـام الصـورة والكمـال يسـتحيل أن يصـير منفعلا عن مـــؤثر آخر ليس طبيعة له ولا مـــدبرا لجرمه ، وما لم ينفعل عن مؤثر آخر كيف يصير موضوعا لتصرفاته وتأثيراته.

والعـــارف بكيفية ارتبـــاط النفس بـــالأجرام الطبيعية يكفيه في الحكم بفســاد ما ذكــروه أدنى تأمل ، بل الحق القراح ما لوحناك إليه من تصور النفـوس بصـور ملكـاتهم وهيئاتهم ، وهي أبدانهم المكتسبة المحشـورة في النشـأة الآخرة ، وتلك الأبدان معلقة ليست قائمة بمــادة طبيعية ، ولا في جهة من جهــات العــالم الوضــعي ، ونســبتها إلى النفوس نسبة الفعل اللازم إلى فاعله لا نسـبة القابل إلى المقبـول ، ولا نسـبة المـادة المسـتعدة لتعلق النفس إلى النفس ، وهـذا مطـابق لما ذهب إليه أهل الشـرائع الحقة وعليه يحمل كلام قدماء الحكمـاء في بــاب التناسخ ، وهو المراد من الآيات القرآنية الدالة

على المسخ ، كقوله تعــالى : (**كُلَّما نَضِــجَتْ جُلُــودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَـذُوقُوا الْعَـذابَ**) ، وقوله :(**ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِـيرُ بِجَناحَيْـهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثـالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتـابِ مِنْ شَـيْءٍ**)، وقوله : (**وَجَعَـلَ مِنْهُمُ الْقِـرَدَةَ وَالْخَنـازِيرَ وَعَبَـدَ الطَّاغُوتَ**) ، وقوله : (**فَقُلْنا لَهُمْ كُونُـوا قِـرَدَةً خاسِـئِينَ**) ، وقوله : (**يَـوْمَ تَشْـهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِـنَتُهُمْ وَأَيْـدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**) ، وقوله : (**وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قـالُوا أَنْطَقَنَا اللـهُ الَّذِي أَنْطَـقَ كُـلَّ شَـيْءٍ**) ، وقوله : (**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْيـاً وَبُكْمــاً وَصُـــمًّا مَــأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْنــاهُمْ سَعِيراً**) ، وقوله : (**وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**) ، إشـارة إلى انقلاب جواهر نفوسهم إلى نفوس الوحوش لغلبة صـفاتها عليهم ، فتصورت نفوسهم في القيامة بصـورة الحيوانـات الوحشية ، المناسبة لأخلاقها وهيئات نفوسها ، وكــذا قوله : (**يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَـدِ اسْـتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ**) ، وقوله : (**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمــالَهُمْ**) ، وقوله : (**وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقـاً**) ، وقوله : (**وَنَحْشُـرُهُ يَوْمَ الْقِيامَـةِ أَعْمى**) ، وقوله : (**يُسْـحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْـــجَرُونَ**) ، وقوله : (**الَّذِينَ يُحْشَـــرُونَ عَلى وُجُـوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَـرٌّ مَكانـاً وَأَضَـلُّ سَبِيلاً**) ، وقوله : (**وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كـــــانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُـونَ**) ، (**وَيَـوْمَ نَحْشُـرُ مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ فَوْجـاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُـونَ**) ، وقوله : (**وَوَقَـعَ الْقَـوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ**) ، إلى غير ذلك من الآيات المشيرة إلى تبديل الصور والأشكال بواسطة تبدل الأخلاق والأحوال ، وكـذا قوله : (**إِنَّ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْـــتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْـــوابُ السَّـــماءِ وَلا يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَـلُ فِي سَـمِّ الْخِيـاطِ وَكَـذلِكَ نَجْـزِي الْمُجْـرِمِينَ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهـادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَـواشٍ وَكَـذلِكَ نَجْـزِي الظَّالِمِينَ**) ، إيـاك وأن تظن من ظــاهر هــذه الآية وغيرها أن الجنة وطبقاتها هي بعينها ظواهر أجـرام السـماوات كما زعمه الناقصـون في العلم الذين يريدون أن يدخلوا بيوت العلم من ظهورها ولا يدخلون البيوت من أبوابها ، فــإن الجنة باقية لأنها هي دار البقاء ، والأفلاك وما فيها دار الفناء ، وهي من عالم الدنيا ، والجنة من عالم الآخرة وعالم الصورة الغائبة عن

هــذه الحــواس الــداثرة الطبيعية ، وأيضا إن الجنة كما لوحناه إليك تكون في داخل حجب السماوات والأرضـين ، ومنزلتها من هذا العالم منزلة الجنين من الـرحم ، فـافهم إن كنت من أهله وإلا فغض بصـــرك عن مطالعة هــــذا الكتـــاب والتـــدبر في غـــوامض علم القـــرآن ، وعليك بممارسة القصص والأخبـــار والروايـــات ، وعلم الســـير والأنسـاب ، وتتبع العربية واللغة ، وتحمل الرواية من غـير دراية ، وما هو كالنتيجة عنـــــــدك للكل من البحث عن المســـائل الفرعية الخلافية ، ونـــوادر تفريعـــات الطلاق والعتـاق والسـلم والإجـارة والرهانة ، وقسـمة المـواريث المشتملة فروضها على الكسـور الـتي يـدق فيها تحصـيل المخرج ، إلى غير ذلك من المهمات التي يحتاج إليها على الندرة بعض الآحاد في بعض الأوقـات ، وقد نصب الله لها كسائر الأمـور الـتي هي أدون منزلة منها أقواما يعظمـون الأمر فيها ويصرون عليها ويفرحون بها ، و (**كُلُّ حِزْبٍ بِما لَـدَيْهِمْ فَرِحُـونَ**) ، وقيمة كل أحد على قـدر همته ، (**وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كانَ اللـهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ**) ... ، (**ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَـةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِـكْ فَلا مُرْسِـلَ لَـهُ مِنْ بَعْـدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**).

ومما يدل على التناسخ المعنوى الأخروى ما روي عن النــبي صــلىاللهعليهوآله من قوله : يحشر النــاس على صــور نيــاتهم ، وقوله صــلىاللهعليهوآله : يحشر النــاس على صورة يحسن عندها القـردة والخنـازير ، وقوله : كما تعيشــون تنــامون وكما تنـامون تبعثـون ، وقوله ص : من خالف الإمام في الصلاة يحشر ورأسه رأس حمار.

تذكرة قرآنية

قد انكشف لك فيما مر وسيتضح لك زيــادة إيضــاح ، أن جميع أفراد النـاس متوجهـون بحسب ما أودع الله في غرائزهم نحو المبـدإ الأعلى ، فما من أحد إلا وفيه الحركة المعنوية نحو الآخـرة ، إلا أنهم متفـاوتون في هـذا التوجه والحركة الجبلية والسـير البـاطني بحسب جهـات الحركة ودرجات القرب والبعد ، فمنهم من يسـعى نـوره إلى الله وإلى جهة الآخرة ، لقوله تعالى :

(**نُـورُهُمْ يَسْـعى بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَبِأَيْمـانِهِمْ**) ، ومنهم من يجذبهم العناية الإلهية بخطاب ارجعي كما قـال : (**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِـيَةً مَرْضِـيَّةً**) ، ومنهم من يسـاق إلى المـوت جـبرا وقهـرا بسـطوة من سـطوات سـدنة عـالم الجحيم وسـوط من سـياط ملائكة العذاب ، كما أشير إليه بقوله : (**وَلَـوْ تَـرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَـراتِ الْمَـوْتِ وَالْمَلائِكَـةُ باسِـطُوا أَيْـدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ**) وكذا عند المصير بعضهم فرحون بلقاء الله وبعضهم كارهون ، ومن كره لقاء الله كـره الله لقائه ، كما في قوله : (**كَـرِهَ اللـهُ انْبِعـاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيـلَ اقْعُـدُوا مَـعَ الْقاعِـدِينَ**) ، وقوله : (**حَتَّى جـاءَ الْحَـقُّ وَظَهَـرَ أَمْـرُ اللـهِ وَهُمْ كـارِهُونَ**) ، وبعضـهم نـواكس الرءوس من أعلى علـيين ، كما في قوله : (**وَلَوْ تَـرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ.**)

المشهد الرابع

في بيان النبوة وأحكامها وفيه قواعد :

قاعدة

في إثبات الشجرة النبوية وفضلها على جواهر سائر البرية

اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الشجرة النبوية صنفا مفردا بل نوعا واقعا بين الإنسان وبين الملك ، جالسا في حد المشــترك ، بين عــالمي الملك والملكــوت ، مشــاركا لكل واحد منهما على وجه ، فإنهم كالملائكة في اطلاعهم على ملكــوت الســماوات والأرض ، وكالبشر في أحــوال المطعم والمشـــرب والمنكح ، ومثلهم واقعا بين نـــوعين مختلفين مثل المرجان ، فإنه حجر تشبه الأشجار يتشـعب أغصــانه ، وكالنخل فإنه شــجر يشــبه الحيــوان في كونها محتاجة إلى تلقيح ، وبطلانها إذا قطع رأســــــها ، وجعل سبحانه النبوة في ولد إبــراهيم عليهالســلام ومن قبله في ولد نوح عليهالســلام ، كما نبه بقوله : (**ذُرِّيَّةً بَعْضُــها مِنْ بَعْضٍ**) ، فهم عليهمالســلام وإن كــانوا من حيث الأبــدان بشــــريين أرضــــيين ، فهم من حيث الأرواح ملكيــــون سماويون ، قد أيدوا بقوة روحانية قدسية خصــوا بها ، كما قال في عيسى عليهالسلام : (**وَأَيَّدْناهُ بِـرُوحِ الْقُـدُسِ**) ، وقــال في محمد صــليالله‌عليه‌وآله : (**نَــزَلَ بِــهِ الــرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**) ، وتخصيصــهم بهــذا الــروح ليمكنهم أن يقبلــوا من الملائكة بما بينهم من المناسبة الروحانية ، ويفيدوا للأمة بما بينهم من المناسـبة ،

البشـرية ، فلـذلك قـال : (**وَلَـوْ جَعَلْنـاهُ مَلَكـاً لَجَعَلْنـاهُ رَجُلاً**) ، تنبيها على أنه ليس في قــوة عامة البشر الــذين لم يخصوا بذلك الروح أن يقبلوا إلا من البشر ، ولما عمى الكفـــــار عن إدراك هـــــذه المنزلة ، عزلـــــوا الأنبيـــــاء عليهم‌السلام من فضيلة النبوة وأنكـروا مـنزلتهم ونبـوتهم ومنزلة علمهم عليهم‌السلام ، كما قال تعالى : (**قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كـانَ يَعْبُـدُ آباؤُنا**) ، فالأنبيـاء بالإضـافة إلى سـائر النـاس ، كالإنسـان بالإضـافة إلى سـائر الحيوانـات ، وكـالقلب بالقيـاس إلى سائر الأعضاء والجـوارح ، وأيضا منزلة الأنبيـاء من أممهم منزلة ضـــوء الشـــمس من الأرض ومنزلة علمهم وعلم وارثهم ونائبهم من علم الأمم منزلة ضـوء الشـمس ونـور القمر من ضوء نواحي الأرض كما قال : (**هُوَ الَّذِي جَعَـلَ الشَّمْسَ ضِـياءً وَالْقَمَـرَ نُـوراً**) ، وكما أن وجه الأرض لا يستضـــيء إلا بنـــور الشـــمس والقمر والنجـــوم ، ونـــور الشمس هو المفيض على القمر والنجوم وغيرها ، فكذلك منزلة علـــوم الخلائق لا تحصل ولا يـــتزكى نفوســـهم إلا بواسطة نبوة الأنبياء ، وعلى هذا دل بقوله : (**رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُـــولاً مِنْهُمْ يَتْلُـــوا عَلَيْهِمْ آياتِـــكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُـزَكِّيهِمْ**) ، وقوله : (**هُـوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كـانُوا مِنْ قَبْـلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**) ، فالله تعالى يزكي الأنبيـاء بواسـطة الملك ويزكي الناس بواسـطتهم ، كالطـابع الـذي حصل له كتابة ثم بواسطته تثبت في الشـموع المختلفة مثل تلك الكتابة ، ونسبة الملكية إلى نفس النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله كنسبة ضـوء الشـمس إلى جرمها ، ونسـبتها إلى سـائر النـاس كنسبة نور الشمس إلى سطوح الأرض.

قاعدة

في هداية الله تعالى الأشياء إلى مصالحها

كلما أوجده الله تعـالى فإنه هـداه لما فيه مصـلحته ، كما نبه عليه بقوله تعـــالى : (**الَّذِي أَعْطى كُـلَّ شَـــيْءٍ خَلْقَـهُ ثُمَّ هَـدى**) ، وهدايته لكل شـيء ما يناسب خلقه ، فهدايته للجمادات بالتسخير فقط ، كالأشياء الأرضية التي إذا خليت و

طبائعها ينحو نحو الأرض ، وكالنـــــــــار ينحو نحو العلو ، وهدايته للحيوانات إلى أفعال يتعاطاها بالتسخير وبالإلهـام ، كالنحل فيما يتعاطـــــاه من السياسة وأخذ الـــــبيوت المسدســات من غــير إســراف ومن عمل العسل ، كما أشـار بقوله : (**وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْـلِ أَنِ اتَّخِـذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْـلُكِي سُـبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً**) ، وكـالعنكبوت في نســجه ، وهدايته للملائكة بالتســخير والإلهـــام في أفـاعليهم المختصة بهم وببديهة العقل ، لأن علـومهم كلها ضـرورية فطرية ، فأما الإنسـان فهدايته تعـالى إيـاه بكل ذلك وبـالفكر ، وذلك أنه هــداه تـارة بالتســخير كما في تسـخير نفسه لقواها بالتحريك ، والاسـتخدام في أفاعليها الجزئية وإدراكاتها الحسـية ، ومن هـذا القبيل حركة نبضه وجذبه للغـــذاء وهضـــمه ودفعه وغـــير ذلك من أفاعيله التسخيرية ، وتـارة بالإلهـام ، كما عند الطفولية للارتضـاع ومص الثـدي والتشـكي من الألم بالبكـاء ، وطـورا ببديهة العقل ، فإنه يعـرف الأوليـات ومبـادي العلـوم ، وطـورا بالفكر حيث يتوصل إلى استنباط المجهول بالمعلوم ، فهو تعـالى وإن خلق الإنسـان عاريا من المعـارف الـتي جعلها للحيوانات بالإلهـام ، ومن الملابس والأسـلحة الـتي جعلها للحيوانـات بالتسـخير ، ومن العلـوم الـتي جعلها للملائكة بـالفطرة والبديهة ، فقد جعل للإنســان بالعقل والفكــرة قــوة التعلم وقــوة تحصــيل الأدوات والأســباب المتنوعة والآلات المختلفة كـالملابس والأسـلحة ، فهو مكتف بذاته في تحصـــيل ما ينفعه في عاجله وآجله ، حيث مكنه الله في اســتفادة ذلك ووكله إلى نفسه ، وذلك فضــيلة له لا رذيلة ، وإنه رفعة له لا ضـعة ونقيصة ، فـإن الله بإعطائه إيـاه العقل والفكـرة واليد العاملة قد أعطـاه كل شـيء ، ولو أعطى له حسب ما أعطى غيره من البهائم شيئا شيئا لكـان قد منع منه سـائر الأشـياء ، لأن فعلية البعض يمنع عن قوة سائر الأشياء.

وتحقيق هـذه المسـألة يحتـاج إلى مقـدمات غامضة ذهل عنها أكـثر المنسـوبين إلى العلم ، وقد ظن قـوم إن الله خلق النـاس من بين الحيوانـات خلقا منقوصا ، إذ لم يعط سلاحا يدفع به عن نفسه كالأسد والنمر من الأنياب

والمخـالب ، ولا جناحا يهـرب به عن الأعـداء كما للطـير ، ولا قـــوة المشي والجـــري في المـــاء كما للحيتـــان ، ولا الكفاية في لباسـهم كما في سـائر الحيـوان ، حيث أغناها عن كثـير ما يفتقر إليه النـاس ، ولأجل ذلك قـال تعـالى : (**خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَـعِيفاً**) ، وذلك الظن صـحيح من وجه ، فاسد من وجه ، أما وجه صـــحته فلما أشــــرنا إليه من أن فعلية الوجود وتأكد الصورة يمنع عن قبول الكمال الأعلى والفضيلة القصوى ، وأما وجه فساده فلما زعمـوا أن ذلك تمـام صـورة الإنسـان ، ولم يعلمـوا أن ذلك ابتـداء خلقته ومـــادة نشـــوه وكماله ، كالحبة بالقيـــاس إلى الشــــجرة والنطفة بالقيـاس إلى الحيـوان ، ولو كـانت للحبة صـلابة الحجر لم يمكن وصـــــولها إلى غاية النمو ، ولو كـــــانت للنطفة قوة الشجرية استحال أن يصل إلى قبول الحياة ، فلو لم يكن في الإنسـان بحسب أول الفطــرة الخلو عن كل فضـيلة وعلم ، لما كـان في جـوهر ذاته صـلوح كل فضيلة وعلم ، ولأجل التنبيه على ذلك قال تعالى : (**وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَـيْئاً وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ**) ، ولا حاجة إلى ما ذكره بعضهم في معنى قوله تعـالى : (**خُلِقَ الْإِنْسـانُ ضَـعِيفاً**) ، من أن المـراد أنه ضـعيف بالقيـاس إلى الملإ الأعلى لا بالإضـافة إلى الحيوانـات ، بل أن هـذا الضـعف أعـده للوصـول إلى الدرجة العليا والاسـتحقاق لخلافة الله تعالى.

قال بعض الحكماء جعل الله لكل شيء كمالا ينسـاق إليه طبعا ، وقد هداه إلى التخصـيص به تسـخيرا ، كما نبه عليه بقوله : (**أَعْطى كُـلَّ شَـيْءٍ خَلْقَـهُ ثُمَّ هَـدى**) ، وللإنسان سعادات كثيرة أبيحت له ، وهي النعم المذكورة في قوله تعالى : (**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَـةَ اللـهِ لا تُحْصُـوها**) ، وجميع النعم على القـول المجمل ضـرب دائم لا يبيد ولا يحول وهو النعم الأخروية ، وضرب يبيد ويحـول وهو النعم الدنيوية ، وما أحد إلا وهو نازع إلى سعادة يطلبها بجهده ، ولكن كثـيرا يخطئ فيظن ما ليس بسـعادة في ذاته أنه سـعادة ، فيغـتر بها فيكـون كما قـال تعـالى : (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَـبُهُ الظَّمْآنُ مـاءً حَتَّى إِذا جـاءَهُ لَمْ يَجِـدْهُ شَـيْئاً**) ، وقوله : (**كَرَمـادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الـرِّيحُ فِي يَـوْمٍ عاصِـفٍ**) ، لأنها كلها غـرور وفتنة كما قال الشاعر :

إنما الـدنيا كرؤيا أفـرحت   من رآها سـاعة ثم انقضت

قاعدة

في تحقيق قوله تعالى : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) ، وبيان أن الموت حق

اعلم أن من الحكمة البالغة والنعمة السـابغة أن الله تعـالى قد جمع في طينة الإنسـان ما أفـرد به الملائكة المقربين وما أفرد به الحيوانات المبعـدين ، فـأفرد الملك بروح علوي بـاق ، وأفـرد الحيوانـات بـروح سـفلي فـان ، وخص الإنسان بمعجون مركب من الروحين ، فان حيواني وبـاق ملكي ، اتحـدا ذاتا أحدية كما بين في موضـعه ، فالحكمة في ذلك أن الروح الملكي غير مستحيل ولا نـام ولا متغذ ، وإنما غـذاؤه التسـبيح والتقـديس ، وهو بمثابة التنفس الضروري للحيوان [1] ولذلك ليس للملك تـرق من مقام معلوم ، والـروح الحيـواني مسـتحيل متغذ نـام قابل للتحول والانتقال ، إلا أنه إذا مات مات ولم يبق منه شيء ، فجعل الله الإنسـان جامعا للـروحين ، لينطبع روحه الملكي بطبع روحه الحيـواني في التغـذي وقبـول الفنـاء الـذي يعـبر عنه بـالموت ، ليصـير بروحه الحيـواني كائنا مستحيلا قابلا للفنـاء ، وينطبع روحه الحيـواني بطبع روحه الملكي ، ليصـير عارفا بالله مسـبحا مقدسا له كالملك ، باقيا بعد المـوت أي مـوت كـان طبيعيا أو حيوانيا [2] أو إراديا.

فخاصـية الـروح الحيـواني أن يجعل الغـذاء من جنس المغتذي ولونه وكيفه وصائرا من جنسه ، وخاصـية الـروح الملكي أن يسبح الله ويقدسه

---

(1) إن تسـبيح الملائكة فعل إختيـاري ولكنه ضـروري فطـري إرادي اضطراري (نوري قدس‌سره)

(2) لو لم ينطبع روحه الملكي بطبع روحه الحيـواني لم يتسـير له في النهاية الفناء في الله وصيرورته إنسانا ربانيا بل ربا إنسانيا (لأن الـروح الملكي بالذات لا فناء له والفناء من خـواص الـروح الحيـواني) وكـذلك الـروح الحيـواني لو لم ينطبع بطبع ذلك الـروح لم يتيسر له السـلوك والسـير إلى تلك الغاية الـتي يصـير الحيـوان الـداثر الزائل الفـاني بالوصـول إليها باقيا بالله ، فأحسن التأمل في هـذا البـاب لينفتح عليك باب يفتح منه كثير من الأبواب ، ولا يهتـدي إليها إلا أهل الكمـال الـذين هم أولو البصائر والألباب. نوري قدس‌سره.

ويتغـذى بـذكر الله وطاعته والشـوق إلى لقائه الكـريم فيتقـوى فيه النـور الإلهي ويتجـوهر به ، ولأجل ذلك يـزداد الجذبة الإلهية ، وفي تجوهره يحصل له نوع من الفناء عن وجوده والبقاء بنور ربه فهو في كل انتشاء بنشـأة وتطـور بطـور بمثابة ميت ذاق المـوت والبعث ، فكأنه مـات عن نشأة ثم بعث إلى ربه في نشـأة أخـرى وأحيـاه الله بنـور ربه ، كما قـال تعـالى : (**أَوَمَنْ كـانَ مَيْتـاً فَأَحْيَيْنـاهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِـهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُـهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها**) ، فهذا الموت الذي استحق به الـروح الإنسـاني الأحيـاء بنـور الله ، إنما اسـتفاده من جهة النفس الحيوانية الـتي هي ذائقة المـوت على الوجه المذكور ، ولذلك عقبه بقوله : (**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّـرِّ وَالْخَيْـرِ فِتْنَـةً**) ، أي نبلـوكم بما فيهما من مـوت النفس وحيـاة الروح ، فـالأول كالمكروهـات من الخـوف والجـوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وسائر ما تسـمونه شـرا ، وفيها مـوت النفس وحيـاة القلب ، والثـاني كالمحبوبـات التي تسمونها خـيرا ، وهي الشـهوات من النسـاء والبـنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، وفيها حياة النفس وموت القلب ، ففي كلتا الحـالتين ابتلاء ، فمن صـبر على مـوت النفس بالمكروهات فله البشارة بحياة القلب واطمينـان النفس ، ولها حينئذ اسـتحقاق الرجـوع إلى ربها بجذبة ارجعي إلى ربك باللطف والكرامة ، كما قال : (**وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ**).

فقد ظهر مما ذكرناه أن الإنسان السعيد السالك إلى صـراط الله المسـتقيم الواصل إلى درجة الواصـلين ، هو الذي حصل له في كل وقت من أوقـات حياته الطبيعية له موت وبعث وحشر إلى الله تعـالى ، حـتى ينتهي به الغاية والمنتهى والرجـوع إلى المبـدإ الأعلى ، وأن قوله : (**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**) محمول على الحقيقة من غير حاجة إلى التأويل كما فعله المفسرون.

قاعدة

في الكشف عن ماهية الإنسان الحقيقي مظهرا لاسم الله وخليفة الرحمن

قـال الله تعـالى : (**إِنَّا عَرَضْـنَا الْأَمانَـةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ**

فَـأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْـفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسـانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً) ، قد تشعب أقوال العلماء وأئمة التفسير ، واختلفت آرائهم في أن المـراد من هـذه الأمانة المخصوص يحملها الإنسـان ما ذا ، فقائل إن المــراد منها هو العقل فينتقض بالملك ، وقائل إنه التكليف فهو منقـوض بـالجن ، لأنه مسـاهم للإنسـان في كونه مكلفا ، وقائل إنه الـتركيب بين الـروح والجسد فنـوقض بالفلك ، وقائل إنه الهيئة الاجتماعية الحاصـلة من اجتمـاع القـوى الفاعلة والمنفعلة والنفســانية والبدنية المدركة بـــأنواع الإدراكــات الحســية والخيالية والوهمية والعقلية المحركة بـــأنواع الحركـــات الفكرية والإرادية والطبيعية والكمية والكيفية والأينية والوضعية ، وبالجملة كون الذات الواحدة بحيث يوجد فيها أنموذج سائر الأشياء ، وهو أيضا كما ترى لانتفاضه بصورة العالم الكبـير ، لأنه أيضا شـخص واحد له وحــدة طبيعية ، ولأن شــبه الجمعية المــذكورة يوجد في بعض الحيوانات التامة الحواس سيما عند من يـرى أن لها نفسا مدركة للكليات ، على أنه قد أهمل في كل من هذه الاحتمالات رعاية معــنى الأمانة ومؤداها ، من كونها عارية مدة من الزمـان ثم مـردودة إلى أهلها وصـاحبها. وتحقيق هـــذا المقـــام يســتدعي تمهيد قاعـــدة ، وهي أن جميع الموجودات سوى الإنسان له حد خاص من قسط الوجـود لا يتعداه ، وكل له مقام معلوم ، لا يتجاوزه ، وهو له ثابت بالفعل ليس فيه قـوة الانتقـال من طـور إلى طـور ومن كون إلى كـون ، فالفلك في فلكيته ، والملك في ملكيته ، والشـيطان في شـيطنته ، والجمـاد في جماديته والنبـات في نشوه ونمائه ، والحيوان في شهوته وغضبه ، كل منها في غاية ما له من الكمال والفعلية والتمام ، وأما الإنسان الكامل فإنه في كل ما له من الكمــــالات بلغ إليه ما بين صرافة القوة ومحوضة الفعل ، كما هو شأن المتحرك بما هو متحرك ، ألا تـرى أنه ضـعيف الجسـمية ليس كالجبـال والمعـادن ، وأنه ضـعيف النباتية ليس كالأشـجار في قـوة التغذية والتنمية والتوليد ، وأنه نـــــــاقص الحيوانية ليس كالأسد والفيل والحية والطير وغيرها من الحيوانات التامة في قوة

الحس والحركة ، ولهـــذا يحتـــاج في بقائه الـــدنيوي إلى معاونات ومعونات خارجية تعاونه وتعينه وتحفظه وتصـونه عن الآفـات والأضـداد ، كما قـال : (**وَهُـوَ الْقـاهِرُ فَـوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَـةً**) ، وقوله : (**لَـهُ مُعَقِّبـاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ يَحْفَظُونَـهُ مِنْ أَمْـرِ اللـهِ**) ، وإليه الإشارة بقوله : (**خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَـعِيفاً**) ، وبقوله : (**إِنْ يَسْلُبْهُمُ الـذُّبابُ شَـيْئاً لا يَسْـتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ ضَـعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**).

وبالجملة ليس له ما دام الحيـاة الدنيوية مقـام خـاص في الوجـود لا يتعـداه ، (**يا أَهْـلَ يَثْـرِبَ لا مُقـامَ لَكُمْ**) ، ولأجل هذه الخاصية يمكنه التطـور في الأطـوار والخـروج من كل ما له من الكـون المسـتعار ، والانتقـال من هـذه الدار إلى عـالم الآخـرة ودار الأبـرار ، والمهـاجرة من بيته الذي فيه مهـاجرا إلى الله الواحد القهـار ، كما في قوله : (**وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِـهِ مُهـاجِراً إِلَى اللـهِ وَرَسُـولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللـهِ**) ، وإذ ليس له مقام معين ، فله السير إلى جميع المقامات ، وإذ ليس له صورة معينة ، فله التصور بكل صورة والتحلي بكل حلية ، قال الشاعر :

لقد صـــار قلـــبي قـــابلا كل صـــــــــــــــــورة ... فمـــرعى لغـــزلان وديـــرا لرهبـــــــــــــــــان

إذا تقـــرر ما ذكرنـــاه فنقـــول : إن حقيقة الأمانة وهي المعبر عنها تارة بفضل الله (**ذلِكَ فَضْلُ اللـهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشـاءُ وَاللـهُ ذُو الْفَضْـلِ الْعَظِيمِ**) ، هي الفيض الإلهي الأتم بلا واسطة ، والمراد منه الفناء عن كل شيء والبقاء بالله ، والإنسان من بين الممكنات مخصوص بذلك ، وإنما سميت أمانة لأن الفيض بلا واسـطة هو من صـفات الحق تعـــالى وقد حمله الإنســـان لا غـــير ، لما ذكرنا من أن ما سواه غير مستعد لقبوله ، لتقيد كل منها بوجوده الخاص ، فالفلكية غـــير منســلخة من الفلك حـــتى يبقى فارغا عنها قـــابلا لغيرها ، وهكـــذا الأرضـــية من الأرض والجبلية من الجبال ، وكذا كل من في السماوات والأرض والجبال ، إذ المراد من الآية عـرض الأمانة على كل الممكنـات لا على بعضـها ، والتقـدير أنا عرضـنا الأمانة على أهل السـماوات والأرض والجبـال ، ومعـنى عـرض الأمانة عـرض تحمل الفيض الوجـــــودي على وجه العارية المـــــأخوذة أولا ، المـــردودة إلى أهلها أخـــيرا ، وقبـــول الفيض الوجـــودي الفائض من الله

بلا واسـطة على الوجه المـذكور مختص بالإنسـان الكامل دون غيره كما علمت ، فكان العرض عاما على الممكنات مـــــارا على المخلوقــــــات كلها ، فلم يقبلها أحد للعلة المذكورة إلا الإنسان الكامل لفقره وعجـزه وضـعف قوته وبراءة ذمته عن جميع الشــواغل الوجودية ، وقطع التفاته عن ما سـوى الحـبيب المطلق ، كما حكى الله عن خليله بقوله : (**فَـإِنَّهُمْ عَـدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعـالَمِينَ**) ، وبقوله : (**إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ**).

تنوير تمثيلي

إن نسبة الإنسان إلى سائر المخلوقات كنسبة القلب إلى سائر الأعضـاء ، وقد تحقق في علم الطبيعة أن قـوة الحياة تفيض من الروح إلى القلب ، وبواسطته إلى سـائر البـــدن ، فيصـــير ذا حيـــاة وحس وحركة ، فكما أن فيض الـــروح عـــام على أعضـــاء البـــدن كلها على وجه العارية المردودة إلى أهلها ، وهو الروح عند الموت ، إلا أن قبوله وحمله مختص بـالقلب ، ثم من القلب يسـري أثر الحيـاة بواسطة الشرايين وعروق ما سأريقا إلى سائر الأعضـاء ، لكل منها ما يناسبه ، فيكون به ذا قوة حياة وحس وحركة ، فكذلك عرض الفيض الإلهي عام على جميع المخلوقـات على وجه يقـــوم عليها مـــدة ثم يرجع إلى مبدعه ومفيضه عند القيامة الكبرى ، إلا أن قبوله بلا واسطة وحمل أصـله مختص بالإنسان الكامل ، ومنه يصل أثر الفيض إلى سائر المخلوقات ، وهذا هو سر الخلافة المخصوصة بالإنسان.

تتمة

وأما قوله : (**إِنَّهُ كـانَ ظَلُومـاً جَهُـولاً**) على صـيغة المبالغة ففيه الإشــارة إلى أن الظـــالم من يظلم غــيره ، والظلوم من يظلم نفسه ، وكذا الجاهل من يجهل غـيره ، والجهـول من يجهل نفسه ، أما ظلم الإنسـان على نفسه فإفنــــاؤه ذاته وإماتته نفسه بـــالإرادة ، وأما جهله بنفسه فلأنه ما عرف نفسه ولم يعلم أنه

ليست ذاته هــذه البهيمة الآكلة الشــاربة الناكحة المائتة ، وما علم أن هــــــذه البهيمة الحيوانية هي قشر ذاته ، ولها لب هو روحها وروحها أيضا قشر وله لب هو روح روحها وهو محبـــوب الحق ، كما قـــال : (**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَــــهُ**) ، ومعلوم عند أهل البصيرة أن محبوب الحق ما ذا يمكن أن يكـــون ، وأن محب الحق ما ذا يمكن أن يكـــون ، فـــإن الشـــــــيء لا يحب إلا ذاته ، ولا يحبه أيضا إلا ذاته ، فمن أحب غير الله فقد رغب عن ملة إبــراهيم ، حيث إنه قـال حكاية عن حاله (**فَـإِنَّهُمْ عَـدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعـالَمِينَ**) ، وأيضا لا جهل أعظم من جهل الإنســـان نفسه لاســـتلزام ذلك جهله بربه ، قـال تعـالى : (**نَسُـوا اللـهَ فَأَنْسـاهُمْ أَنْفُسَـــــــــــهُمْ**) ، وهو بمنزلة عكس النقيض لقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وفي الحكمة العتيقة «من عـــــرف ذاته تأله ، فمن جهل نفسه فقد ظلم على نفسه غاية الظلم» ، (**أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ**) و (**ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ**).

واعلم أن علم النفس بذاتها حيث لا يمكن إلا بحضـور ذاتها لها ، فتحصــيل هــذه المعرفة لا يمكن ولا يتصــور إلا بتبديل الوجود الظلمـاني النفسـاني إلى الوجـود النـوراني الروحـــاني ، وفي قوله صـــلى‌الله‌عليه‌وآله : إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نـــوره ، فمن أصـــابه ذلك النـور فقد اهتـدى ، إشـارة إلى هـذا المطلب ، فـإن الظلمة إشـارة إلى ذوات الأشـخاص النفسـانية الظلمانية قبل خروجها من القـــــــوة إلى الفعل ، ومن الظلمة إلى النـور ، ومخـرج الأشـياء من الظلمـات إلى النـور هو الله تعـالى ، والنـور هو الفيض الـوارد على النفـوس القابلة ، الخارجة به من الظلمـــات إلى النـــور ، كما تخـــرج القـــوة البصـــرية بإشـــراق النـــور الشمسي عليها من القـــوة إلى الفعل ، فيصــير به مبصــرة بالفعل بعد ما كــانت مبصــرة بالقوة.

إذا تقـــرر هـــذا فنقـــول : لما عـــرض الله الأمانة على المخلوقات فكل مخلوق لم يكن منـورا برشـاش نـور الله ما عـرف شـرف الأمانة وما قصـدها ، أما الأجسـام فلبعد مناسبتها ، وأما أرواح الملائكة وغيرهم فلأنهم لم يكن لهم راحلة تحملها بقـوة الظلومية والجهولية ، فما قصـدوا وما عرفـــوا حق المعرفة ، (**فَــأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْــفَقْنَ مِنْها**) لخطر حملها ، (**وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ**) لأجل

استعداد الجسدية وقوة الظلومية والجهولية ، فصارت الظلومية والجهولية في حق حامل الأمانة ومؤدي حقها مدحا ، وفي حق الخائنين فيها ذما.

تبصرة أخرى

اعلم أن لهذه الآية الكريمة تأويلا آخر غير ما مر يشعر بذم الإنسان ، كما أن الأول كان مشعرا بمدحه ، وهو أيضا يستدعي بيان تمهيد مقدمتين.

إحداهما أن كل ما عدا الإنسان من الأفلاك والعناصر والمركبات وغيرها فلها ضرب من الوصول والشهود له سبحانه والفناء عن ذواتها ، لانخراط وجود كل منها في وجود علته وفاعله ، فإن فاعل كل شيء هو بعينه غايتها وتمامها كما بين في موضعه ، فوجود كل معلول لمعة من وجود علته ، ووجود كل علة تمام لوجود معلولها ، وكذا الكلام في وجود علة العلة بالقياس إلى تلك العلة ، ومعلول المعلول بالقياس إلى ذلك المعلول ، فثبت أن جميع الممكنات المجعولة وجوداتها مضمحلة منطمسة في وجود القيوم تعالى ، وجميع أنوارها مستهلكة في سطوع النور الإلهي إلا أفراد الإنسان ، فإنهم بواسطة داعية سلطان الوهم واستيلائه عليهم وجهلهم بكيفية الصنع والإيجاد يزعمون أن لهم وجودا وأنانية وقدرة مستقلة.

وثانيهما أنه ما من موجود جسماني أو روحاني في هذا العالم إلا وله سلوك وجودي واستحالة ذاتية وحركة معنوية إلى جانب الحق صائرا إياه ، كما في قوله : (**أَلا إِلَى اللـهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**) ، فوجود كل موجود إمكاني بمنزلة أمانة عارية يرد إلى صاحبها آخر الأمر ، وما سوى الإنسان لا يعوق له شيء عن سلوكه سبيل الحق وخروجه عن تحمل هذه الأمانة.

فعلى هذا نقول : المراد من الأمانة ، الوجود الفائض على كل موجود ، لأن وجودات الممكنات هي بمنزلة أشعة ولوامع لوجود الحق تعالى ، فهي ليست قائمة بالممكنات بل قائمة بذاته تعالى ، فلما وقع عرض الأمانة يعني بسط ضوء الوجود على هياكل أهل السماوات والأرض والجبال ، فأبوا أن يحملوها بزعمهم أن لهم وجودا مباينا لوجود الحق ، كالإنسان الغير

الكامل حيث يزعم أن له وجودا ، بل خرجوا عنها وانفكـوا عن وجـودهم الـذي كـانوا عليه وأشـفقوا عن تحمله ، لأن التقيد بقيد الوجود الخـاص الإمكـاني منـاط الظلمة والبعد عن منبع الفيض والجـــود ومعـــدن الكرامة والرحمة ، وحملها الإنســان لظلمه على نفسه بعــدم الخــروج عن ظلمة البعد إلى نـــور القـــرب ، وجهله بـــأن الســـلامة والسعادة في الخروج عن هذا الوجود الظلماني والـذهاب إلى عــالم الحق تعــالى ، فقوله : (**إِنَّهُ كــانَ ظَلُومــاً جَهُـولاً**) علي هـذا التأويل مذمة للإنسـان ، وعلى التأويل الأول مــدح له ولا منافــاة بين التــأويلين بل الكل محتمل فافهم.

الطرف الثالث

في علم المعاد وبيان حشر النفوس والأجساد وفيه مشاهد :

المشهد الأول

في بيان الفطرة الأولى للإنسان والعود إليها وفي التقابل

بين مراتب البدو ومراتب النهاية

اعلم أن المبدأ هي الفطرة الأولى كما قال (**فِطْـرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللـهِ**) ، والمعاد هو العـود إليها ، لقوله : (**كَما بَدَأَكُمْ تَعُـودُونَ**) ، فالإشـارة إلى المبـدإ قوله صـلىاللهعليهوآله : كـان الله ولم يكن معه شـيء ، وقوله : (**وَقَـدْ خَلَقْتُـكَ مِنْ قَبْـلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً**) ، وقوله : (**هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسـانِ حِينٌ مِنَ الـدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَـيْئاً مَـذْكُوراً**) ، فهـذا الوجـود للممكن هو الخـروج من العـدم الأصـلي إلى الكـون وهو الحـدوث ، والإشـارة إلى المنتهى قوله : (**كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْـهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْـرامِ**) ، وقوله : (**كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**) وقوله : (**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ**) ، وهذا خروج من هذا الوجود الناقص المجازي إلى العدم الأصلي ، والبدو والرجوع متقابلان في الجهة ، متحدان في الموضوع ، كما وقعت الإشـارة إليه ، فبحكم المبدإ ينبغي أن يسأل الرب تعالى ويجيب الخلق ، فقال : (**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى**) ، وبحكم المعـاد ينبغي أن يسـأل الـرب ويجيب هو عن نفسه ، فقـال : (**لِمَنِ الْمُلْـكُ الْيَـوْمَ لِلَّهِ الْواحِـدِ الْقَهَّارِ**) ، فالسـقوط الأول للإنسان من

الفطرة أي من العدم إلى الوجود هو الجنة التي كـان فيها أبونا آدم [1] وأمنا حـواء ، كما قـال : (**يا آدَمُ اسْـكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُـكَ الْجَنَّةَ**) ، والسـقوط الثـاني له من العـدم إلى الوجـود ، هو الهبـوط منها إلى دار الـدنيا ، لقوله تعـالى : (**اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً**) ، والرجوع إلى الفطـرة هو العـود من هذا الوجود المجازي إلى العدم ، وهو إما عدم القالب بالموت الطبيعي [2] ، (**كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ**) وبه يسـتحق المـؤمن من أصـحاب اليمين جنة السـعداء ، والكـافر من أصحاب الشمال جحيم الأشقياء ، والثـاني عـدم [3] النفس بموت الفزع قوله : (**وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَـزِعَ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**) ، وبه يسـتحق جنة الكـاملين ، (**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً**) ، والثالث عدم الروح بموت الصعق والفنـاء في التوحيد ، قوله : (**وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَصَـعِقَ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**) ، وبه يسـتحق جنة الموحدين ، (**فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي**).

اعلم أن المجيء إلى الـدنيا هو الـنزول من الكمـال إلى النقص والسـقوط من الفطـرة الأولى ، ولا محالة صدور الخلق من الخالق ليس إلا على

---

(1) يعـني أن ذلك المسـقط هو تلك الجنة ولتلك الجنة عالمـان عـالم الملكوت الروحاني وعالم الملكوت الصـوري والسـقوط من تلك الجنة إلى الدنيا بلا واسطة وفاصلة إنما هو السـقوط من الجنة الصـورية إلى محاذيها في المراتب الصـعودية العودية جنة أصـحاب اليمين الـذين هم المحشورون بالصور والقوالب الجسمانية وهو المعـروف بعـالم المثـال الواسـطة بين العـالمين عـالم الروحـاني المعنـوي العقلاني وعـالم الطبيعي الجسماني الهيولاني (نوري قدس‌سره)

(2) وهو موت البدن يقـوم السـاعة والقيامة الصـغرى ، ولعـدم النفس يقوم الساعة والقيامة الوسطى ، ولعدم الروح يقـوم السـاعة والقيامة الكبرى. (نوري قدس‌سره)

(3) يعـني من هـذا العـدم انقلاب الوجـود الصـوري الملكـوتي المثـالي المجرد عن المادة الهيولانية والمدة الزمانية بوجود الروحـاني المعنـوي المجـرد عن الصـورة وعن المـادة والمـدة الواسـطة بين عـالم اليـوم الإلهي السـرمدي وبين اليـوم النفسـاني الـدهري الصـوري المعروفة باليوم الربوبي وذلك العالم الواسط برزخ روحاني بين الوجود الحقـاني وبين الوجود الإمكاني الصوري المجرد والوجود الهيولاني وبنفخة الفزع ينتقل الأرواح من القوالب الصورية إلى ذلك العـالم الواسط الروحـاني الغير الحقاني ثم ينتقل تلك الأرواح بنفخة الصعق إلى الوجود الحقـاني الذي هو عالم وجه الله الباقي ببقاء الله (نوري قدس‌سره)

هذا السبيل والـذهاب من الـدنيا إلى الجنة ، ثم إلى جـوار الله هو العود إلى الفطرة والتوجه من النقص إلى الكمال ، ولا محالة رجــوع الخلائق إلى خـالقهم يكــون على هـذا السبيل ، (**اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) فـالأول هو أفــول النــور وغــروب الشــمس ، (**اللـهُ نُــورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**) ، والثاني هو صـعود الكلمة وطلــوع الشـــمس من مغربها ، فالعبـــارة من الأول ليلة القـــدر ، والعباره من الثاني يـوم القيامة ، ففي ليلة القـدر (**تَنَـزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْـرٍ**) ، وفي يوم القيامة (**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كـانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.**)

المشهد الثاني

في الإشارة إلى علم الساعة وسر القيامة وفيه قواعد :

قاعدة

في معنى الساعة

قال صاحب الكشف إنما سميت الساعة ساعة لأنها تسعى إليها النفوس ، لا بقطع المسافات المكانية بل بقطع الأنفاس الزمانية بحركة جوهرية ذاتية وتوجه غريزي إلى الله تعالى ، كما بينا في لمية ضرورة الموت الطبيعي ، فمن مات وصلت إليه ساعته وقامت قيامته ، وهي ساعة القيامة الصغرى ، وعلى هذا القياس حصول يوم القيامة العظمى والطامة الكبرى التي لساعات الأنفاس كاليوم للساعات أو كالسنة للأيام.

واعلم أن أهل المعرفة واليقين لا يشكون في أمر الساعة ولا ينتظرون قيامها ، كانتظار أهل الحجاب والغفلة الذين يشكون في وقوعها ، ويسألون عن وقتها ، (**وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**) ، بل أهل اليقين يستعدون لقاءها ويرونها كأنها قائمة عليهم ، كما في قوله تعالى : (**وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ**) ، وقوله : (**يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**) ، وقوله : (**وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ**

إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ، قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) ، وقوله : (يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً) ، وقوله : (أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها) و (لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ).

قال بعض أهل المعرفة : الحق الذي لا شك فيه أن علم الساعة مردود إلى الله ، كما قال : (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ) ، وليس للمحجوبين أن يؤمنوا بشيء من أسرارها وأشراطها ، إلا كإيمان الأكمه بالألوان من طريق الإيمان بالغيب ، كما قال تعالى : (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) ، وكما أن مدركات العقل أسرار على الحواس فكذلك مدركات القيامة أسرار على العقل النظري ، فلا يتصور أن يحيط بها أحد ما دام في الدنيا ولم يتخلص عقله عن أسر الوهم وقيد الخيال ، وقول الكفار (مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) سؤال عما يستحيل الجواب عنه على موجبه ، فإن أمر الساعة كان (كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) ، ومتى سؤال عن زمان معين للحركات والمتحركات الزمانية ، فاستحال الجواب عنه ، وهو كقول القائل الأكمه إذا وصفنا له المبصرات من الألوان وغيرها كيف نشم أو نذوق هذه الألوان ، والجواب الحق عن ذلك أن العلم بها أن يقال لهم إن العلم بذلك عند الله ، فمن رجع إلى الله تعالى وحشر إليه كان يعرف حينئذ علم الساعة وأنه عند الله كما قال : (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها).

واعلم أن أهل الحجاب وأصحاب الظن والارتياب يزعمون يوم القيامة بعيدا عن الإنسان بحسب الزمان كما قال : (وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً) ، وغائبا عنه بحسب المكان ، كما قال : (وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ) ، وأما أهل العلم واليقين فيرونه قريبا بحسب الزمان كما قال : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) ، ويرونه حاضرا بحسب المكان كما قال : (وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ) ، وقوله : (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَراهُ قَرِيباً) ، وكان نبينا صلى‌الله‌عليه‌وآله يشاهد الجنة وخازنها ويتناول من ثمارها ، وكان أيضا يشاهد النار و

يستعيذ بالله من شرها وحرها ، كما روي عنه في حال صلاة الكسوف ، ولذلك لم يحكم ولم يصدق بكون حارثة مؤمنا حقا ما لم يكن مشاهدا لأمور الآخرة وأحوال الجنة وأهلها وأحوال النار وأصحابها بعين اليقين ، إذ سأله كيف أصبحت قال أصبحت مؤمنا حقا ، قال صلى‌الله‌عليه‌وآله لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ، قال رأيت أهل الجنة في الجنة يتزاورون وأهل النار في النار يتعاوون الحديث.

قاعدة

في سر القيامة وزمانها ومكانها

اعلم أن القيامة كما مرت إليه الإشارة من داخل حجب السماوات والأرض ، ومنزلتها من هذه الحجب كمنزلة الجنين من الرحم لأمه ، ولذلك لا يقوم القيامة إلا (**إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها**) ، و (**إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ**) ، و (**إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ**) ، و (**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ**) و (**إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ**) واذا (**النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ**) و (**إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ**) و (**إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ**) ، (**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ**) ، (**يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ**) ، (**يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً**) ، (**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً**) ، (**يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ**) ، (**فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ**) ، (**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ**) ، (**يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ**) ، (**يَوْمَ لا تَمْلِكُ**

نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَـيْئاً وَالْأَمْـرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) ، (**يَــوْمَ تُبْلَى السَّــرائِرُ**) ، (**إِذا بُعْثِـرَ ما فِي الْقُبُـورِ وَحُصِّـلَ ما فِي الصُّــدُورِ**)» ، فما دام الســالك خــارج حجب الســماوات والأرض فلا تقـــوم له القيامة ، لأن القيامة كما مر داخل هـذه الحجب عند الله ، (**وَعِنْـدَهُ عِلْمُ السَّـاعَةِ**) ، وقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله : لا تقـوم السـاعة وفي وجه الأرض من يقـــول الله الله ، إشـــارة إلى أن الرجل ما دام خـــارج الحجب فالقيامة سر على علمه ، فـــــــإذا قطع الحجب وتبحبح [1] في حضـرة العندية سـارت القيامة علانية عنـده بعد ما كانت غيبا عنه ولذلك لم يجز أن يرى الله ولا أمـور الآخـــرة لا نـــبي ولا ولي ما دام في الـــدنيا ، وما لم يصر الأبصــار بصــائر ، وإن نبينا صــلى‌الله‌عليه‌وآله إنما كــانت القيامة علانية عنــده حين قطع حجب الســماوات والأرض ونفذ من أقطارها (**فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْـرى عِنْـدَ سِـدْرَةِ الْمُنْتَهى عِنْـدَها جَنَّةُ الْمَـأْوى إِذْ يَغْشَــى السِّــدْرَةَ ما يَغْشى ما زاغَ الْبَصَــرُ وَما طَغى لَقَــدْ رَأى مِنْ آيــاتِ رَبِّهِ الْكُبْــرى**) ، ثم إذا رجع إلى مستقره ومهبطه من خارج هذه الحجب صار ذلك الشهود عنــده ســرا وغيبا ، وانقلبت المعاينة خــبرا كما كــان قبل العــــــروج ، وإنما كـــــان عينا وعلانية حين قطع حجب السماوات والأرض وكـان من وراء الحجب ، وعلى الجملة فالسر سر أبـــدا حيث هو سر ، والعلانية علانية حيث هي علانية.

واعلم أن سر القيامة من الأســرار العظيمة الــتي لم يجز للأنبياء عليهم‌السلام كشـفها ، لأنهم من حيث كـونهم رسلا أصحاب شرائع ، والقيامة يوم جزاء بلا عمل ، ويــوم الشريعة يـوم عمل بلا جـزاء ، وتعب بلا ثـواب ، والأوليـاء أهل قيامة من حيث ولايتهم وقـــــربهم عند الله ، كما في قوله صـلى‌الله‌عليه‌وآله : لي مع الله وقت لا يسـعني فيه ملك مقـــرب ولا نـــبي مرسل ، أخـــبر عن حاله ومرتبته الباطنية ، وأما حاله في غــير ذلك المقــام فكما في قوله تعالى : (**ما أَدْرِي ما يُفْعَـلُ بِي وَلا بِكُمْ**) ... (**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**) ، وقوله : (**يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ**

---

(1) إذا تمكن وتوسط المنزل والمقام

أَيَّانَ مُرْساها فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها) ، وقوله : (**إِنَّما أَنْتَ مُنْـذِرٌ وَلِكُـلِّ قَـوْمٍ هـادٍ**) ، قـال لعلي عليه‌السـلام : أنا المنـذر وأنت الهــادى ، وبالجملة الشــريعة هي المشــرع العــام والقيامة هي المقصد والغاية ، فصاحب الشريعة من حيث هو كــذلك يقــول (**لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُــولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**) ... (**وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْــرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ**).

تبصرة عقلية

لا يخفى عليك أن الـدنيا كـون نـاقص وما فيها أكـوان ناقصة ، وجواهرها جواهر ضـعيفة الوجـود متعلقة الـذوات بغيرها ، ولنقص جواهرها وضعف وجودها التدريجي يحتـاج النفـوس الآدمية ما دامت فيها كالأطفـال إلى مهد وداية ، فالمهد كالمكــان ، والداية كالزمــان ، فكل من الزمــان والمكان لغاية ضعف وجودها غـير مجتمع الوجـود ولا قـار الذات ، فوجود كل جزء من الزمان يقتضي غيبة صـاحبه ، وحضور كل حصة من المكان يستدعي فقد صـاحبه ، وأما وجـود الآخـرة فهي كـون تـام مسـتقل بنفسه ، مسـتكف بذاته ، وكذا الموجودات الأخروية ، فهي أكوان ثابتة قائمة بـذاتها وبـذات مبـدعها ومنشـئها بريئة الـذوات عن القـوة والاستعداد ، وعن الافتقار إلى الأزمنة والمواد ، وإنما هي مفتقرة بمبدئها الجواد ، «**الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ** و **كُلُّهُمْ آتِيـهِ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ فَـرْداً**» ، فليس لمكـان الآخـرة انقسـام وانفصال ولا انصرام وزوال ، ولا لزمانها تجـدد وانقضـاء ، ولا شـروع وانتهـاء ، بل هـذان على هـذا النحو مسـلوبان هنــاك ، لكن إذا أريد أن يخــبر عنهما لأهل هــذا العــالم ، المقيـدين بسلاسل الزمـان وأغلال المكـان ، لا يمكن ذلك إلا بضرب من المثال ، فإذا أشير إلى زمان الآخرة وأجيب عن السؤال عن متاها يعبر عنه بأقل زمـان وألطفه ، وهو ما يســميه الجمهـور الآن ، (**وَما أَمْـرُ السَّـاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ**) ، وإذا أشــير إلى مكانها وأجيب عن أينها ، يعبر عنه بأوسع مكان فيقال (**جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ**) وقد مر أن أمر الإبداع مثل أمر الإعادة ، قوله : (**كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**) ، وقوله : (**كَما بَدَأْنا أَوَّلَ

خَلْقٍ نُعِيدُهُ) ، والأول غير زماني ، (**وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِـدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**) ، فكذا الثاني (**وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ**) ، (**ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ**).

حكمة كشفية

قـال صـاحب الكشف : القيامة قيامتـان ، الصـغرى وهي معلومة ، من مـات فقد قـامت قيامته ، والكـبرى ووقتها مبهمة ولها ميعـاد عند الله ، ومن وقتها فهو كـاذب لقوله صـلىاللهعليهوآله : كـذب الوقـاتون ، وكل ما في القيامة الكـبرى فله نظـير في الصـغرى ، لما علمت أن الإنسان عالم صغير وأحواله أنمـوذج من أحـوال الإنسـان الكبـير ، ومفتـاح معرفة هـذه الحقـائق معرفة النفس الإنسـانية ، وقس الآخـرة بـالأولى ، والمـوت بـالولادة ، والولادة الكبرى بـالولادة الصـغرى ، والـدنيا بـالأم والقـبر بـالرحم ، والبـدن بالمشـيمة ، فمن أراد أن يعـرف معـنى القيامة الكـبرى وظهـور الحق بالوحـدة التامة ، وطي السـماوات وقبض الأرض ، وانـدراس الأزمنة والأمكنة ، واضمحلال المواد والأشـخاص ، ورجـوع الخلائق كلهم إلى الله ، وعود الروح الأعظم ومظـاهره وآثـاره إليه تعـالى ، وفناء الكل عنده حتى الأفلاك والأملاك والنفـوس والأرواح ، كما قـال : (**فَصَـعِقَ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شـاءَ اللـهُ**) ، وهم الـذين سـبقت لهم القيامة الكبرى ، فليتأمل في القواعد السـابقة والشـواهد الماضية ، من إثبات الحركة الجوهرية والاستحالة الذاتية ، وتوجه كل سافل إلى عال ، ورجوع كل شيء إلى أصـله ، وعـود كل نـاقص إلى كماله ، ومن إثبـات الغايـات الذاتية للأشـياء الطبيعية وأفاعيلها الذاتية ، فما من موجـود إلا ويقع له الرجـوع إلى الله يوما ، ولو بعد أحقـاب وأكـوار كثـيرة ، إما بمـوت أو فنـاء أو اسـتحالة أو انقلاب ، فكل حركة وانقلاب لا بد له من غاية ولغايته أيضا غاية إلى أن ينتهي إلى غاية يجتمع فيها الغايات ، وهي يـوم واحد إلهي ، بل لحظة واحـدة أو أقـرب منها ، حاوية لجميع الأوقـات والأزمنة والآنـات الـتي يقع فيها النهايـات ، كما أن جميع البدايات يبتدأ

من بداية واحدة لمبدإ واحد يتشعب منه كل بداية ومبدإ أثر.

ومن تنور باطنه بنور اليقين ، وشاهد حشر جميع القوى الإنسانية مع تباينها واختلاف ماهياتها وهوياتها إلى ذات واحدة بسيطة روحانية ، ورجوعها إليها واستهلاكها فيها ، كما أنها نشأت [1] وانبسطت منها وتكثرت بوحدتها ، فالروح منه انبساط أشعة القوى على مواضع البدن ، وإليه رجوع أنوارها من محابس مظاهرها ، هان عليه التصديق برجوع الكل إلى الواحد القهار ، وسهل له سلوك سبيل الاهتداء لهذا المطلب الشريف الذي أكثر الخلق عنه غافلون ، وهو «النبأ العظيم الذي عنه معرضون». أما شاهدت يا حبيبي تبدل أجزاء العالم وطبائعها في كل لحظة؟

وأ ما رأيت أنها متزايلة متبدلة دائما بعضها إلى بعض بحركة جوهرية ذاتيه وتوجها جبليا إلى مبدإها وأصلها ، كما قال : (**وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**) ، وقال : (**أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**) ، (**قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً**) [2] أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ.

قاعدة

في معرفة طريق الآخرة ومنشإ إعراض الخلق عن سلوكها

اعلم أن طريق الآخرة سهلة يسيرة غير وعرة ولا صعبة ، والنفوس مجبولة على سلوكها ، لأنها التي وقع المرور عليها عند المجيء من ذلك العالم إلى الدنيا ، وقد علمت أن الطبائع كلها متوجهة إلى الغايات ، ثم إن هذا الطريق واضحة والعلامات منصوبة ، والهداة قائمون ، والقواد موجودون ، والمعلمون من قبل الله مرسلون ، والكتب والرسائل منزلة ، كما قال تعالى : (**لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ**) ، وقوله : (**وَلَقَدْ**

---

(1) ـ تعليل ودليل الرجوع القوى إلى ما نشأت منه كما بدأكم تعودون (نوري قدس‌سره)

(2) كأنه إشارة إلى عموم رجوع كل شيء بأية صورة كانت ورجعت وعادت فافهم كما قال لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء إلا أنه بكل شيء محيط (نوري قدس‌سره)

وقوله : (قَـدْ جـاءَكُمْ بَصـائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ) ، وقوله : (قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللـهِ نُـورٌ وَكِتـابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَـعَ رِضْـوانَهُ) ، إلى غـير ذلك من الآيـات والحجج والبينـات ، ومع ذلك فالنـاس غـافلون عنها معرضون عن سلوك الآخرة ، كما قال : (وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغـافِلُونَ) ، وقوله : (وَكَـأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُـرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُــونَ) ، إشــارة إلى أنهم مع كــونهم مــارين على منــازل الآخــرة بحسب الغريــزة والطبع معرضــون عنها بحسب الإرادة والكسب ، لآفة ومــرض قد طــرأت على نفوســـهم ، وغيرتها عما جبلت عليه ، وقوله : (وَلَقَــدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَـهُ عَزْمـاً) ، وقوله : (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُـونَ) ، وأما سبب إعراضهم عن سلوك طريق الآخرة فهو أشياء كثيرة ، لكن مع كثرتها وكـثرة شـعبها مندرجة تحت ثلاثة أمـور ، كما قيل : رؤســاء الشــياطين ثلاثة ، شــوائب الطبيعة ، ووساوس العادة ، ونواميس الأمثلة.

أما الأولى فعبـــارة عن دواعي الطبيعة وشـــهوات النفس والهــوى المشــار إليها في قوله تعــالى : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّـهَواتِ مِنَ النِّسـاءِ وَالْبَنِينَ) إلى قوله (ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا) ، وهي كلها حجب وأغطية على القلــوب إذا اســتغرقت فيها واســتحكمت تصـير غشـاوة وطبعا ورينا على مـرآة القلب ، وعمي على عينه ، ووقـرا على أذنه ، كما في قوله تعـالى : (فَأَغْشَـيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِـرُونَ وَسَـواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْـذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْـذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُــونَ) و (جَعَلْنا عَلى قُلُــوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُــوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْـــراً) ، وقوله : (وَإِنْ تَـــدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا) ، وقوله : (وَتَـراهُمْ يَنْظُـرُونَ إِلَيْـكَ وَهُمْ لا يُبْصِــرُونَ) ، وقوله : (صُــمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُــــونَ) ، وذلك لأن الســــمع والبصر وغيرهما من المدارك التي يمكن بها إدراك الأمـور الآخـرة ليست هـذه الظواهر المادية الـتي اشـتركت فيها سـائر الحيوانـات مع الإنسان ، بل هذه قشور وملابس على تلك الحواس الـتي تدرك بها أمـور الآخـرة ، كما أن مـدركات هـذه المشـاعر قشور وقبـور وحجب على مـدركات تلك المشـاعر ، وهي الصــور الموعــودة في الجنــان ، المســتورة عن أعين الخلائق من الإنس والجـان ، كما قـال : (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما

أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ) ، وإدراكها متوقف على نزعها من القشور وإخراجها عن موادها التي هي كالقبور ، (**كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ**) و (**إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ**) والأبصار ، فمن نظر اعتبر ومن اعتبر عبر.

وأما وساوس العادة فهي تسويلات النفس الأمارة بالسوء وتزيينها الأعمال الغير الصالحة ، وترويجها الاعتقادات الكاسدة ، وتصويرها الآراء الفاسدة بصورة الحق ، ومنشؤها قوة الخيال والوهم ، كما أن منشأ القسم الأول قوة الطبع والحس ، (**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**).

وأما نواميس الأمثلة فهي كمتابعة أهل الضلال وتقليد المشهورين بالفضل والدراية ، واستهواء الشياطين من الإنس ، أعني علماء السوء ، وإجابة دعوتهم وتتبع آرائهم الفاسدة واقتفاء آثارهم المغوية المضلة ، قوله تعالى : (**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**) ، (**إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً**) ، و (**قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ**) ... ، وقالوا (**رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ**) ، وهذا سد عظيم وحجاب شديد وقع على أكثر الناس أعني تقليد الجهال المتشبهين بالعلماء ، من الجدليين الضالين المضلين المكذبين لأنبياء الله وهم لا يشعرون ، وهم الذين قال الله فيهم : (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**) ، وقال : (**مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ**) ، وقال : (**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**).

قاعدة

في نتائج الإعراض عن سلوك سمت المعاد بتكميل النفس وتطهيرها ، وتنوير القلب وتهذيبه ، وهي الظلمة وضيق الصدر وعذاب القبر والاحتراق بنار الجحيم والحرمان عن لذات النعيم والاحتجاب عن جمال رب العالمين.

وذلك لما مر أن قوام النشأة وحياة القلب أنما يكون بالعلم والمعرفة فمن لا علم له لا قوام لنفسه ولا حياة لقلبه ولا نور له.

واعلم أن دار الآخرة دار حيوانية علمية ، ووجودها وجود إدراكي ، ليست كدار الدنيا التي هي دار الموت والزوال والجهل والظلمة ، قال تعالى (**إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**) ، فبقدر نور المرفة تكون قوة السعي وسرعة المشي إلى منازل الآخرة ، قال (**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ**) ، فمن لا نور له لا عيش له هناك ، قوله (**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى**).

واعلم أن للعمى مراتب ، أعني عمى القلب الحقيقي (**فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**) ، والمراد من الصدر أيضا الصدر المعنوي الذي هو النفس الحيوانية البشرية المدركة للجزئيات ، وتلك المراتب هي مثل الغشاوة ، (**فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**) ، والختم ، (**خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ**) ، والطبع ، (**بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ**) ، والرين (**كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**) ، وهذا غاية مراتب العمى المؤدية إلى الحرمان واليأس وأعظم الحجب الاحتجاب من الحق ، (**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ**).

المشهد الثالث

في تحقيق القبر وعذابه وثوابه

قـال بعض الأكـابر إن نفس الإنسـان إذا تجـردت عن البدن ربما لا يتجرد عن آثاره وغباره ، بل يصحبها الهيئـات المكتسـبة ، وهي عند المـوت عارفة بمفارقة البـدن عن دار الـدنيا [1] ، مدركة ذاتها بقوتها الوهمية عين الإنسـان المقبـور الـذي مـات على صـورته ، كما كـان في الرؤيا يشاهد نفسها على صورته التي كـانت في الخـارج بعينها ، ويشاهد الأمور مشاهدة عيان بحسـها البـاطني ، ويشـاهد الآلام الواصلة إليها على سبيل العقوبات الحسـية على ما وردت به الشـرائع الحقة ، وهو عـذاب القـبر ، وإن كـانت سعيدة فيتصور ذاتها وصور أعمالها ونتـائج ملكاتها وسـائر المواعيد النبوية على وفق ما كـانت تعتقـده أو فـوق ما يتصـوره ، فهـذا ثـواب القـبر ، ولـذلك قـال النـبي صلىاللهعليهوآله

(1) البدن العنصري الحي بالحياة الدنياوية ، فهذا البدن العنصري الـذي هو من المركبات العنصرية ومن الموجودات الدنيوية التي وجودها عين الموجـودات الدنياوية بما هي دنيوية ، كيف يتصـور ويتعقل مفارقته عن دار الـدنيا وخروجه عنها إلى دار أخـرى غـير دار الـدنيا لاسـتلزام هـذه المفارقة والخروج مفارقة الشيء عن نفسه وانفكاكه عنهما ، وانفكاك الشـيء الشخصي بعينه عن نفسه من الأمـور النسـبية الاسـتحالية وإن أراد منه البدن الأخروي المعروف بالقالب المثالي وهو الصورة المثالية الملكوتية الـتي هي بعينها الـروح النفسـانية المعروفة بـالحس البـاطن ويسمى بـالقوة الخيالية والصـورة الخيالية فهـذه المفارقة فـرع القـول بتجرد قوة الخيال وبوجود عالم المثال الصـوري وبوجـود البعد المجـرد عن المادة والمدة وهـذا الشـيخ ومن يحـذو حـذوه لا يقولـون ولا يمكن لهم القول بذلك والحق على مشربه الكدر هو الاحتمـال الأول وهو كما ترى أظهر فلا تغفل (نوري قدسسره)

القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران ، فالقبر الحقيقي هذه الهيئات وعذابه وثوابه ما ذكرناه انتهى كلامه.

واعلم أن ما ذكره هذا العالم النحرير غاية ما يمكن أن يقول هو ومن يحذو حذوه من الذين زعموا أن الجزء الباقي من الإنسان بعد الموت ليس إلا جوهرا عقليا لا يصحبه قوة الخيال فضلا عن قوة الحس فصعب عليهم إثبات عذاب القبر وثوابه على الوجه الإدراك الجزئي الحسي.

وأما نحن بحمد الله فلما ذهبنا إلى أن للإنسان غير هذا القشر الطبيعي بدنا نفسانيا ذا حواس جزئية من السمع والبصر والذوق والشم واللمس ، يدرك بها الصور والأشكال الأخروية من المثوبات والعقوبات الموعودة في لسان النبوات ، فلا يعسر علينا إثبات كثير من أمور القيامة وما بعد الموت على الوجه المسموع المنقول.

ثم العجب من هذا القائل ومن في طبقته كيف يمكنهم إثبات هذه الإدراكات الجزئية بعد الموت ، لأنها التي يتوقف عندهم على الآلات الجسمانية والقوى الطبيعية المادية ، والوهم أيضا عندهم قوة قائمة بجزء من الدماغ فكيف يبقى العرض بعد فساد موضوعه ، والحق عندنا أن الجوهر المتخيل الحساس من الإنسان أمر باق بعد الموت الطبيعي.

قال أعظم المحدثين أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه طاب ثراه : اعتقادنا في المساءلة في القبر أنها حق لا بد منها ، فمن أجاب بالصواب فاز بروح وريحان في قبره وبجنة نعيم في الآخرة ، ومن لم يجب بالصواب فله نزل من حميم في قبره وتصلية جحيم في الآخرة ، وأكثر ما يكون في عذاب القبر من النميمة وسوء الخلق والاستخفاف بالبول ، وأشد ما يكون عذاب القبر على المؤمن ، مثل اختلاج العين أو شرطة الحجام ويكون ذلك كفارة لما بقي من الذنوب التي لم تكفرها الهموم والغموم والأمراض ، وشدة النزع عند الموت.

قال بعض أهل الكشف والشهود كل من كشف الغطاء عن بصيرته وشاهد بعين القلب باطنه في الدنيا ، لرآه مشحونا بأنواع الموذيات وأصناف السباع ، مصورة عنده مثل صورة الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر

والعجب والريـاء ، إذ لكل من هـذه المعـاني صـورة في الباطن كما لها صورة في الـدنيا ، لكن صـورتها الـتي في الـدنيا مغشوشة بغيرها ، مغموسة في مادتها ممنوعة عن تأثيرها بعوائق خارجية.

فسـبع الـدنيا يمكن الاحـتراز عنها بمـانع أو حجـاب أو عدم قصد من جانبه أو غـير ذلك ، بخلاف السـبع البـاطني فإن كله حقيقة السبعية ، وهو مع ذلك متمكن من صـميم قلب من رسـخت ملكة السـبعية فيه ، وكـذلك الحيـات والعقـارب الـتي في الـبرزخ أو في الآخـرة ، فإنها لازمة الإيلام والإيـذاء من غـير دافع ولا معـارض ، لأنها صـور خالصة بلا امـتزاج بغيرها ولا افـتراق وانفكـاك بعد ، إذ الصور كلها في القيامة صور محضة بسـيطة غـير مشـوبة بغواش وملابس ومواد ، وكذا نار الآخرة ليست كنار الدنيا ممزوجة بغيرها من دخان أو هواء أو مـادة حطب أو فتيلة دهن أو غيرها ، بل نـار محضة قطاعة (**نَزَّاعَـةً لِلشَّـوى تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى**).

وقد ورد في الحديث عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في عذاب القبر أنه قال هل تـدرون فيما ذا أنـزلت (**فَـإِنَّ لَـهُ مَعِيشَـةً ضَـنْكاً**) قـالوا الله ورسـوله أعلم ، قـال عـذاب الكافر في قبره أن يسلط عليه تسعة وتسـعون تنينا ، هل تـدرون ما التـنين تسـعة وتسـعون حية لكل حية تسـعة رءوس ينهشونه ويلحسونه وينفخون في جسـمه إلى يـوم يبعثـون ، فـانظر يا عـارف بين التـدبر والاعتبـار في هـذا الحديث وتبصر واهتد.

فـإني والحمد لله أعلم بعين اليقين أن هـذا الحـديث ونظـائره الـواردة من طريق الكتـاب والسـنة في أحـوال القيامة وأهوالها حق وصـــدق ، فـــآمنت بها إيمانا عيانيا مقرونا بالكشف والشهود «و (**بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُـرُوا**) و (**جِئْتُـــكَ مِنْ سَـــبَإٍ بِنَبَـــإٍ يَقِينٍ**) ، ولست كالمتفلسف الجاهل بأحكـام الآخـرة وأحـوال القيامة ينكر هـذا وأمثاله ويجحدها ، ويقـول إني نظـرت في قـبر فلان فلم أر شـيئا من تلك الحيـات أصلا ، وليعلم الجاهل المتفلسف العـنين في معرفة الله واليوم الآخر أن هذا التنين له صورة غائبة عن هذا الحواس ، إذ مـدركاتها مختصة بما له وضع مـادي بالنسبة إلى محل الحس الداثر ، ولأجل ذلك

لم يقع الإحساس بهذا التنين وما يجري مجـراه من حيـات الآخـرة ومؤذياتها ولـدغها وإيلامها لخـدر الطبيعة وغشـاوة الحس الظاهري ، وأن تلك الحيـات والمؤذيـات ليست لها صــور خارجة عن ذات الميت ، أعــني صــميم قلبه وعين باطنه ونفسه المصورة في القيامة بصورة أخلاقه وأعماله ، وقد مـرت الإشـارة إلى أن الصـور المحسوسة بما هي محسوسة بالذات متحد بـالجوهر الحـاس ، بل الـروح هي بالحقيقة الحسـاس اللامس الـذائق الشـام ، وهي الـتي يتألم ويلتذ ويتنعم ويتعذب في الدنيا والآخـرة جميعا ، لكن في الدنيا مع غواش وظلمات وملابس ، وهي خالصة يـوم القيامة ، فصورة هذا التنين كانت مع الكافر المنـافق قبل موته أيضا متمكنة من باطنه ، لكن لم يكن شـاعرا بهـذه الحيــات ورءوســها ومباديها وصــورها وموادها المعنوية ، لخـدر حسه وغشـاوة طبعه وأمـور شـاغلة له عن دركها ، وحجب حاجبة إياها عن بصــــيرته ، لغلبة الشــــهوات والأغـراض ، فما أحس بلـدغ هـذا التـنين [1] وعـدد هـذه الحيات التي عـددها بقـدر عـدد الشـهوات وعـدد رءوسـها بقــدر عــدد الأخلاق النفســانية الرديئة الــتي هي مبــادي الشهوات.

قال بعض العلماء : أصل هذا التـنين حب الـدنيا الـتي هي رأس كل خطيئة ، ويتشــــعب منه رءوس بعــــدد ما يتشعب من حب الـدنيا من الأخلاق الذميمة وما يتبعها من الشهوات ، وأصل هذا التنين معلوم بنـور البصـيرة ، وكـذا كـــثرة رءوسه ، وأما انحصـــاره فيما ورد في الحـــديث المذكور فإنما توقف عليها بنور النبوة لا غير ، فهذا التـنين متمكن من صميم فؤاد الكافر لا لمجرد كفره بالله وجهله البسـيط ، بل لما يـدعوه إليه كفـره من حب الـدنيا ، كما قال : (**ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ**).

---

(1) ـ لسعه.

المشهد الرابع

في البعث والحشر

قاعدة

أما البعث فهو خروج النفس عن غبار الهيئـات البدنية المحيطة بها ، كما يخرج الجنين من القرار المكين ، ومدة كون الميت في القبر ككـون الجـنين في الـرحم ، ونسـبة حالة القـبر إلى حالة البعث كنسـبة الجـنين إلى المولـود ، قوله تعـالى (**وَمِنْ وَرائِهِمْ بَـرْزَخٌ إِلى يَـوْمِ يُبْعَثُـونَ**) ، وقد مــرت الإشـارة إلى أن للإنسـان أنحـاء من الوجــود بعضــها أقــوى وأتم من بعض ، وأن له بعد هــذه النشــأة العنصـرية نشـئات أخـرى ، وأما قـول صـاحب الإحيـاء إن دنياك وآخرتك ليستا إلا حالتاك ، وهما من جنس المضاف ، فليس كما ينبغي إلا أن يـــراد بالحالة نحو من الوجــــود الجوهري ، وليس المراد من كون الـدنيا والأخـرى أمـران إضافيان ، أن هوية الإنسان نحو واحد من الوجـود ، يكـون أولا في هـذا العـالم وثانيا في ذلك العـالم من غـير تحـول جــــوهري وحركة معنوية ، بل الدنيوية والأخروية والأولية والآخرية صفتان جوهريتـان له ، وطـوران وجوديتـان لذاته لما سبق ، من أن الإنسان من لـدن حدوثه يشـتد وجـوده شيئا فشيئا ويتطور في الأطـوار الوجودية تـدريجا ، إلا أن الـدنيا جامعة لطائفة من تلك الأطـوار والآخـرة جامعة لما بعد هــــذه الأطــــوار إلى ما لا نهاية له ، وجميع الأطــــوار الدنياوية على تفاوتها في الدناءة والشرف خسيسة دنية

بالقيـاس إلى الأطـوار الأخروية ، ولهـذا المعـنى يصح أن يقال إنهما واقعتـان تحت جنس المضـاف ، وإليه الإشـارة بقوله (**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَـوْ لا تَـذَكَّرُونَ**) ، فكل من علم أن هــذه النشــأة الدنيوية من أوائل تكوناته الطبيعية الواقعة فيه على التــدريج ، يعلم أن ذاته متوجهة دائما من نشــأة أدنى إلى نشــأة أخــرى ، وأن له أطــوار مختلفة بعضها بعد بعض ، على سـبيل منـازل السـفر إلى الله تعــالى بعض هــذه المنــازل في الــدنيا وبعضــها في الأخـرى ، فأصل مـادة وجـوده من الـدنيا ، وكـذا صـورته العنصرية ثم الصورة النباتية ثم الصـورة الحسـية كلها من الدنيا ، وبعد هذه الأطوار نشـأة النفس ثم القلب والـروح والسر والخفي ، وما وراء كلها من الآخرة (**وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً**).

وأقوى البراهين عنـدنا في تحقيق النشـأة الآخـرة هو المـأخوذ من إثبـات الغاية في الحركـات الطبيعية سـيما الحركة الجوهرية الإنسانية ، لأنها واقعة في جميع الحـدود الإمكانية من أدونها ، كالنطفة بل الـــتراب إلى أعلاها إذا قطع بها القوس الصعودية كلها ، ولهـذا وقع هـذا السـياق من البرهان في كثير من آيات القـرآن مثل قوله ، (**كَيْـفَ تَكْفُرُونَ بِاللـهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتـاً فَأَحْيـاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ**) ، يعـني (**كُنْتُمْ أَمْواتـاً**) قبل ولوج الروح الحيواني فيكم كسـائر النباتـات والجمـادات ، (**فَأَحْياكُمْ**) بهذه الحياة الحسـية ، (**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**) عن هـذه الحيـاة الطبيعية بإفـادة الحيـاة النفسـانية الروحانية ، (**ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) بحيـاة أخـرى قدسـية ، وقوله حكاية عمن قـــال في جـــواب من قـــال ، (**وَما أَظُنُّ السَّـــاعَةَ قائِمَـةً**) ... ، (**قـالَ لَـهُ صـاحِبُهُ وَهُـوَ يُحـاوِرُهُ أَكَفَـرْتَ بِالَّذِي خَلَقَـكَ ، مِنْ تُـرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ ثُمَّ سَـوَّاكَ رَجُلاً**) ، وقوله (**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُـرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْـرِ مُخَلَّقَـةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِـرُّ فِي الْأَرْحـامِ ما نَشـاءُ إِلى أَجَـلٍ مُسَـمًّى ثُمَّ نُخْـــرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُـــوا أَشُـــدَّكُمْ**) ، إلى هنا من الأطوار الدنياوية ، ولا بد لهذه الحركة الذاتية من غاية في الطبيعة ، وإلا لكـــانت عبثا وبـــاطلا ، وتلك الغاية لا بد أن يكـون أمـرا خارجا عن حـدود الـدنيا لوقـوع المـرور على مراتبها كلها ، والغاية بالضرورة خارجة عن حدود المسافة ومراحلها ، فهي من منازل الآخرة ، وهي لا تحصل إلا

بعد المـوت والبعث ، فـالموت هو آخر مـنزل من منـازل الدنيا وأول مـنزل من منـازل العقـبى ، ولأجل هـذا قـال : (**ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَـقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَـوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ وَأَنَّ السَّـاعَةَ آتِيَـةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ**) ، وقال أيضا : (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسـانَ مِنْ سُـلالَةٍ مِنْ طِينٍ**) إلى قوله (**ثُمَّ أَنْشَـأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخـالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْـدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ**) ، وقــال : (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ**) ، وقـال : (**أَيَحْسَـبُ الْإِنْسـانُ أَنْ يُتْـرَكَ سُـدىً أَلَمْ يَـكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْـنى ثُمَّ كـانَ عَلَقَـةً فَخَلَـقَ فَسَـوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى أَلَيْسَ ذلِـكَ بِقـادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَـوْتى**) ، وقوله : (**أَوَلَمْ يَـرَ الْإِنْسـانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قـالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظـامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُـلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَـأَها أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَهُـوَ بِكُـلِّ خَلْـقٍ عَلِيمٌ**) ، ، إلى غير ذلك من الآيات التي وقع الاستدلال بها على ثبوت البعث تارة من جهة إثبات الغايات ، وتـارة من جهة البـدايات ، فـإن للإنسـان نشـئات بعد هـذه النشـأة الطبيعية ، كما أن له نشـئات سـابقة على هـذه ، والقـوم ربما ذهلـــوا عن بعض مقاماته اللاحقة أو كلها ، كما أنهم ربما غفلوا عن بعض مقاماته السابقة ، فتارة أنكروا بعض مــراتب المعــاد ومنــازل النفس كالظــاهريين المنكــرين للمعاد الروحاني وكالفلاسفة المنكرين للمعـاد الجسـماني ، وتارة كلها كالدهريه المنكرين للمعادين جميعا الـزاعمين أن الإنســان إذا مــات بطل ، (**قــالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الـدُّنْيا نَمُـوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الـدَّهْرُ**) ، كما أنهم ربما أنكـروا أن كـان للإنسـان كينونة سـابقة على حـدوث هذا البدن ، كأتبـاع أرسـطو المنكـرين لتقـدم النفس على البدن تقدما عقليا كما رآه أفلاطــون ومن قبله ، وأما أهل المعرفة والشـهود المقتبسـون أنـوار الحكمة من مشـكاة النبــوة فيعلمــون أن للإنســان نشــئات وجودية بعد هــذا الوجـود ، ونشـئات وجودية قبله ، كل بـإزاء نظـيره قـال تعـالى إشـارة إلى بعض المقامـات السـابقة : (**وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ ، مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى**) الآية ، أي

أخذ أرواحهم من ظهور آبائهم العقلية ، فهـذا مقـام عقلي تفصيلي [1] لأفراد النـاس بعد وجـود أعيـانهم في علم الله على وجه بسيط عقلي ، وقـال إشـارة إلى مقـام آخر بعد المقـامين المـذكورين : (**يا آدَمُ اسْـكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُـكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَـداً حَيْثُ شِـئْتُما**) الآية ، فهـذه أيضا نشأة سابقة للإنسان على نشـأته الدنياوية ، فـإذا ثبت أن له أطوارا سابقة على هـذا الوجـود ثبت أن له العـود إليها تـارة أخـرى ، إما سـعيدا ، أو شـقيا محبوسا في بعض المحابس والسجون.

وبالجملة من علم أنه من أين يجيء إلى هـذه الـدار ، يعلم أنه إلى أين يـذهب ، بقوله : (**كَما بَـدَأْنا أَوَّلَ خَلْـقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ**) ، وقوله (**كَما بَـدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ**).

تنبيه استبصاري

اعلم أن الإنسان لو علم ذهـاب بدنه وقلد طبيعته في السلوك إلى الكمـال ، وسـلك في ذهـاب نفسه وتصـرف أحوالها كما سلك في مذهب جسده وصورة بدنه ، سـيبلغ أقصى الغايات إن شـاء الله ، فما سـلكت فيه طبيعة بدنه وذهب إليه مسـافر جسـده ، أنه ابتـدئ من تـراب ثم من نطفة ثم كـان علقة ثم مضـغة ثم جنينا مصـورا ثم طفلا متحركا حساسا ، ثم صـار صـبيا زكيا ، ثم شـابا متصـرفا قويا نشيطا متفكرا ، ثم يكون كهلا مجربا عـاقلا أو مكـارا محيلا ، ثم يكون شيخا حكيما كاملا أو زنـديقا كـافرا ، فله أن يصير بعد الموت إن

---

(1) التفصيلي الوجودي ، وقوله على وجه بسيط عقلي تعني من الوجه البسـيط العقلي في علم الله ، العلمي الكمـالي الـذاتي السـابق على وجـود الأشـياء وإيجادها وعلى العلم بها في مـراتب وجودها الوجـود الإجمالي ، وقوله إلى مقام آخر بعد المقامين يعـني الوجـود الملكـوتي الصوري المثالي الذي هو عالم الأشباح بعد عالم الأرواح العقلية ، وتلك الأرواح والأشـباح السـابقة على وجـودهم في النشـأة الدنياوية نشـأتها نشأة الدهر بقسميه الأيمني والأيسري ، والدهر باطن الزمـان وسـره ، والوجود الدنياوي زماني والزمان ظل الدهر ، وعن الأيمـني والأيسـري من الـدهر الـداهر يخـبر قوله صـلىاللهعليهوآله إن الأرواح خلق قبل الأبـدان بـألفي عـام والإخبـار بهـذا الأخبـار عنهم كثـيرة جـدا (نـوري قدس‌سره)

استقامت طريقته وصلحت سريرته ملكا مقربا ملتذا بلقاء الله تعالى وقربه ، وإن اعوجت سبيله وانسلخت فطرته فيصير مطرودا عن باب الله معذبا عذابا أليما ، ومعلوم أن في الاستحالات والانقلابات الطبيعية كان له ذهاب من طور أدنى إلى طور أعلى ، وكان كلما انخلع عنه صورة ناقصة تلبس بما هو أعلى منزلة وأجود من الأولى ، وكان له في كل موت حياة جديدة أشرف من الحياة السابقة ، فهكذا ينبغي أن يتحرى في مذهب نفسه في العلم والعمل ، فلا يروم أن يرقى إلى درجة من الكمال إلا ويخلع عن نفسه آراء وأخلاقا وعاداتا كانت مألوفة له معتادا بها أولا ، حتى يمكنه أن يفارق الصور البشرية كلها ويصعد إلى ملكوت السماء ويجازي هناك بأحسن الجزاء ، ويكون (**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً**).

قاعدة

في الحشر

اعلم أن الزمان علة التعاقب والتسابق في الوجود ، والمكان علة التكثر والافتراق في الحضور ، فهما سببان لاختفاء الموجودات بعضها عن بعض ، فإذا ارتفعا في القيامة ارتفعت الحجب بين الخلائق فيجتمع الخلائق كلهم الأولون والآخرون ، (**قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ**) ، فهو يوم الجمع (**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ**) ، وبوجه آخر هو يوم الفصل ، لأن الدنيا دار الاشتباه والاختلاط ، متشابك فيها الحق مع الباطل ، ويتخالط فيها الوجود والعدم والخير والشر والخبيث والطيب ، وفي الآخرة يتفرق المتخالفات لقوله : (**يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ**) ، وفيها يتميز المتشابهون لقوله ، (**لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**) الآية ، وينفصل الخصمان لقوله ، (**لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ**) ، وقوله : (**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**) ، ولا منافاة بين هذا الفصل وذلك الجمع ، بل هذا يوجب ذاك كما قال : (**هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ**) ، والحشر أيضا بمعنى الجمع قوله : (**وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً**).

إعلام كشفي

اعلم ن حشر الخلائق على أنحــاء مختلفة لما علمت ســابقا من أن الإنســان سيصــير أنواعا مختلفة بحسب البــاطن والــروح ، بعد أن كــان نوعا بحسب الطبيعة البشــرية ، وذلك من جهة اختلاف ملكــاتهم الحاصــلة من تكرر أعمالهم ، فالحشر لقوم على سبيل الوفد إلى الحق (**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً**) ، ولقوم على سبيل الانسـياق إلى جهنم وقوله : (**وَنَسُـوقُ الْمُجْـرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً**) ، ولقــوم على ســبيل التعــذيب (**يَــوْمَ يُحْشَــرُ أَعْـداءُ اللــهِ إِلَى النَّارِ**) ، وقــوم كما في قوله : (**يَوْمَ يُسْـحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُـوهِهِمْ ذُوقُـوا مَسَّ سَــقَرَ**) ، وقوله (**يُسْــحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ**) ، وقوم كما قال : (**وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقــاً**) ، وقــوم كما قــال : (**وَنَحْشُــرُهُ يَــوْمَ الْقِيامَـةِ أَعْمى**).

وبالجملة يحشر كل أحد إلى غاية سعيه وعمله ونهاية قصده ونيته وهمته وما يحبه ويشتاق إليه ، «المــرء يحشر مع من أحب» ، كما قــال : (**احْشُــرُوا الَّذِينَ ظَلَمُــوا وَأَزْواجَهُمْ**) ، وقوله : (**فَـــــوَ رَبِّكَ لَنَحْشُـــــــرَنَّهُمْ وَالشَّـياطِينَ**) ، حــتى أنه «لو أحب أحــدكم حجــرا يحشر معه».

بصيرة برهانية

قد سبق أن تكرر الأفاعيل من الإنسان يوجب حدوث ملكــات وأخلاق في نفسه ، وكل ملكة وصــفة تغلب على جوهر النفس يتصور النفس في القيامة بصـورة تناسـبها ، ولا شك أن أفاعيل الأشــقياء المــدبرين المــردودين إلى أسفل سافلين بحسب هممهم القاصـرة عن الارتقـاء إلى جهة عليين ، مقصور على أغـراض بهيمية أو سـبعية غلبت عليهم شقوتهم ، ونفوسهم مردودة في الــبرازخ الحيوانية ، فيحشرون على صور تلك الحيوانات في الـدار الآخـرة ، فإن حقيقة كل نوع ليست مادتها بل صورتها الــتي هي بها بالفعل ، سواء كانت بلا مادة أو في مــادة ، وسـواء كـانت المادة من هذا العالم أو من عالم

آخر ، فصـورة البهيمية أو السـبعية إذا حصـلت في قابلية النفس ورســـخت فيها صـــارت بهيمة أو ســـبعا بحسب البـاطن ، وسـيبرز في الآخـرة عند كشف الغطـاء ويحشر فيها كــذلك كما في قوله : (**وَإِذَا الْوُحُـوشُ حُشِــرَتْ**) ، وفي الحــديث «يحشر بعض النــاس على صــورة يحسن عنـدها القـردة والخنـازير» وبالجملة يحشر الخلائق على صــور ضــمائرهم ونيــاتهم ، وعليه يحمل معــنى التناسخ الوارد في لسان الأقدمين.

المشهد الخامس

في الصراط

الصـــراط طريق [1] الحق ودين التوحيد الـــذي جميع الأنبيــاء والرسل عليهمالســلام ومتــابعيهم عليه ، وجميع المقامات السـنية وأحـوال السـالكين في السـير إلى الله وفي الله راجعة إليه ، وعلم التوحيد أنفع العلــوم وأنورها وأشرفها وأوثقها ونقاوتها وصفوتها ، وهو المقصد الأقصى والمـنزل الأعلى ، وليس وراء عبـادان قرية ولا مطمع في النجـاة إلا باقتنائه ، ولا فـوز بالـدرجات إلا باجتنائه ، ولعلو مرتبته انقلبت البصــــائر عنه كليلة ، والعقــــول عليلة ، والنــواظر خواسر ، وحقيقة التوحيد يجل عن أن يحيط بها فهم ، أو يحوم حوم حماها وهم ، ولا يصعد أحد إلى جــوار الله وقربه إلا صاحب علم التوحيد ، وما يمر على درجـات السـلوك نحـوه والصـعود إليه إلا بقـوة هـذا اليقين ، فهو السالك الواصل إليه تعالى بقطع منازل الاحتجـاب ، وطي طبقات الحسنات و

---

(1) إن صـراط التوحيد هو نفس المـؤمن المسـافر من بيت نفسه إلى الله امتثالا لأمره تعالى حيث قـال (**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِـيَةً مَرْضِـيَّةً فَـادْخُلِي فِي عِبـادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي**) وإن تلك المسافرة الرجوعية لأجل أن يسلم نفسه الـتي باعها منه سـبحانه بثمن الجنة كما قــال جل شــأنه (**إِنَّ اللــهَ اشْــتَرى مِنَ الْمُــؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْـوالَهُمْ بِـأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**) وبعد التسـليم لما صـارت نفس المؤمن نفسه عمت رحمته كتب على نفسه الرحمة وغـرس فيها بيـده فصارت جنة فيملكها حالتئذ إيـاه تمليكا صـريحا أبـديا فيـدخلها المـؤمن مستورا بالجنة التي هي سـترة الله السـاترة له سـالمة مسـلمة نفسه الـتي صـارت مطمئنة بـبرد اليقين وذلك هو الغفـران المـبين (نــوري قدسسره)

سـجلات الكتـاب ، وغـيره لا يمكن له السـعي والمشي إلا بالاقتداء به والاعتصام بعروته والتمسك بضياء نوره وقوته ، كـالأعمى في المشي بالقائد الآخذ بيــده ، على أن لكل طائفة صراطا تمر عليه كما قال تعالى : (**ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**).

وقد علمت أن لكل موجود حركة جبلية وتوجها غريزيا إلى مسـبب الأسـباب ، وللإنسـان مع تلك الحركة الجبلية حركة إرادية نفسانية لباعث ديني ، وهذا المعنى أي تقلب الوجــود في أطــواره الكمالية مشــاهد مكشــوف لأهل البصـيرة في أكـثر الموجـودات ، وخصوصا في الإنسـان لسعة دائرة وجوده وعظم قوسه الصعودية إذا لم ينحرف عن صــراط ربه ولم يسـقط عن فطرته ، قـال تعـالى : (**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ صِـراطِ اللـهِ الَّذِي لَـهُ ما فِي السَّــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**) ، فالاسـتقامة عليه والتثبت فيه هو الـــذي كلف الله عبـــاده به وأرسل رســـوله إليهم ، وأنـــزل الكتـــاب عليهم لأجله وبـــاقي الصـراطات ليس شـيء منها ، هو هـذا الصـراط المختص بأهل الله ، لأن كلا منها يؤدي سلوكه إلى غاية أخرى غـير لقـاء الله ، وإلى مظهر اسم آخر غـير الـرحمن الـرحيم ، كالقهار والمنتقم والجبار وغير ذلك ، وإلى منزل آخر غـير الجنة والرضوان كطبقات النيران ، كما حققه العرفاء قال تعالى : (**قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِـيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**) ، والاسـتقامة عليه هي المـراد بقوله : (**فَاسْـتَقِمْ كَما أُمِـرْتَ وَمَنْ تـابَ مَعَـكَ وَلا تَطْغَـوْا**) ، والانحراف عنه يوجب السقوط عن الفطـرة والهـوي إلى جهنم الــتي «قيل لها (**هَــلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُــولُ هَــلْ مِنْ مَزِيدٍ**)» ، وهذا الصراط هو المدعو للمصلي في كل صلاة بقوله اهـدنا الصـراط المسـتقيم ، وهو «أدق من الشـعر وأحد من السيف» ، لأن كمال الإنسـان منـوط باسـتعمال قوتيه ، أما القوة النظرية فلإصابة نـور اليقين في الأنظـار الدقيقة الــتي هي أدق من الشــعر ، وأما القــوة العملية فبتوســيط قواها الثلاثة الــتي هي الشــهوية والغضــبيه والفكرية في الأعمــــــال ، لتحصل للنفس حالة اعتدالية متوســـطة بين الأطــــراف غاية التوسط ، وهي أحد من السيف ، فالصراط له وجهان ، أحـدهما أدق من الشـعر ، والآخر أحد من السيف ، والانحراف عن الوجه الأول

السـقوط عن الفطـرة ، (**إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِـالْآخِرَةِ عَنِ الصِّـراطِ لَنـاكِبُونَ**) والوقــوف على الوجه الثـاني يــوجب الشق والقطع ، كما قيل : من وقف عليه شــقه ، وإليه الإشــارة بقوله (**يُسْـحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ**) ، وقوله : (**اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِـــيتُمْ بِالْحَيــاةِ الـــدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ**) ، وعن النبي صلىاللهعليهوآله في قوله تعـالى : (**أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ**) ، أي «مـروا على صراط الآخـرة مستويا من غـير انحـراف وميـل» فمعـنى حسن الخلق الوسط بين الإفراط والتفريط ، فخير الأمور أوســطها ، وكلا طــرفي قصد الأمــور في الــدنيا ذميم ، ولذلك قال تعالى (**وَلا تَجْعَلْ يَـدَكَ مَغْلُولَـةً إِلى عُنُقِـكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْـطِ**) ، وقـال (**وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُـوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً**) ، وقال (**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ**).

وتحقيق ذلك أن كمال الآدمي بحسب العمل ، التجرد والـبراءة عن هـذه الأوصـاف المتضـادة الحيوانية ، وليس في قدرة البشر الانفكـاك عنها بالكلية ، لكن التوسط بين الأضــداد بمنزلة الخلو عنها ، وكلا جــانبي هــذا الصــراط الجحيم ، ووســـطها طريق الجنة ، ولهـــذا قيل «اليمين والشـمال مضـلة» وكماله بحسب العلم هو تحصـيل نـور الإيمان واليقين ، وغايته أن يصير إيمانه عيانا ، وعلمه عينا ، ويقينه شهودا حقا.

مشاهدة قلبية

هـذا الصـراط يظهر يـوم القيامة على الأبصـار وعلى قدر نور اليقين للمارين عليه إلى الآخـرة ، وبحسب شـدة نور يقينهم يكون قوة سلوكهم وسرعة مشيهم ، فيتفـاوت درجــات السـعداء بتفـاوت نــور معــرفتهم وقــوة يقينهم وإيمـانهم ، لأن المعـارف أنـوار ولا يسـعى المؤمنـون إلى لقــاء الله إلا بقــوة أنــوارهم ، كما قــال : (**يَــوْمَ تَــرَى الْمُــؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنـاتِ يَسْـعى نُـورُهُمْ بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ**).

وقد ورد في الخبر أن بعضهم يعطي نــورا مثل الجبل ، وبعضـهم أصـغر ، ويكـون آخـرهم رجلا يعطي نـورا على قدر إبهام قدمه ، فيضيء مرة ويطفي

مــرة ، فــإذا أضــاء قــدام قدمه مشى وإذا طفئ قــام ، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم ، فمنهم من يمر كطـــــرف العين ، ومنهم كــــالبرق الخـــــاطف ، ومنهم كالسحاب ، ومنهم يمر كشد الفرس ، والـذي أعطى نـورا على قــدر إبهــام قدمه يجثو على وجهه ويديه ورجليه يجر يدا ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حــتى يخلص الحديث ، وبهذا يظهر تفـاوت النـاس في الإيمـان ، فـرب إيمـان رجل بالقيـاس إلى إيمـان رجل آخر إذا وزن معه كـــان آلاف ألف مثله في القـــوة النورية والرســـوخ العلمي.

بصيرة كشفية

عند كشف الغطــــــــاء يظهر لك أن النفس الآدمية السعيدة صورة صـراط الله المسـتقيم ، الـذي إذا سـلكته متدرجا على منازله ومقاماته أوصـلك إلى الجنة ، فهو في هذه الدار كسائر الأمور الأخروية غائبة عن الأبصـار ، فـإذا انكشف عند الغطـــاء بـــالموت ورفع الحجـــاب عن عين روحك ، يمد لك يــوم القيامة كجسر محســوس على متن جهنم ، أوله في الموقف وآخـره على بـاب الجنة ، يعـرف ذلك من يشاهده أنه صنعتك وبنـاك ، وتعلم حينئذ أنه كـان في الــدنيا جســرا ممــدودا على متن جهنم طبيعتك الــتي قيل إنها (**ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُـعَبٍ لا ظَلِيـلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ**) لأنها الذي تقـود النفس إلى لهب الشـهوات الـتي يظهر أثر حرها في الآخرة ، فالسعيد من أطفى ناره بماء العلم وطهارة التوبة.

زيادة كشف وتوضيح

قال الشـيخ الصـدوق محمد بن على بن بابويه القمي رحمهالله اعتقادنا في الصـــراط أنه حق وأنه جسر جهنم وأن عليه ممر جميع الخلق ، قال الله تعالى : (**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كــانَ عَلى رَبِّكَ حَتْمــاً مَقْضِــيًّا**) ، قــال : والصراط في وجه آخر اسم حجج الله ، فمن عــرفهم في الدنيا وأطاعهم أعطاه الله جوازا

على الصراط الذي هو جسر جهنم يوم القيامة ، وقال النبي صلىاللهعليهوآله لعلي عليهالسلام يا علي إذا كان يوم القيامة أقعد أنا وأنت وجبرئيل على الصراط ولا يجوز على الصراط أحد إلا من كانت معه براءة بولايتك ، عن الحسن البصري في صفة الصراط : أنه مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، أدق من الشعر وأحد من السيف ، ألف صعود ، وألف استواء ، وألف هبوط ، قال رسول الله صلىاللهعليهوآله : شعار المؤمنين على الصراط رب سلم رب سلم ، وقال صلىاللهعليهوآله : ثلاث مواطن لا يذكر أحد أحدا ، عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل ، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أيقع كتابه في يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهر جهنم حتى يجوز.

قال أهل الشهود إن الله تعالى خلق الصراط من رحمته أخرجها للمؤمنين ، فالصراط للموحدين خاصة ، والكفار لا جواز لهم عليه ، لأن النار قد التقطت من الموقف جبابرهم ، وسائر الكفار قد اتبعوا ما كانوا يعبدون من دون الله عزوجل إلى النار ، فقسم النور بين الموحدين على قدر ما جاءوا به من الدنيا ، والصراط يدق ويتسع على حسب منازل الموحدين ، الدقة للمذنبين والسعة للمتقين ، والأصل الواسع للأنبياء والأولياء يصير لهم كالبساط سعة وبسطا ، ولهم السرعة والإبطاء ، فأولهم كلمح البصر وآخرهم كعمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، تزل قدم تحترق ، ثم يخرجها فتبرأ من الرحمة ، ثم تزل قدم والأخرى قد برئت ، فالإسلام خرج لهم من الرحمة ، فلما قبلوه ولم يفوا به ضرب لهم جسرا من تلك الرحمة ، فيمرون عليها فمن ضيع منهم شيئا من أعمال الإسلام فإنما ضيع الرحمة التي رحم بها فزلت ، فالدقة والاتساع على قدر الرحمة من الله للعبد فبحظ العبد من الرحمة التي قسمه سبحانه في أيام الدنيا يتسع الصراط عليه هناك ، والسرعة والإبطاء في قطع الصراط على قدر القرب ، فبحظ العبد من نور القربة يسرع ويبطأ ، فأولهم زمرة يقطع في مثل طرف العين ولمع البرق وهم الأنبياء عليهمالسلام ، والثانية في مثل الريح والطير وهم الصديقون والأولياء ، والثلاثة مثل حضر [1]

---

(1) ارتفاع الفرس في عدوه.

الفــرس وأجاويد الخيل وهم المجاهــدون أنفســهم الــذين صــدقوا الله في جميع حركــاتهم ، والرابعة مثل الــراكب رحله وهم المتقـــون ، والخامسة في مثل ســـعي الرجل وهم العابدون ، والسادسة مشيا وهم العمال المســتورون ، والسابعة جثوا وهم المتهتكون من الموحدين وكل زمرة لها نور ، نور النبوة ونور الولاية ونور الصدق ونور التقــوى ونور العبادة ونـور السـتر ونـور التوحيد ، فمنهم من نـوره مد بصره ، ومنهم من نوره عند إبهام قدمه ، وهو آخــرهم وليس النور هنـاك بكـثرة الأعمـال ، إنما النـور بعظم نـور الأعمال ، وإنما يعظم نــور العمل على قــدر ما في القلب من نور القربة وكل نور أقرب إلى الله فهو أقوى وأنــور ، فكم من رجل قل عمله هنــاك ســبق إلى الجنة ممن هو أربى بعمله منه أضـــعافا مضـــاعفة ، ألا تـــرى إلى قوله صلىاللهعليهوآله لمعاذ بن جبل ، خلص يكفيك القليل من العمل ، ولذلك روي في الحـديث «يا حبـذا نـوم الأكيـاس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى وصـيامهم ، ولمثقـال حبة من خردل من يقين أفضل عند الله من أمثال الجبـال عبادة».

المشهد السادس

في نفخ الصور

لما سئل النبي صلىاللهعليهوآله عن معنى الصور فقال قرن من نور التقمه إسرافيل فوصفه بالسعة والضيق ، فقيل إن أعلاه أوسع وأسفله أضيق ، وقيل بالعكس ولكل من القولين وجه صحة كما لا يخفى على العارف ، والصور بضم الصاد وسكون الواو وقرئ بفتحها أيضا جمع الصورة ، لأن نافخها واهب الصور بإذن الله.

قال الشيخ العربي في الفتوحات المكية بعد ذكر الناقور والصور ليعلم بعد ما قررناه أن الله تعالى إذا قبض الأرواح من هذه الأجسام الطبيعية والعنصرية ، أودعها صورا أخذها في مجموع هذا القرن النوري ، فجميع ما يدركه الإنسان بعد الموت في البرزخ من الأمور يدركها بعين الصورة التي هو بها في القرن ، والنفخة نفختان ، نفخة تطفئ النار ، ونفخة تشعلها ، فكذلك نفخة الصور ، نفختان.

الأولى لإماتة الإنسان ولمن يزعم أن له حياة ، سواء كان من أهل السماوات أو من أهل الأرض ، قال تعالى : (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ**) ، وهم الذين سبقت لهم القيامة الكبرى ، وإليهم الإشارة بقوله : (**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ**) إلى قوله : (**لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**) ، إذ الفزع الأكبر هو إشارة إلى قوله : (**فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**) ، وأولئك ليسوا

من أهل السـماوات والأرض ، لكـون ذواتهم خارجة من عالم الأجسام وصورها ونفوسها ، ولا يجري عليهم تجدد الأكوان ولا تغير الزمان ، لاستغراقهم في بحر قهر الأحدية وسطوة نور القيومية كالملائكة المهيمين ومن يجري مجراهم في أن هوياتهم مطوية تحت الشعاع القيومي ، فلا التفات لهم إلى ذواتهم ، ولا علم لهم إلى غير الله (**لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا**). والثانية لأجل الإحياء بعد الإماتة حياة أخرى أرفع من الأولى ، قوله : (**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها**) ، أي أرض المحشر وأرض الجنة وكذا النفوس. واعلم أن المواد الكونية بصورها الطبيعية القابلة للاستنارة بالأرواح كالفحم في استعداده للاشتعال ، والصورة البرزخية كامنة فيها بحسب ذلك الاستعداد ، كمون الحرارة والحمرة في الفحم ، والصور النفسانية كامنة في الصور البرزخية كمون الاشتعال والإنارة في الحرارة ، ففي النفخة الأولى زالت الصور الطبيعية بالإماتة ، والصور البرزخية استعدت لقبول الاستنارة بالأرواح الكامنة فيها استعداد الفحم بالنار التي كمنت فيه لقبول الاشتعال ، فينفخ إسرافيل وهو المنشئ للأرواح في الصور نفخة ثانية فتستنير بأرواحها (**فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ**) ، فيقوم تلك الصور إحياء ناطقة بما ينطقهم (**اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**) ، فمن ناطق بالحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا (**وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**) ، ومن ناطق «ب (**مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا**) وكل واحد ينطق بحسب علمه وحاله وما كان عليه ، ونسي حاله في البرزخ ، فيتخيل أن ذلك منام كما يتخيله المستيقظ من هذه النوم ، وقد كان عند موته وانتقاله كالمستيقظ وأن الحياة الدنيا كالمنام وهي في جنب البرزخ والآخرة كمنام في منام ، وهذا القيام إنما يتحقق عند القيامة وفي القيامة يتحقق البعث ، لقوله : (**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ**) ، وعند البعث يتحقق الثواب والعقاب.

تنوير وتذكير

اعلم أن من النـاس من يـرى أمـور القيامة وأحوالها بعين البصيرة ويحضر عنده شـهود الآخـرة ، فلا فـرق في شهوده بين أن يكون قبل قيام الساعة أو بعده ، كما قـال أمـير المؤمـنين عليهالسـلام لو كشف الغطـاء ما ازددت يقينا ، فلا يحتاج مثله في الوصول إلى عالم اليقين وبـروز الحقـائق له إلى البعث ، لـزوال الحجب عن عين بصـيرته كما في قوله : (**فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَـرُكَ الْيَـوْمَ حَدِيــدٌ**) ، وذلك لا يمكن إلا بتبــدل نشــأتهم الدنيوية إلى نشأتهم الأخروية ، وإذا تبدلت نشأتهم ، تبـدلت أسـماعهم وأبصارهم وحواسهم إلى أسماع وأبصـار وحـواس أخروية تـدرك بها أمـور الآخـرة ، وإلى هـذا التبـديل أشـار تعـالى بقوله : (**يَـوْمَ تُبَـدَّلُ الْأَرْضُ غَيْـرَ الْأَرْضِ وَالسَّـماواتُ وَبَــرَزُوا لِلَّهِ الْواحِــدِ الْقَهَّارِ**) ، وبقوله : (**نَحْنُ قَــدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَــوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْــبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَــدِّلَ أَمْثـالَكُمْ وَنُنْشِـئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُـونَ**) ، وبقوله : (**فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ**) ، وبهذا التبـديل في الوجـود سـواء وقع قبل المـوت أو بـالموت أو بعــده يسـتحق الإنسـان لـدخول الجنة ودار السـلام ، ويتحقق الفرق بين أهل الجنة وأهل النـار ، فأهل الجنة لهم أبـدان مطهرة وصور مجردة عن رجس هذه المواد ، بخلاف أهل الجحيم لعدم تبدل نشأتهم كما قال تعالى : (**أَيَطْمَعُ كُـلُّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُـدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ، كَلَّا إِنَّا خَلَقْنـاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ**) ، قال المفسـرون المعـنى أنكم مخلوقـون من نطفة قذرة لا يناسب المكـون من هـذه المـادة عـالم القدس والطهارة ، وقوله : (**فَلا أُقْسِمُ بِـرَبِّ الْمَشـارِقِ وَالْمَغارِبِ**) عقيب قوله : (**أَيَطْمَعُ كُـلُّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ**) ، يجري جواب عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : إذا كان المخلـوق من مـاء مهين لا يسـتأهل جـوار رب العـالمين ، إذ ما للـتراب ورب الأرباب ، فكيف يـدخل المؤمنـون جنة النعيم ، فقيل نبدلهم بنشأة خير من هذه النشأة ، فيحصل لهم بما أهلية الدخول في دار القـدس ، كما قـال سـبحانه : (**إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) ، وكما قال : (**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ**) ، إذ لا يستأهل دار الله وجواره ولا الصعود إلى المنزل الأعلى ، كما قال : (**لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**) لكثافة جوهرهم وثقلهم وتعلقهم بهذا البدن الطبيعي ، وتثبطهم وقعودهم عن الارتقاء إلى عالم السماء وإخلادهم إلى الأرض ، لقوله : (**لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ**).

قاعدة

في أحوال تعرض يوم القيامة

إذا ظهر نور الأنوار وانكشف جلال وجه الله القيوم ، وغلب سلطان الأحدية ، واشتدت جهات الفاعلية والتأثير والتنوير ، وأخرجت القوابل والمستعدات من القوة إلى الفعل ، وانتهت الحركات إلى غاياتها ، وبرزت الحقائق من مكامن غيبها وحجب موادها وإمكاناتها إلى مجالي ظهوراتها ، انخرط كل ذى مبدإ في مبدئه ، ورجع كل شيء إلى أصله وعاد كل نقص إلى كماله وكل ذي غاية إلى غايته ، قوله : (**أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**) ، وقوله : (**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ ،**) ، وقوله : (**لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ**) ، وقوله : (**وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**) ، فإذا اتصل كل فصل إلى وصله ، والتحق كل فرع بأصله ، وبلغ كتاب كل شيء أجله ، وجمع كل مستفيض بمفيضه ، (**وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**) ، فلم يبق لأنوار الكواكب عند ذلك ظهور ، (**فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ**) ، ولا لأجرامها قدر ووضع ، (**وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ**) ، وزال ضوء الشمس وانكدر نور الكواكب (**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**) و (**إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ**) ، ومحى نور القمر (**وَخَسَفَ الْقَمَرُ**) ولم يبق بعد ومسافة بين المنير والمستنير ، ولا تفاوت ولا تباين (**وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**) ، واتحدت النفوس بالأرواح وزالت المباينة بين الأشباح والأرواح ، ولهذا يكون أبدان أهل الجنة بصورة نفوسها كالشخص وظله ، ورجعت السماوات والأرض على ما

كانتا عليه قبل انفتاقها من الرتق ، فعادتا إلى مقـــــــام الجمعية المعنوية من هـــــذه التفرقة الطبيعية حيث كانتا رتقا قبل الفتق فعادتا كما كانتا رتقا بعد الفتق ، وكـــــذا العناصر الأربعة يصير كلها عنصرا واحدا مظلما (**لا يَـرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً**) ، والجبـال لكونها متكونة من الرمال المتفتتة فعادت كما كانت عليه ، (**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبـالِ فَقُـلْ يَنْسِـفُها رَبِّي نَسْـفاً فَيَـذَرُها قاعـاً صَفْصَـفاً لا تَـرى فِيها عِوَجـاً وَلا أَمْتـاً**) ، وتنقلب كل العنصريات والمركبات نـارا غـير هـذه النـار الأسطقسـية وتصـير الهيـولى كلها بحـرا مسـجورا ، (**وَإِذَا الْبِحـارُ سُجِّرَتْ**) ، كما وقعت الإشـارة إليه في حق آل فرعـون ، (**أُغْرِقُـوا فَـأُدْخِلُوا نـاراً**) ، وبالجملة يتصل الـبر بـالبحر ويتحد الفـوق والتحت ، ويـزول الأبعـاد والأحجـام ويرتفع الحواجز والحوائل ، ويـرق الحجب لأهل الـبرازخ ومواقف الأشهاد ، «**يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ** ، **يَـوْمَ يَقُـومُ الْأَشْـهادُ**» ويقـــام الخلائق عن مكـــامن الحجب إلى مواقف كشف الأســـرار ، لقوله : (**وَقِفُـــوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْـــؤُلُونَ**) ، والمتخلصون عن محابس البرازخ يتوجهـون إلى الحضـرة الإلهية ، لقوله : (**فَـــإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْـــداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ**).

قال بعض العرفـاء المكاشـفين إذا (**أَخْـرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها**) حـتى ما بقي فيها شـيء اختزنته ، جيء بها إلى الظلمة الـــتي هي دون المحشر ، كما قـــال : (**وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبـالُ فَـدُكَّتا دَكَّةً واحِـدَةً**) ، فيمد مد الأديم وبسـطه فلا يـرى فيها عوجا ولا أمتا ، وهي السـاهرة فلا نوم فيها كما قال : (**فَإِنَّما هِيَ زَجْـرَةٌ واحِـدَةٌ فَـإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ**) ، ويرجع ما تحت مقعر فلك الكـواكب جهنم ، وسميت بهـذا الاسم لبعد قعرها يقـال بـئر جهنـام أي بعيد القعر ، ويوضع الصـراط من الأرض علـوا إلى سـطح فلك الكـــواكب وهو فـــرش الكرسي من حيث باطنه ، إذ كل أمور الآخرة يقع في باطن حجب الدنيا ، ولذلك قيل أرض الجنة الكرسي وسقفها عرش الرحمن ، ويوضع المـوازين في أرض المحشر لكل مكلف مـيزان يخصه بعد المـيزان العام ، قوله : (**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُ**) للـرحمن ، وضـرب بسور يسـمى الأعـراف بين الجنة والنـار وجعل مكانا لمن اعتدلت كفتا ميزانه ، ووقعت الحفظة بأيديهم الكتب التي كتبوها في الدنيا من أعمال

المكلفين وأقوالهم ليس فيها شيء من الاعتقادات القلبية ، لقوله : (**كُـلُّ شَـيْءٍ فَعَلُـوهُ فِي الزُّبُـرِ وَكُـلُّ صَـغِيرٍ وَكَبِـيرٍ مُسْـتَطَرٌ**) ، وقوله : (**وَيُرْسِـلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَـةً**) ، وقوله : (**لِتُجْـــزى كُـــلُّ نَفْسٍ بِما كَسَـــبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**) ، فعلقوها في أعناقهم وأيـديهم كما في قوله : (**وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَـةِ كِتابـاً يَلْقـاهُ مَنْشُـوراً اقْـرَأْ كِتابَـكَ كَفى بِنَفْسِـكَ الْيَـوْمَ عَلَيْـكَ حَسِـيباً**) ، وقـال (**وَوُفِّيَتْ كُـلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُـونَ**) ، فمنهم من أخذ كتابه بيمينه ومنهم من أخذه بشماله ومنهم من أخذه وراء ظهره ، وهم الـذين نبـذوا الكتـاب (**وَراءَ ظُهُـورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً**) وليس أولئك إلا أئمة الضـلال ، قال ويـأتي مع كل إنسـان قرينه من الشـياطين والملائكة لقوله تعالى : (**وَجاءَتْ كُـلُّ نَفْسٍ مَعَها سـائِقٌ وَشَـهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هـذا فَكَشَـفْنا عَنْـكَ غِطـاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيــدٌ**) ، وقوله : (**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيـــــــــانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**) ، ثم يـــأتي الله عزوجل على عرشه والملائكة يحمل ذلك العرش فيضـعونه على تلك الأرض المشـرقة بنـوره ، كما قـال : (**وَأَشْـرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُـورِ رَبِّها وَوُضِـعَ الْكِتـابُ وَجِيءَ بِـالنَّبِيِّينَ وَالشُّـهَداءِ وَقُضِـيَ بَيْنَهُمْ بِـالْحَقِ**) ، وقوله : (**وَتَـرَى الْمَلائِكَـةَ حَـافِّينَ مِنْ حَـوْلِ الْعَـرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**) ، والجنة عن يمين العـرش والنـار من جـــــــانب الآخر ، وقد غلبت الهيبة الإلهية على أهل الموقف من ملك وإنســان وجــان ، قوله : (**وَخَشَـــعَتِ الْأَصْـواتُ لِلـرَّحْمنِ فَلا تَسْـمَعُ إِلَّا هَمْسـاً**) ، ويرتفع الحجب بين الله وبين عبـاده وهو معـنى كشف السـاق ، قوله : (**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ**) ، فلا يبقى أحد على أي دين كان إلا يسجد السجود المعهود ، ومن سـجد في الـدنيا اتقـاء أو ريـاء خر على قفـاه ، ويشرع في الفصل والقضاء والحكم بين عبـاده فيما كـان بينهم ، وأما ما كـان بينهم وبين الله ، فـإن الكـرم الإلهي يسقطه ولا يؤاخذ به ، وقد ورد من الأخبار في ذلك اليـوم ما ورد ، ودون الناس ما دونوا ، ونحن بصدد توضـيح بعض منها ما يبلغ إليه طاقتنا ويناله جهدنا.

المشهد السابع

في الإشارة إلى نشر الصحائف وإبراز الكتب وكرام الكاتبين

اعلم أن القــول والفعل ما دام وجودهما في أكـــوان الحركــات والأصــوات فلاحظ لهما من البقــاء والثبــات ، ولكن من فعل فعلا أو نطق بقـــــــول يحصل منه أثر في نفسه وحاله يبقى زمانا ، وإذا تكــررت الأفاعيل والأقاويل استحكمت الآثار في النفس ، فصارت الأحوال ملكات ، إذ الفرق بين الحـال والملكة بالشـدة والضـعف ، والاشـتداد في الكيفية يؤدي إلى حصول صورة ، أي مبدإ جوهري لها كالحرارة الضـعيفة في الفحم إذا اشـتدت صـارت صـورة نارية محرقة ، كذلك الكيفية النفسانية إذا اشتدت صــارت ملكة راسخة ، أي صورة نفسـانية هي مبـدأ لآثـار مختصة بها فيصــدر بســببها الفعل المناسب لها بســهولة من غــير روية وحاجة إلى تعمل وتجشم اكتســاب من خــارج ، ومن هـــذا الوجه يحـــدث ملكة الصـــناعات والمكاسب العلمية والعملية ، ولو لم يكن للنفـوس الآدمية هـذا التـأثر أولا ثم الاشــــتداد يوما فيوما لم يكن لأحد اكتســـــاب شـــيء من الصــناعات والحــرف ، ولم ينجع التــأديب والتعليم لأحد ، ولم يكن في تأديب الأطفال وتمرينهم على الأعمال فائدة ، وذلك ، قبل رسوخ أخلاق مضـادة لما هو المطلـوب في نفوســـهم ، ولأجل ذلك يتعسر تعليم الرجـــال البـــالغين وتأديبهم ، لاسـتحكام صـفات حيوانية في نفوسـهم بعد ما كانت هيولانية قابلة لكل صنعة وعلم ، كصـحيفة خالية من النقوش والصور ، فالآثار الحاصـلة من الأعمـال والأقـوال في القلـــــوب بمنزلة النقـــــوش الكتابية في الألـــــواح والصحائف ،

كما قـال تعـالى : (**أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمـانَ**) ، وتلك الألــواح القلبية يقــال لها صــحائف الأعمــال وتلك النقوش والصور الكتابية كما يحتاج إلى قابل يقبلها كـذلك يحتاج إلى فاعل أي مصور وكاتب ، والمصورون والكتــاب في مثل هـذه الكتابة هم الكـرام الكـاتبون ، لكرامة ذاتهم وفعلهم عن المـواد الجسـمانية ، فهم لا محالة ضـرب من الملائكة المتعلقة بأعمـال العبـاد وأقـوالهم ، قوله : (**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُـونَ**) ، وهم طائفتان ، ملائكة اليمين ، وهم الذين يكتبـون أعمـال أصــحاب اليمين ، وملائكه الشــمال وهم الــذين يكتبــون أعمــال أصــحاب الشــمال ، قوله تعــالى : (**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّـمالِ قَعِيـدٌ ما يَلْفِـظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ**) ، وقوله : (**يَـوْمَ نَـدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمـامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَـهُ بِيَمِينِـهِ فَأُولئِكَ يَقْـرَؤُنَ كِتـابَهُمْ وَلا يُظْلَمُـونَ فَتِيلاً**) ، وقوله : (**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِـهِ فَيَقُـولُ هـاؤُمُ اقْـرَؤُا كِتابِيَـهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِســـابِيَهْ**) ، لأن كتابه من جنس العلــوم والاعتقــادات اليقينة والأخلاق الحســنة ، والظن هاهنا بمعــنى اليقين ، (**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَــهُ بِشِــمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَـهْ وَلَمْ أَدْرِ ما حِسـابِيَهْ**) لأن كتابه من جنس الأكـــاذيب الباطلة والأغاليط الواهية والأوصـــاف الشـــيطانية والشـــهوات الدنيوية المحرقة للنفـوس المولمة للقلـوب ، (**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً وَيَصْلى سَعِيراً**).

وقد ورد في الخبر أن من عمل حسنة كـذا يخلق الله منها ملكا يستغفر له إلى يـوم القيامة ، كما قـال : تعـالى (**إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ**) ، وهكذا قياس الحكم في جانب الكفر والســوء ، من فسد اعتقاده وبـالغ في كفـره وسـوء اعتقـاده يتـنزل عليه شــيطان يوعــده بالشر والجحيم ، وكــان قرينه في القبر وفي القيامة ويتعذب به في الآخرة كما قال تعالى : (**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ تَنَزَّلُ عَلى كُـلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**) ، وقوله : (**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْــرِ الــرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَـهُ شَـيْطاناً فَهُـوَ لَـهُ قَـرِينٌ**) ، وهــذه الهيئة الراسخة في الباطن المتمثلة للنفس هي

المسـماة في عـرف الحكمة بالملكة وفي لسـان النبـوة بالملك والشيطان في جانبي الخير والشر ، والمـآل فيهما واحد بشرط أن يكون معلوما عندك أن الملكات الراسخة النفسانية تصير صـورا جوهرية ، بل ذواتا مسـتقلة متمثلة فعالة في النفس منعمة أو موذية لها ، ولو لم يكن لتلك الملكات من الثبات والتجـوهر ما يبقى أبد الآبـاد ، لم يكن لخلود أهل الجنة في الثـواب أبـدا وأهل النـار في العقـاب سرمدا وجه صـحة ، فـإن منشأ الثـواب والعـذاب لو كـان نفس العمل أو القــول وهما أمــران زائلان يلــزم بقــاء المعلــول مع زوال العلة المقتضـية ، وذلك غـير صـحيح ، والفعل الجســماني الواقع في زمــان متنــاه كيف يصــير منشأ للجــزاء الواقع في أزمنة غــير متناهية ، ومثل هــذه المجازاة لا سيما في جانب العقاب لا يليق بـالحكيم ، وقد قـال : (**وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيـدِ**) ، وقـال : (**بِما كَسَـبَتْ قُلُـــــوبُكُمْ**) ، ولكن إنما يخلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالثبات في النيات ، ومع ذلك فـإن من فعل مثقال ذرة من الخير والشر يرى أثره مكتوبا في صـحيفة ذاته أو صحيفة أرفع من ذاته مخلدا أبدا ، كما قـال : (**فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْـدِي سَـفَرَةٍ كِـرامٍ بَـرَرَةٍ**) ، وإذا حـان وقت أن يقع بصـره إلى وجه ذاته عند فراغه عن شواغل هذه الحياة الدنيا وما تورده الحــواس ، ويلتفت إلى صـــفحة باطنه ولـــوح ضــميره وقلبه ، وهو المعبر عنه بقوله تعالى : (**وَإِذَا الصُّـحُفُ نُشِـرَتْ**) ، فمن كان في غفلة عن أحـوال نفسه وروحه وحسـاب حسـناته وسـيئاته يقــول عند حضــور ذاته لذاته ومطالعة صــفحة وجهه (**ما لِهذَا الْكِتـابِ لا يُغـادِرُ صَـغِيرَةً وَلا كَـبِيرَةً إِلَّا أَحْصـاها وَوَجَـدُوا ما عَمِلُـوا حاضِـراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَـداً**) ... ، (**يَـوْمَ تَجِـدُ كُـلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْـرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُـوءٍ تَـوَدُّ لَـوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَـهُ أَمَداً بَعِيداً**).

وقد ورد في هـــذا البـــاب من طريق أهل الــــبيت عليهمالســـلام وغـــيرهم أحـــاديث كثـــيرة عن النـــبي صـــلىاللهعليهوآله ، منها ما روي عن قيس بن عاصم أنه قـال صـــلىاللهعليهوآله : يا قيس إن مع العز ذلا وإن مع الحيـاة موتا وإن مع الـدنيا آخـرة ، وإن لكل شـيء رقيبا ، وعلى كل شيء حسيبا ، وإن لكل أجل

كتابا ، وإنه لا بد لك من قـــرين يـــدفن معك وهو حي ، وتدفن معه وأنت ميت ، فإن كان كريما أكرمك ، وإن كان لئيما أسلمك ، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ، ولا تسئل إلا عنه فلا تجعله إلا صالحا ، فإنه إن صلح آنست به ، وإن فسد لا تستوحش إلا منه ، وهو فعلك.

فانظر يا وليي في هذا الحـديث تجد فيه لبـاب معرفة النفس ، وفيه إشـارة إلى عـدة أصـول من مسـائل علم النفس وأحكامها ليس هاهنا موضع بيانها وشـــرحها ، من أراد الاطلاع فليطــالع كتابنا الكبـير المسـمى بالأسـفار الأربعة ، والمجلد الأول من تفسيرنا الكبـير المسـمى ذلك المجلد المفتتح بمفـــاتيح الغيب وغيرهما من المطـــولات والمتوسـطات ، ومنها قوله صـلىاللهعليهوآله : إن الجنة قيعـان وإن غراسـها سـبحان الله ، ومنها المـرء مرهـون بعمله ، ومنها خلق الكافر من ذنب المؤمن ، ومنها ما ورد من فعل كـــذا خلق الله له ملكا يســتغفر له إلى يـــوم القيامة ، وأمثال ذلك من الأخبار.

وفي كلام فيثـــاغورس وهو من أعـــاظم الحكمـــاء السابقين أنك ستعارض لك في أفعالك وأقوالك وأفكـارك ، وســـيظهر لك من كل حركة فكرية أو قولية أو عملية صـور روحانية وجسـمانية ، فـإن كـانت الحركة غضـبية أو شـهوية صـارت مـادة لشـيطان يؤذيك في حياتك ويحجبك عن ملاقـاة النـور بعد وفاتك ، وإن كـانت الحركة عقلية صارت ملكا تلتذ بمنادمته في دنياك وتهتدي به في أخراك إلى جوار الله وكرامته.

ومما يـدل على أن صـورة الإنسـان في الآخـرة نتيجة عمله وغاية فعله في الـدنيا قوله تعـالى في حق ابن نـوح عليهالسـلام : (**إِنَّهُ عَمَـلٌ غَيْـرُ صـالِحٍ**) على قـراءة فتح الميم ، ومما يـــدل على أن نفس العمل يعـــني الملكة الحاصلة منه نفس الجـزاء ، وقوله تعـالى : (**وَلا تُجْـزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ**) ، وقوله : (**إِنَّما تُجْـزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُــونَ**) ، لم يقل بما كنتم تعملــون ، تنبيها على هــذا المطلب ، وقوله : (**ذلِــكَ جَـزاءُ أَعْــداءِ اللــهِ النَّارُ**) ، وتوضــيح ذلك أن مــواد الأشــخاص الأخروية كما مر هي التصورات الباطنية والتـأملات النفسـانية ، لأن دار الآخـرة ليست من جنس هـذه الـدار ، فما في الـدنيا مـادة يطـرأ عليها صورة أو نفس من

خارج ولها حياة عرضية ، وما في الآخــرة أرواح هي بعينها صـــور معلقة قائمة بـــذاتها حياتها نفس ذاتها ، وهي مع وحدتها الشخصية متكثرة الصور ، والإنسان إذا انقطع عن الدنيا وتجرد عن لباس هذا الأدنى وكشف عن بصـره هـذا الغطــاء ، كــانت قوته الإدراكية قــدرة وعلمه عينا وغيبه شــهادة وســره معاينة ، فيصــير مبصــرا لنتــائج أعماله وأفكـاره ، مشـاهدا لآثـار حركاته وأفعاله ، قارئا لصـحيفة أعماله ولوح كتابه ، مطلعا على حساب حسناته وسيئاته ، كما في قوله تعالى (**وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**) ، ومما يدل على أن الإنسان الكـائن في دار الآخـرة غـير متكـون من مـادة طبيعية ، بل من صـورة نفسـانية إدراكية ، قوله تعالى : (**أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ**) ، فعلم أن المـرء متكـون في القيامة من معلومه ومعتقــده ، فــإن كــان علمه من باب الشهوات والأماني وإلا هواء الفاسدة ، يكون من أهل النار محترقا بنار الجحيم ، ويكون كتابه في السجين ، وإن كــانت معلوماته من بــاب الأمــور القدســية ومعرفة الله وعـالم ملكوته وكتبه ورسـله وسـائر المعـارف الحقة مع صفاء ذاته من الأمراض والأغشـية والظلمـات ، فيكـون لا محالة من أهل الملكـوت الأعلى ، ويكـون نفسه ككتــاب الأبـــــرار (**لَفِي عِلِّيِّينَ وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ**) ، وللآية تأويل آخر هو أيضا صـحيح وبالجملة فقد ظهر أن كل واحد من أفـراد النـاس يتكون من مادة النيات والاعتقادات كما يتكـون في الـدنيا من مواد النطفة والأغذية.

المشهد الثامن

في الميزان والحساب

قال تعالى : (**وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ**) ، وقال تعالى : (**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ**) ، أوتي بلفظ الجمع إشارة إلى أن الموازين أنواع كثيرة ، بعضها ميزان العلوم وبعضها ميزان الأعمال ، وسئل الصادق عليه‌السلام عن قول الله عزوجل (**وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ**) ، قال عليه‌السلام : الموازين الأنبياء والأوصياء.

وقال شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه رحمه‌الله ، اعتقادنا في الحساب أنه حق منه من يتولاه الله عزوجل ، ومنه من يتولاه حججه ، فحساب الأنبياء والأئمة يتولاه الله عزوجل ، ويتولى كل نبي حساب أوصيائه ، ويتولى الأوصياء حساب الأمم ، والله تبارك وتعالى هو الشهيد على الأنبياء والرسل ، وهم الشهداء على الأوصياء ، والأئمة شهداء على الناس ، وذلك قول الله عزوجل : (**لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ**) ، وقوله تعالى : (**فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً**) وقوله تعالى : (**إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ**).

أما ميزان العلوم فاعلم أن الله قد وضع ميزانا مستقيما أنزل من السماء ليعرف بأقسامه مكاييل الأغذية المعنوية ومثاقيل الأرزاق الروحانية

الباطنية ، ويعلم بها حقها من باطلها ، ويـــوزن بها نقـــود الحقـائق العقلية وجـواهر الصـور الإدراكية ، ليمـيز رائجها في ســوق الآخــرة من زيفها وخالصــها من مغشوشــها ، وعلمنا بتعليم رسـول الله صـلى‌الله‌عليه‌وآله كيفية الـوزن به ومعرفة أقسامه الخمسة وتميز مسـتقيمها عن مائلها ، حيث قــال : (**وَزِنُـوا بِالْقِسْـطاسِ الْمُسْـتَقِيمِ**) ، فمن يعلم هذه الموازين الخمسة التي أنزلها في كتابها المـنزل على رسوله وعلم بها أنبيائه وعباده الصالحين فقد اهتـدى ، ومن عدل عنها وعمل بالرأي والتخمين فقد ضل وغــوى وتردى إلى الجحيم.

فإن قلت : أين ميزان العلوم في القرآن وهل هذا إلا إفك وبهتــان ، قلنا : ألم تســمع قوله تعــالى في ســورة الرحمن ، (**الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَـقَ الْإِنْسـانَ عَلَّمَـهُ الْبَيــانَ**) إلى أن قـــال : (**وَالسَّـــماءَ رَفَعَها وَوَضَـــعَ الْمِيزانَ**) ... (**وَأَقِيمُـوا الْـوَزْنَ بِالْقِسْـطِ وَلا تُخْسِـرُوا الْمِيزانَ**) ، ألم تسمع في سـورة الحديد : (**لَقَـدْ أَرْسَـلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**) ، أتزعم أيها العاقل أن الميزان المـنزل من عند الله مع إنــزال الكتــاب المقــرون اســمه باسم الكتاب هو ميزان البر والشـعير والأرز والأقط [1] وغيرهـا؟ أتتوهم أن الميزان المقابل وضعه لرفع السماء هو القبـان والطيار وأمثالهما ، ما أبعد هذا الحسبان ، وما أسخف هذا البهتــان ، واتق الله يا أخي ولا تتعسف في بـــاب التأويل واتــرك الجهالة واللجــاج (**إِنِّي أَعِظُــكَ أَنْ تَكُــونَ مِنَ الْجاهِلِينَ**).

واعلم أن هـذا المـيزان برهـان معرفة الله وصـفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورســـــله وملكه وملكوته ، ليعلم كيفية الـــوزن به تعليما من قبل أنبيائه عليهم‌السـلام كما تعلم الأنبياء من ملائكته ، فالله هو المعلم الأول ، والمعلم الثـــــاني جبرئيل ، وثـــــالث المعلمين هو الرســــول صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وأول من استعمل هذا المـيزان بتعليم الله وتعليم جبرئيل هو أب الأنبياء وشيخهم إبراهيم الخليل ثم سائر الأنبياء إلى ابنه المقدس محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وقد

---
(1) الجبن.

شـــهد الله لهم بالصـــدق ، وتفصـــيل ذلك مـــذكور ، في المفاتيح الغيبية.

واعلم أن المــوازين الــواردة في القــرآن في الأصل ثلاثة ، ميزان التعادل ، ومـيزان التلازم ، ومـيزان التعاند ، لكن مــيزان التعــادل تنقسم إلى ثلاثة أقســام ، الأكــبر والأوسط والأصــغر ، فيصــير الجميع خمسة وتفاصــيلها وبيـــان كل منها وكيفية اســـتنباطها من القـــرآن المجيد مذكورة هناك.

الأول الميزان الأكبر من موازين التعـادل وهو مـيزان الخليل عليه‌السلام وقد استعمله مع نمرود وهو كما حكى الله بقوله : (**قــالَ إِبْــراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**) إلى قوله : (**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**) ، وقد أثــنى الله عليه في اسـتعماله لهـذا المـيزان ، قـال : (**وَتِلْـكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَـعُ دَرَجـاتٍ مَنْ نَشـاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**) ، فإن في حجته الثانية التي بها صـار نمـرود مبهوتا ، لأنه أدركها ولم يبلغ دركه إلى الحجة الأولى ، أصلين ، إذ مـدار القـرآن على الحـذف والإيجـاز ، وكمـال صـورة هـذا المـيزان أن يقـال : كل من قـدر على اطلاع الشمس من المشرق هو الإله ، هذا أحد الأصلين ، وإلهي هو القـــادر على اطلاعها منه الأصل الآخر ، فلــــزم من مجموعها أن إلهي هو الإله دونك يا نمـرود ، والأصل الأول مقدمة ضــرورية متفق عليها ، والثــاني من المشــاهدات ويلــزم منهما النتيجة ، فكل حجة صــورتها هــذه الصــورة وصح فيها أصلان كـان حكمها في لـزوم النتيجة المناسـبة هذا الحكم ، إذ لا دخل لخصوص المثـال ، فـإذا جردنا روح الميزانية عن خصوصـية المثـال نسـتعملها في أي موضع أردنا وننتفع بها ، كما يأخذ النـاس معيـارا صـحيحا وصـنجة معروفة ، فـيزنون الـذهب والفضة وغيرهما بتلك الصـنجة المعروفة.

الثــــاني المـــيزان الأوسط وهو أيضا واضـــعه الله ومسـتعمله الأول خليل حيث قـال : (**لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ**) ، وكما صـــورته أن القمر آفل ، والإله ليس بآفل ، فـــالقمر ليس بإله ، وأما حد هذا البرهان وروحه فهو أن كل شيئين وصف أحدهما بوصف يسلب عن الآخر فهما متباينان.

الثالث الميزان الأصغر فهو أيضا مبناه من الله ، حيث علم به نبيه محمـــدا صـــلى‌الله‌عليه‌وآله في القــرآن وهو قوله : (**وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ**

إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ) الآية ، ووجه الـوزن به أن يقال قولهم بنفي إنزال الوحي على البشر قـول باطل للازدواج بين أصـلين ، أحـدهما أن موسى وعيسى بشر ، والثـاني أنه مـنزل عليهما الكتـاب ، فيبطل بها الـدعوى العامة بأنه لا ينزل الكتاب على بشر أصلا.

الرابع مـيزان التلازم وهو مسـتفاد من قوله تعـالى : (**لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا**) ، وكذا من قوله : (**لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها**) ، وأما حد هذا المـيزان وروحه وعياره ، فهو أن من علم لزوم أمر لأمر آخر وعلم وجود الملـزوم يعلم منه وجـود اللازم ، وكـذا لو علم نفي اللازم يعلم منه نفي الملـزوم ، أما الاسـتعلام من وجـود اللازم على وجود الملـزوم أو من نفي الملـزوم على نفي اللازم فهو ملحق بمـــوازين الشـــيطان ، إذ ربما كـــان الملزوم أخص من لازمه.

الخـامس مـيزان التعاند أما موضـعه من القـرآن فهو قوله تعـالى تعليما لنبيه ، (ص) (**قُـلْ مَنْ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُـدىً أَوْ فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ**) ، ففيه إضـمار أصل آخر لا محالة ، إذ ليس الغـرض منه ثبـوت التسـوية بينه وبينهم ، وهو أنه معلوم أنا لسنا في ضلال مـبين ، فيعلم من ازدواج هـذين الأصلين نتيجة ضـرورية وهي أنكم في ضـلال مـبين ، وأما حد هـذا المـيزان وعيـاره ، فكل ما انقسم إلى قسـمين متباينين فيلـزم من ثبـوت أحـدهما نفي الآخر وبـالعكس ، لكن بشـرط أن القسـمة حاصـرة لا منتشـرة ، فـالوزن بالقسـمة الغـير المنحصـرة وزن الشـيطان ، فهـذه هي الموازين المسـتخرجة من القـرآن وهي بالحقيقة سـلاليم العـروج إلى عـالم السـماء بل إلى معرفة خـالق الأرض والسـماء ، وهـذه الأصـول المـذكورة فيها هي درجـات السلاليم.

وأما المعراج الجسماني فلا يفي به سعة قوة كل أحد بل يختص ذلك بالقوة النبوية.

فإن قلت : فما وجه التطـابق بين المـيزان الروحـاني والمـيزان الجسـماني ، وأين في مـيزان الآخـرة العمـود الواحد والكفتان ، وأين في

موازين الآخرة ما يشبه القبان.

قلنا : قد مر أن هذه المعارف التي هي سبب عروج النفس إلى معارج الملكوت مستفادة من أصلين ، فكل أصل كفة ، والحد المشترك بين الأصلين الداخل فيهما عمود ، وأما ما يشبه القبان فهو ميزان التلازم ، إذ أحد طرفيه أطول ، والآخر أقصر ، ويتولد النتيجة من ازدواج أصلين يدخل شيء من أحدهما في الآخر ، فهذه الموازين الخمسة التي يعرف بها مثاقيل الأفكار ومكاييل الأنظار في العلوم الحقيقية التي هي الأرزاق المعنوية لأهل الآخرة ، وقد أنزل الله تعالى هذه الموازين من السماء ليعلم كل أحد مقدار علمه وعقله وميزان سعيه وعمله ، ويحسب حساب رزقه وأجله ، ويحضر كتاب عمره وأمله ، فإن لكل مخلوق رزقا خاصا وبحسب كل رزق له أجل مكتوب وحساب محسوب ، والأرزاق المعنوية كالأرزاق الحسية متفاوتة في الأكل متفاضلة في دوام الحياة والأجل كما وكيفا ونفعا وضرا بل الأرزاق الأخروية أكثر تفاوتا وأشد تفضيلا من الأرزاق الدنيوية ، كما في قوله تعالى : (**وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً**) ، وقال أيضا مخاطبا لنبيه المنذر : (**ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**) ، فأمر الله نبيه بدعوة الخلائق إلى أنواع مختلفة من الرزق حسب تفاوت الغرائز والجبلات للخلق ، فالقرآن بمنزلة مائدة نازلة من السماء إلى الأرض مشتملة على أقسام من الرزق لطوائف من الناس ، ولكل منها رزق معلوم وحياة مقسوم ، فالحكمة والبرهان لقوم ، والموعظة والخطابة لقوم ، والجدل والشهرة لقوم ، ويوجد فيه لغير هؤلاء الطوائف الثلاث أغذية ليست بهذه المثابة من اللطف ، بل أنزل منها على حسب مقاماتهم في الكثافة والسفالة إلى حد القشور والنخالة ، كما في قوله تعالى : (**وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ**) ، فكما يوجد فيه اللبوب كذلك يوجد فيه التبن والقشور ، وهي للعوام الذين درجتهم درجة الأنعام كما قال : (**مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ**) ، وذلك لأن الغذاء يجب أن يكون مشابها للمغتذي.

تبصرة ميزانية

ومن الأمـــور الـــتي لا بد من معرفتها لكل أحد ممن آمن بالله وبـاليوم الآخر ، وهو أن يعلم كيفية الموازنة بين الأمور الدنيوية والأخروية ، وتحقق التطابق بين النشأتين ، فمن فتح على قلبه بإذن الله باب الموازنة بين العالمين ، عالم الملك والملكوت ، عالمي الغيب والشـهادة ، يسـهل عليه سلوك سبيل الله وملكوته ، واطلع على أكثر أسـرار القرآن وأغواره ، وشاهد حقـائق آياته وأنـواره ، مما غفل كافة علمـاء الرسـوم ومتفلسـفة الحكمـاء المشـهورين بالفضل والذكاء من هـذه الموازنة ، وهي بـاب عظيم في معرفة أحـوال الأشـياء وحقـائق الموجـودات على ما هي عليها ، سيما معرفة أمور المعاد ، وهو أول مقامات النبوة ، لأن مبادي أحوال الأنبياء عليهمالسلام أن يتجلى لهم في المنام النشأة الثانية ، ويتصوروا حقائق الأشياء في كسوة الأشـباح المثالية ، لأن الرؤيا الصـادقة جـزء من أجـزاء النبوة ، ولا يتجلى حقائق الأشـياء بلا التبـاس إلا في عـالم القيامة لقيامها بـذواتها ، وأما في هـذا العـالم فهي في أغطية من الصـور الحسـية ، والآن (**فَكَشَـفْنا عَنْـكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيـدٌ**) ، فتأمل في هـذا المقـام فعسـاك تنفتح لك روزنة إلى عـالم الملكـوت ، وإلا فما زلت متوجها إلى ملابس عالم التقليد الحيواني ، مصروف الهمة والوجهة إليه من أنوار الملكوت ، مستفيدا من آثـار الحس والتقليد ، فمحال أن يتجلى لك شـيء من عجـائب الحكمة وغوامض أسرار القيامة.

تذكير

اعلم يا حبيـبي إنك مسـافر من الـدنيا إلى الآخـرة ، وأنت تـــاجر أيضا ورأس مالك حياتك الدنياوية ، وتجارتك هي اكتساب القنية العلمية ، وهي زاد سفرك إلى معـادك ، وفائـــدتك وربحك هي حياتك الأبدية تنعمها بلقـــاء الله ورضوانه ، وخسرانك هو هلاك نفسك باحتجابك عن جـوار الله ودار كرامته.

واعلم أن الناقد بصــير لا يقبل منك إلا الخــالص من ذهب المعرفة وفضة الطاعة ، فــوزن حســناتك بمــيزان صـدق ، واحسب حسـاب نفسك قبل أن تـوافي عمـرك ، وقبل أن يحاسب عليك في وقت لا يمكنك التــــــــدارك والتلافي ، فالموازين مرفوعة ليوم الحساب وفيه الثـواب والعقــاب (**فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُـهُ فَهُـوَ فِي عِيشَــةٍ راضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ نارٌ حامِيَةٌ**).

وأما القول في ميزان الأعمال ، فـاعلم أن لكل عمل من الأعمـال الحسـنة كالصـلاة والصـيام والقيـام وغيرها ، باعتبـار تـأثيره في النفس وتخليصـها من أسر الشـهوات وتطهيرها عن غواسق الطبيعة وجـــذبها من الـــدنيا إلى الآخـرة وإصـعادها عن المـنزل الأدنى الأسـفل إلى المحل الأرفع الأعلى مقدارا معينا وقوة معينة ، وكذلك لكل عمل من الأعمال السيئة قدرا معينا من التأثير في أظلام جوهر النفس وتكثيفها وتكـــديرها وتعليقها بالـــدنيا وشـــهواتها وتقييـــدها بسلاســـلها وأغلالها ، وكل ذلك محجـــوب عن مشـاهدة الخلق في الـدنيا ، وعند وقــوع القيامة ينكشف لهم ، لأجل رفع الحجـاب وكشف النقـاب حقيقة الأمر في ذلك ، فكل أحد يرى غاية عمله وسعيه في الدنيا والآخـرة ، وقـــوة انجذابه إلى النعيم والجحيم ، ويـــرى ثقل أحد جـانبي ميزانه ورجحـان أحد كفـتي ميزانه رفعا ووضـعا ، وبالجملة كل واحد من أفراد الناس له تفاريق أعمال ، إما حسنات أو سيئات أو مختلفات ، فـإذا جمعت يـوم القيامة متفرقات حسناته أو سيئاته كان إما لأحـدهما الرجحـان أو لا ، فإن كان الرجحان للأولى كـان من أهل السـعادة وإن كان للثاني كان من أهل الشقاوة ، ومن اسـتوت حسـناته وسيئاته كان متوسطا بين الجـانبين حـتى يحكم الله فيه ، وهاهنا قسم آخر أرفع من الثلاثة ، وهم الـذين اسـتغرقوا في شـهود جلال الله ولا التفـات لهم إلى عمل صـالح أو سيئ فكسروا كفتي ميزانهم وخلصوا من عـالم المـوازين والأعمـال إلى عـالم المعـارف والأحـوال وأنـوار الجمـال والجلال.

فنقول من الـرأس : كل أحد ما لم يتخلص ذاته بقـوة اليقين ونور

الإيمان عن قيد الطبيعة وأسر الدنيا فذاته مرهونة بعمله ، فهو بحسب مزاولة الأعمـــال والأفعـــال وثمراتها ونتائجها وتجاذبها للنفس إلى شيء من الجانبين بمنزلة مـيزان ذي كفـتين ، إحـدى كفتيه تميل إلى الجـانب الأسـفل أعـني الجحيم بقدر ما فيها من متاعها متـاع الـدنيا الفانية وزادها ، والأخـرى تميل إلى العـالم الأعلى ودار النعيم بقـدر ما فيها من متـاع الآخـرة وزادها ، ففي يـوم القيامة ويـوم العرض الأكبر إذا وقع تعارض بين الكفتين ، والتجاذب إلى الجنبـتين ، فـالحكم من الله العلي الأكـبر لكل أحد في إدخاله إحـــدى الـــدارين ، دار النعيم ودار الجحيم على حسب ميزانه من جهة رجحـــان إحـــدى الكفـــتين ، كفة الحسنات وكفة السيئات.

واعلم أن كفة الحسـنات في جـانب المشـرق وكفة السـيئات في جـانب المغـرب ، وأن الأولى كفة أصـحاب اليمين والأخرى كفة أصحاب الشمال ، ثم لا يـذهب عليك أنه إذا وقع الترجيح والمجـازاة ونفذ الحكم وقضي الأمر ، تصـــير الكفتـــان كلتاهما في حكم واحـــدة في اليمينية والشـمالية والمشـرقية والمغربية والجنانية والجحيمية ، فأهل السـعادة كلتا يـديهم تصـير يمينية ، وكلتا يـدي أهل الشقاوة تصير شمالية.

قاعدة

في الحساب

الحساب جمع متفرقات شـتى ليعلم حاصل مجموعها ، وقد سـبق أنه ما من إنسـان إلا وله متفرقـات أعمـال وأقوال ، ولأعماله وأقواله المتفرقة آثار ونتائج في القلب تنـويرا وإظلاما وتقريبا إلى الله تعـالى وتبعيـدا عنه ، ولا يعلم فذلكتها ولا يعـرف جمع متفرقاتها الآن إلا الله ، فـإذا أحضـــرت الملائكة فذلكة متفرقاتها ، وحاصل أعـــدادها ، وصـورة نتائجها وجمعية ثمراتها بـإذن الله تعـالى كـانت حسابا بهـذا الاعتبـار ، وباعتبـار إثباتها في صـحيفة مكتوبة كتبها كـرام الكـاتبين كـانت كتابا ، فكل أحد يصـادف يـوم الآخـــرة جـــامع كل دقيق وفيـــدخلون جهنم بلا حســـاب ، وقسم منهم صـــدر منهم بعض الحســـنات لكن وقع في حقهم قول : (**وَحَبِطَ ما صَـنَعُوا فِيها وَباطِـلٌ ما كـانُوا يَعْمَلُونَ**) ، وقوله : وقدمنا

جليل من أعماله وأقواله في صحيفة باطنية ، طويت منا اليوم ونشرت يوم القيامة ، وهي كتاب حفيظ لقوله تعالى : (**وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ**) ، وقوله : (**لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**) ، ففي قدرة الله تعالى أن يكشف في لحظة واحدة للخلائق كلهم حاصل حسناتهم وسيئاتهم (**وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ**).

قاعدة

في الإشارة إلى طوائف الناس من جهة الحساب

الناس يوم القيامة صنفان ، صنف يدخلون الجنة ويرزقون من نعيمها ، وهم ثلاثة أقوام ، منهم المقربون الكاملون في المعرفة والتجرد ، وهم لتنزههم وارتفاع مكانتهم عن شواغل الكتاب والحساب يدخلون الجنة بغير حساب ، كما قال تعالى في حقهم : (**ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ**) ، ومنهم جماعة من أصحاب اليمين لم يقدموا في الدنيا على معصية ولم يقترفوا سيئة ولا فسادا في الأرض ، لصفاء ضمائرهم وقوة نفوسهم على فعل الطاعات وإيتاء الحسنات ، فهم أيضا يدخلون الجنة بغير حساب ، كما قال : (**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**) ، ومنهم جماعة نفوسهم ساذجة وصحائف أعمالهم خالية عن آثار السيئات والحسنات جميعا ، «فينالهم الله برحمة منه وفضل لم يمسسهم سوء العذاب»[(1)] ، لأن جانب الرحمة أرجح من جانب الغضب ، إذ لا يمكن هنا رجحان إلا مجرد الإمكان ، وتحقق قابليته مع عدم المنافي ، فهؤلاء أيضا يدخلون الجنة بغير حساب ، وقد قال : (**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**) ، وقال : سبقت رحمتي غضبي.

وأما الصنف الثاني الذين هم أهل العقاب فهم أيضا ثلاثة أقسام ، منهم صحيفة أعمالهم خالية من العمل الصالح ولا محالة يكون كافرا محضا ،

---

(1) ـ هذه ليست بآية ، بل تركيب من آيات مختلفة.

فيدخلون جهنم بلا حساب ، وقسم منهم صـدر منهم بعض الحسنات لكن وقع في حقهم قـول : (**وَحَبِـطَ ما صَـنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**) ، وقوله : (**وَقَـدِمْنا إِلى ما عَمِلُـوا مِنْ عَمَـلٍ فَجَعَلْنـاهُ هَبـاءً مَنْثُـوراً**) ، وقسم منهم وهم في الحقيقة من أهل الحساب ، حيث (**خَلَطُـوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَـيِّئاً**) ، فهـؤلاء قسـمان ، قسم من نوقش معهم في الحسـاب بكل دقيق وجليل ، لأنهم بهـذه الصفة عاشـوا في الـدنيا وعاشـروا مع الخلائق فاسـتوفوا حقـوقهم في المعـاملات مع الخلق من غـير مسـامحة ، فعومل معهم في الآخـــرة هكـــذا ، والقسم الثـــاني وهم الـذين كـانوا (**يَخـافُونَ سُـوءَ الْحِسـابِ**) ويشـفقون من عـذاب يـوم القيامة ، فهـؤلاء لا يعـذبون كثـيرا بالمناقشة معهم في الحساب ، فكيف في العذاب بالنار.

المشهد التاسع

في الجنة والنار والإشارة إلى أبواب النيران

قـــــــــال محمد بن علي بن بابويه القمي رحمه‌الله اعتقادنا في الجنة أنها دار البقــاء ودار الســلامة لا مــوت فيها ولا هــرم ، ولا ســقم ولا مــرض ، ولا آفة ولا زوال ولا زمانة ولا هم ولا غم ولا حاجة ولا فقر وأنها دار الغـــــــنى ودار الســـــعادة ودار المقامة ودار الكرامة لا يمس أهلها نصب ولا يمســــهم فيها لغـــوب و (**فِيها ما تَشْـــتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَـذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِـدُونَ**) ، وأنها دار أهلها جــيران الله وأوليــاؤه وأحبــاؤه وأهل كرامته ، وهم أنــواع على مــراتب الجنة ، منهم المتنعمــون بتسـبيح الله وتقديسه وتكبــيره في جملة ملائكته ، ومنهم المتنعمــون بأنواع المآكل والمشارب والفواكه والأرائك وحــور العين ، واسـتخدام الولـدان المخلـدون ، والجلـوس على النمـارق والزرابي ولباس السندس والحرير ، وكل منهم إنما يتلــذذ بما يشـــــــتهي ويريد على حسب ما تعلقت عليه همته ، ويعطى ما عند الله من أجله ، واعتقادنا في النــار أنها دار الهـوان ودار الانتقـام من أهل الكفر والعصـيان ، ولا يخلد فيها إلا أهل الكفر والشـــرك ، فأما المـــذنبون من أهل التوحيد فــإنهم يخرجــون منها بالرحمة الــتي تــدركهم ، والشـفاعة الـتي تنـالهم ، وفي الرواية أنه لا يصـيب أحـدا من أهل التوحيد ألم في النــار إذا دخلوها ، وإنما يصــيبهم الله الآلام عند الخـروج منها ، فيكـون تلك الآلام جـزاء بما كسبت أيـديهم وما الله (**بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**) ، وأهل النــار هم المشـركون حقا (**لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُـوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها**) ، (**لا يَذُوقُونَ فِيها**

بَرْداً وَلا شَراباً إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً) ، وإن استطعموا أطعموا من الزقوم وإن استغاثوا أغيثوا (**بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ**) ... (**رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ**) ، فيمسك الجواب عنهم أحيانا ثم قيل لهم : (**اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ**) ، (**وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ**).

وأبواب الجنان هي التي أشير إليها في القرآن بقوله تعالى : (**وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ**) ، وقوله : (**لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**) ، وقوله : (**جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ**) ، وأبواب النيران هي المشار إليه بقوله تعالى : (**ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها**) ، وقوله : (**حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها**) ، وقوله : (**لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ**) ، لكنهم اختلفوا في تعيين ماهيتها فقيل هي المدارك السبعة ، وهي الحواس الخمس الظاهرة والحاستان الباطنتان يعني الخيال والوهم ، أحدهما مدرك الصور والآخر مدرك المعاني الجزئية ، وهذه الأبواب كما أنها أبواب النيران فهي أبواب الجنان ، إذا استعملها الإنسان في الطاعات وفيما خلقها الله لأجله ، وللجنة باب ثامن مختص هو باب القلب ، وقيل هي الأعضاء السبعة التي وقع التكليف بها ، وقيل هي الأخلاق السيئة للجحيم ، ومقابلاتها من الأخلاق الحسنة للجنة ، وهي مثل الحسد والكبر والبخل والعجب والنفاق وغير ذلك ، فلا يبعد أن يكون لها سبعة جوامع ، لكل منها شعب كثيرة ، أو هي أبواب ، والقول الأول أقرب إلى الصواب ، فإن كلا من المشاعر السبعة باب إلى الشهوات الدنيوية التي ستصير نيرانات محرقة في الآخرة ، وهي أيضا أبواب لإدراكات المعارف التي يثاب بها في الجنة ، وإن كلا منها فيه باطن وظاهر ، (**باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ**) ، وإذا غلقت أبواب النيران فتحت أبواب الجنان ، بل هي على شكل الباب الذي إذا فتح على موضع انسد عن موضع آخر ، فعين غلقه على منزل عين فتحه إلى منزل آخر إلا باب القلب وهو الباب الثامن ، فإنه مغلق دائما على أهل الحجاب الكلي والكفر ، وهو مختص بأهل الجنة ولا ينفتح لأهل النار ،

(**فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ**) ، والنار لها على الأفئدة اطلاع لا دخول لغلق ذلك الباب عليها ، فما ذكر الله من أبواب النار إلا السبعة التي يدخل منها الناس والجان ، وأما الباب المغلق الذي لا يدخل فيه أهل الكفر والاحتجاب ، فباطنه محل الإيمان والعبودية. وفي الحديث التراب لا يأكل محل الإيمان ، وما فيه ، سعيد في الدنيا والآخرة ليس للعذاب والشقاء فيه مدخل ، فهو كالجنة حفت بالمكاره ، وباطنه فيه الرحمة وظاهره فيه العذاب ، وهي النار (**الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**). وأما منازل جهنم ودركاتها وخوخاتها [1] فعلى قياس ما يذكر في الجنان ، وأما أسماء أبوابها السبعة فهي باعتبار الإضافة إلى منازلها ، باب جهنم ، وباب الجحيم ، وباب السعير ، وباب السقر ، وباب اللظى ، وباب الحطمة ، وباب السجين ، والباب الثامن المغلق الذي لا يفتح فهو الحجاب والسد ، وأما خوخات النار فهي شعب الكفر والفسوق ، وكذا خوخات الجنة هي شعب الإيمان والطاعة ، فمن عمل من خير فإنه يراه في الآخرة ، وأما الشر فقد يراه وقد يعفى عنه.

تنبيه

اعلم أن باطن الإنسان في الدنيا هو ظاهره في الآخرة ، وما كان لها غيبا هاهنا يصير شهادة هناك ، والحق أن إطلاق أبواب الجنان على هذه المشاعر من باب التوسع ليس على الحقيقة ، لأن باب الدار ما إذا فتح فتح إليها ، وبه يقع الدخول إليها بلا مهلة ، وما هي إلا الحواس المحشورة مع النفس الباقية معها ، فإن للنفس في ذاتها كما مر سمعا وبصرا وشما وذوقا ولمسا وتخيلا وتصرفا وفعلا وحركة ، وإن لها عينا باصرة (**إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ**) ، وأذنا سامعة يسمع بها كلمات الملائكة وأصوات طيور الجنان ونغماتها ، وشما يشم به روائح الأنس ونسائم القدس ، وذوقا يذوق به طعوم

---

(1) ـ الكوة ـ الباب الصغير في الباب الكبير.

الجنة ، ولمسا يمس به حـــــور العين ، وهي المشـــــاعر الروحانية والحــواس الباطنية ، وإنها مع محسوســاتها من أهل الجنة إن لم يحجبها سد ولم يمنعها مــانع ، وأما هــذه الحواس فهي داثرة ومحسوساتها مسـتحيلة كائنة فاسـدة تــوجب العـذاب الأليم والحرمـان عن النعيم ، ويـؤدي إلى الهاوية ويحـــترق بنـــار الجحيم ، فكل نفس تتبع الهـــوى وتسخر الشهوة عقلها ، ويستخدمها الشـيطان ويسـتعبدها ، كما قال : (**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَـواهُ وَأَضَـلَّهُ اللـهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً**) ، فيصير على كل من مشاعره السـبعة له سـببا من أسباب طاعته للهوى وانقيـاده للشـهوات وعدوله عن طريق الهـــدى ، وبابا من أبـــواب الوقـــوع في المهالك ، (**فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**) ، فيكـــون حاله كما أفصح عنه قوله تعـــــالى : (**فَأَمَّا مَنْ طَغى وَآثَـــــرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى**) ، فظهر أن كل مشعر من المشـاعر بـاب من أبـواب جهنم ، (**لَها سَـبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ**) ، وأما القلب فـإذا تنور بنـور المعرفة والإيمـان وخـرج من القـوة إلى الفعل كالحديد إذا صقل وخرج من الحديدية إلى المرآتية ، صـــار كعين صـحيحة اسـتنارت بنـور الملكـوت الأعلى ، فيطـالع بكل مشـــعر آية من آيـــات ربه الكـــبرى وبابا من أبـــواب معرفة ربه الأعلى فينتزع من صـورها المحسوسة معـاني كلية ، ويفهم منها أسـرار إلهية يقف عليها ويسـتعد بـذلك للسعادة القصـوى ومجـاورة الـرحمن (**فِي مَقْعَدِ صِـدْقٍ عِنْـدَ مَلِيـكٍ مُقْتَـدِرٍ**) ، وهـذا بخلاف حـال أهل الهـوى والجهالة المعرضين عن سماع آيات الله ،

مصرين مستكبرين كما قال سبحانه : (**يَسْـمَعُ آيـاتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها**) ... (**كَـأَنَّ فِي أُذُنَيْـهِ وَقْـراً فَبَشِّـرْهُ بِعَـذابٍ أَلِيمٍ**) ، وهم الذين غلقت عليهم الأبـواب وسـدت عليهم الطـرق كقوله تعــالى : (**وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ سَـدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَـدًّا فَأَغْشَـيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِـرُونَ**) ، فلا لهم قـــوة نظرية لإدراك المعقـــولات الإلهية ، ولا أيضا لهم ســـلامة قلب في تلقي السـمعيات الدينية ، فلا جــرم حـــالهم في القيامة كما اعـترفوا به حين ما لا تنفعهم ذلك الاعـتراف ، (**قـالُوا لَـوْ كُنَّا نَسْـمَعُ أَوْ نَعْقِـلُ ما كُنَّا فِي أَصْـحابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ**) ، فقد وضح وانكشف

أن جميع هـذه المشـاعر الثمانية يصـلح لأن يصـير أبـواب الجنــان في حق من صــرفها فيما خلق الله لأجله ، (**وَأَمَّا مَنْ خـافَ مَقـامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوى فَـإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَـأْوى**) ، والســبعة منها أبــواب الجحيم في حق من صـرفها في الـدنيا ولـذاتها ، لـذات عـالم الـزور وآلات القبور (**فَأَمَّا مَنْ طَغى وَآثَرَ الْحَيـاةَ الـدُّنْيا فَـإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى**).

فـإن قلت : بـاب الـدار يشـبه الـدار ، والجنة والنـار داران متخالفتان في نحو الوجود وتجوهر الحقيقة ، فكيف يصح أن يكون المشاعر الإنسانية تصلح لأن يكـون أبــواب الجنة وأبواب الجحيم جميعا.

قلنا الســـمع والبصر وغيرهما الـــتي لأهل الســـعادة تخالف بـالنوع عنـدنا لما بإزائها من الـتي لأهل الشـقاوة ، وإن وقع الاشــتراك بينهما في أصل الحاســية والشــعور ، فـإن مــدارك أهل الجنة ومــرائيهم منــورة بنــور المعرفة والتقوى ، ومرائي هؤلاء المخذولين مغشاة بغشاوة الطبع ، مظلمة بظلمـــات النفس والهـــوى ، وبالجملة الســـمع والبصر والفؤاد التي لأولئك الأصـحاب قد وقع لها التبـديل الأخروي والتحويل الإلهي الذي به يسـتأهل لأن يكـون من أبواب الجنة التي هي دار الحسنات ومنزل الخيرات ، وأما السـمع والبصر والفـؤاد الـتي لأصـحاب النـار فقد وقع لها التبديل أيضا ولكن صار أنجس وأظلم مما كانت فصـلحت وناسبت لأن يكون مـداخل وأبوابا لـدار الظلمـات ومعـدن البـــوار والشـــرور والآفـــات ، قـــال الله تعـــالى : (**أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْـتَقِيمٍ قُـلْ هُـوَ الَّذِي أَنْشَـأَكُمْ وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصـارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْـكُرُونَ**) ، فما أشد حال المكـبين على وجـوههم في اسـتعمال الحـواس وصرف القوى ، وما أبعد عن حـال من يمشي سـويا على سبيل الله الذي أفاده سمعا وبصـرا وفـؤادا اسـتعملها في المعرفة والعبودية شاكرا لله ، فأين هـؤلاء ومـداركهم من هؤلاء ومداركهم فافهم إن شاء الله.

المشهد العاشر

في الإشارة إلى الزبانية وعددها

قال تعالى : (**عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَــةً وَما جَعَلْنا عِــدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَــةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتـابَ**) ، ... (**وَلِيَقُـولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ وَالْكـافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللـهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ**).

واعلم أن مدبرات الأمـور في بـرازخ عـالم الظلمـات وأشباح عالم الطبيعة التي ظاهرها الدنيا وباطنها طبقــات الجحيم هي المشــار إليه بقوله : (**فَالْمُدَبِّراتِ أَمْـراً**) بعد قوله : (**فَالسَّـابِقاتِ سَـبْقاً**) ، لأن وجــود كل منها تحت وجـود جـوهر قدسي مفـارق الـذات سـابق الوجـود على النفســانيات والطبيعيــات المــدبرات كروحانيــات العــالم الكبـير الجســماني والعـالم الصـغير الإنســاني ، فهي في العـالم الكبـير العلـوي أرواح الكـواكب السـيارة والـبروج الاثني عشـرية والمجمـوع تسـعة عشر مـدبرا ، وكـذا في العــالم الصــغير البشــري هي رءوس القــوى المباشــرة للتدبير والتصرف في البرازخ السفلية تسعة عشر قــوى ، سبعة منها مبـادي الأفعـال النباتية وأسـبابها وقواها ، ثلاثة منها الأصــــول في فعل التغذية والتنمية والتوليد ، وأربعة منها الفروع والخوادم ، واثنا عشر منها مبادي الإدراكات ، خمسة ظــاهرة وخمسة باطنة واثنــان مبــدءان قريبــان للتحريك ، أحدهما الشهوة مبـدأ الجـذب الملائم ، والثـاني الغضب مبدأ الدفع

المنافر ، فإن لكل من هذه التسعة عشر مدخلا في إنـارة نـار الجحيم الـتي منشـؤها ثـوران حـرارة جهنم الطبيعة وشهواتها التي هي نيرانات كامنة اليوم عن نظر الخلائق ، وسـتبرز يـوم القيامة بحيث يراها النـاس محرقة للجلـود مذيبة للأبدان ، قطاعة (**نَزَّاعَةً لِلشَّوى تَـدْعُوا مَنْ أَدْبَـرَ وَتَوَلَّى**) ، (**وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكـانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبـاً**)» ، والإنسان ما دام كونه محبوسا في الـدنيا بهـذه المحـابس الداخلية والخارجية الـــتي باطنها مملـــوءا بنـــار الجحيم ، مســـجونا بســـجن الطبيعة مقبوضا أســـيرا في أيـــدي المـدبرات العلوية التسـعة عشر ، والمـؤثرات السـفلية التسـعة عشر ، لا يمكنه الصـعود إلى عـالم الجنـان ودار الحيـوان ومنبع الـروح والريحـان ، فهو لا يـزال معـذب بعـــذاب الجحيم محـــترق بنـــار الحميم مقيد بالسلاسل والأغلال كالأســـــارى والعبيد ، وحاله كما أفصح الله عنه بقوله : (**خُـــذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَـــلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِـلَةٍ ذَرْعُها سَـبْعُونَ ذِراعـاً فَاسْـلُكُوهُ**) ، لعـدم اسـتكمال نفسه بـالعلم والعمل ، ليصـير كـالأحرار خلاصا عن الأسر والقيد ، ولـذا وقع التعليل بـترك العلم والعمل في قوله : (**إِنَّهُ**) أي لأنه (**كـانَ لا يُـؤْمِنُ بِاللـهِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْـكِينِ**) ، فـالأول إشـارة إلى ترك العلم ، والثاني إلى تـرك العمل الصـالح ، فـإذا انتقل من هذا العالم إلى عالم الآخرة الـتي هي في داخل حجب السماوات والأرض كما مر ينتقل من السجن إلى السجين ، وكـــان هاهنا أيضا مســـجونا محاطا بـــالجحيم ، ولكن لا يحس بـألم السـجن وعـذاب الحبس ، (**فَلَيْسَ لَهُ الْيَـوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ وَلا طَعـامٌ إِلَّا مِنْ غِسْـلِينٍ لا يَأْكُلُــهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ**) ، فـإذا كشف عنه الغطـاء أحس بـذلك وانتقل العـذاب من باطنه في الـدنيا إلى ظـاهره في الآخـرة ، فيؤديه المالك إلى أيدي هـذه الزبانية التسـعة عشر الـتي هي من نتائج تلك المـدبرات الكلية ، فيتعـذب في الآخـرة بها ، كما كـان يتعـذب بها في الـدنيا من حيث لا يشـعر ، ومن كان على هدى من ربه مستويا على صراط مستقيم صراط الله (**الْعَزِيـزِ الْحَمِيـدِ**) ، فيسـلك سـبيل الله بنـور الهداية بقدمي العلم والعمل يصل إلى دار السلام ويسـلم من هـذه المعـذبات والمهلكـات ، ويتخلص عن رق الـدنيا وأسر الشـهوات ، (**ضَرَبَ اللـهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيـهِ شُـرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَـلَماً لِرَجُـلٍ هَـلْ يَسْـتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**).

المشهد الحادي عشر

في الإشارة إلى درجات الجنان ودركات النيران

قال بعض المحققين : الخلق اتصف أولا بالوجود ، ثم بـــالعلم ، ثم بالقـــدرة ، ثم بـــالإرادة ، ثم بالفعل ، وحيث يكـــون المعـــاد عـــودا إلى الفطـــرة الأصـــلية ورجوعا إلى البداية في النهاية ، فلا بد أن ينتفي منه هـــذه الصـــفات على التدريج والترتيب المعاكس للترتيب الأول الحدوثي ، فالسالك إلى الله تعالى بقدم الإيمان ونـور العرفـان لا بد ان ينتفي منه أولا الفعل ، وهو مرتبة التقـــوى والزهد في الدنيا ، ثم لا بد أن ينتفي منه الاختيـار ، ولم يبق فيه إرادة واختيـــار ، بل يســـتهلك إرادته في إرادة الله ، (**وَما كـانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذا قَضَـى اللـهُ وَرَسُـولُهُ أَمْـراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**) ، لأن جميع الأشياء صادرة عنه تعالى على أبلغ وجه وأحكم نظـام ، فـإذا تقـرر له هـذا المقـام واســـتقام فيه ، رضي بالقضـــاء وحصل له مقـــام الرضا واســتراح له من كل هم وغم ، لأنه رأى الأشـياء كلها في غاية الجودة والحسن والنظـام والتمـام ، ورأى رحمة الله (**وَسِـعَتْ كُـلَّ شَـيْءٍ**) بل رأى في كل شـيء وجه الحق البـاقي ، ورأى الحسن المطلق والجمـال المطلق متجليا عليه وعلى كل شيء فيكون مبتهجا به ملتذا راضيا ، فـإن من رأى صورة جملة العالم مكشوفة لديه ، حاضرة عنده حضورا علميا على أحسن ترتيب وخير نظـام وأجـود نسق وتمـام ، من جهة العلم بأســبابه ومباديه الآخــذة من عند الله ، وعند ذلك قد تبـدلت عليه صـور الأشـياء عما كـانت هي عليه عنـــده أولا ، فصـــارت الأرض غـــير الأرض والسماوات غير السماوات ، وهكذا كل شيء

حتى نفس ذلك السالك ، فإنه قد تبدل وجـوده الظلمـاني بوجود نوراني مطهرا مذهوبا عنه رجس الجاهلية ، فيكون في جنة (**عَرْضُـهَا السَّـماواتُ وَالْأَرْضُ**) ، وبهـذا الوجه يسمى خازن الجنة الرضوان ، لأن الإنسان ما لم يبلغ إلى هـذا المقـام من الرضا لا يـدخل الجنة ولا يصل إلى دار الكرامة والقـرب ، كما ورد في الحـديث الإلهي من لم يـرض بقضـائي ولم يصـبر على بلائي فليعبد ربا سـوائي وليخـرج من أرضي وسـمائي ، وقـال تعـالى : (**وَرِضْوانٌ مِنَ اللـهِ أَكْبَـرُ**) ، ثم بعد هـذا المقـام لا بد أن ينتفي عن السالك القدرة ، حتى لا يرى لنفسه حولا ولا قـوة وقـدرة مغايرة لقـدرة الحق وقوته الـتي لا يخـرج منها شـيء من المقدورات ، فيكون في مقام التوكل (**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللـهِ فَهُـوَ حَسْـبُهُ إِنَّ اللـهَ بـالِغُ أَمْـرِهِ**) ، وهو مقـام التفـويض (**وَأُفَوِّضُ أَمْـرِي إِلَى اللـهِ**) ، ثم بعد ذلك لا بد أن ينتفي منه صـفة العلم لاضـمحلال علمه في علم الله الـذي (**لا يَعْـزُبُ عَنْـهُ مِثْقـالُ ذَرَّةٍ فِي السَّـماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ**) ، كما في قوله حكاية عن الملائكة الـــذين انخـــرطت علـــومهم في علم الله : (**لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا**) ، وهو مقــام التســليم كما قــال : (**وَسَــلِّمُوا تَسْلِيماً**) ، وقوله : (**فَسَلامٌ لَـكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ**) ، وقوله : (**سَــلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِـدِينَ**) ، ثم بعد ذلك لا بد أن ينتفي وجـــوده الـــذي به يوجد الآن في وجود الحق الذي به يوجد كل شيء ويقوم ، وبنوره يظهر كل ظل وفيء ويـدوم ، حـتى لا يكـون له في نفسه عند نفسه وجـــود ، وهـــذا مقـــام أهل الوحـــدة ، وهو أجل المقامــات وأفضـلها أعـني الفنـاء في التوحيد ، «اولئك الـــذين (**أَنْعَمَ اللـــهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّـــدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ**) ، قوله : (**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِـــدِ الْقَهَّارِ**) ... (**وَيَبْقى وَجْـــهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْـرامِ**) فهـذه نهاية درجة السـالكين إلى الله «وليس وراء عبادان قرية».

وأما من لم يسـلك سـبيل أهل الوحـدة والعرفـان ، وكانت أفعاله على حسب إرادته ومقتضى طبعه كـان كما أشـير إليه بقوله تعـالى : (**وَلَـوِ اتَّبَـعَ الْحَـقُّ أَهْـواءَهُمْ لَفَسَـدَتِ السَّـماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَ**) ، فيصـير لا محالة ممنوعا عما اسـتدعاه هـواه ، محجوبا عن مقتضى طبعه ومشـــتهاه ، كما قـــال : (**وَحِيـــلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْـتَهُونَ**) ، فوقع في سـخط الله ونـار غضـبه ، (**أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللهِ كَمَنْ**

بـــاءَ بِسَــخَطٍ مِنَ اللــهِ) ، وأوصــله الهــواء إلى الهاوية محروما عن جميع ما يهـــواه قلبه وهـــواه ، ويقيد ويغل بالسلاسل والأغلال كما هو صــفة المماليك والعبيد ولهــذا الوجه يسـمى خـازن النـار والهاوية بالمالك ، فيكــون له بـإزاء كل درجة من درجـات أهل الجنة دركة في الجحيم ، فله بإزاء درجة التوكل دركة الخذلان كما في قوله : (**وَإِنْ يَخْـذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُــرُكُمْ مِنْ بَعْــدِهِ**) ، وبــإزاء درجة التسـليم دركة الهـوان قوله : (**وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ**) ، وفي مقابلة درجة القرب والوحـدة دركة الطرد واللعنة (**أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**) ، وكما أن انتفاء القدرة والعلم والوجـود في الطائفة الأولى أوجب لهم القـدرة الغـير المتناهية والعلم الـذاتي اللـدني والوجود المخلد الأبدي ، فكذلك في هــذه الطائفة اقتضى اسـتبدادهم بهـذه الصـفات عجـزا غـير متنـاه وجهلا كليا وهلاكا سرمديا ، وذلك هو الخزي العظيم.

ومما ورد في هــذا البــاب من أحــاديث رواها ثقــات أصحابنا رضوان الله عليهم ما رواه شيخ المحــدثين محمد بن علي بن بابويه في كتابه المسمى بمعاني الأخبار.

المشهد الثاني عشر

في سر شجرة الطوبى وشجرة الزقوم

قال سبحانه : (**طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**) ، وقال (**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ**) أي طعام الآثمين ، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم يعني طبيعة الدنيوية ، طلعها كأنه رءوس الشياطين والطلع عبارة عن مبدإ وجود البذر الموجب لحصول الأثمار وبروزها عن الأكمام ، والأثمار هي الأغذية ، كأنه أي كل طلع منها رأس شيطان من الشياطين وهي الأهوية المردية المغوية والأماني الباطلة التي تتغذى بها وتتقوى نفوس أهل الضلال ، ويمتلي بها طبائعهم وبواطنهم من الشهوات الدنيوية الموجبة لنار الجحيم والعذاب الأليم ، قال تعالى : (**ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ**) ، أي يملئون بطونهم أي نفوسهم من الشهوات ومواد الأمراض النفسانية الباعثة لفنون من العذاب وأنواع من المحن والآلام في الآخرة ، كمن أدى به نهمته إلى الحمى والصداع وغيرها من الأوجاع والأمراض.

واعلم أن النفس الإنسانية إذا كملت في العلم والعمل صارت كشجرة طيبة فيها ثمرات العلوم الحقيقية وفواكه المعارف اليقينية ، وكانت أصولها علوم ثابتة ، وفرعها نتائج هي حقائق عالم الملكوت ومعارف عالم اللاهوت ، هذا من حيث قوة العلم والإدراك ، وأما من حيث قوة العمل والتأثير ، فكون الإنسان بحيث كلما تريده نفسه وتشتهيه فيحضر عنده بقوته الباطنية القوية على إحضار الصور المطلوبة دفعة من غير مهلة ، لما مرت الإشارة إليه سابقا

أن بــاطن الإنســان في الــدنيا هو ظــاهره في الآخــرة وظـاهره في الآخـرة باطنه في الـدنيا ، والإنسـان يتصـور ويخـــترع هاهنا بقوته الخيالية مشـــتهيات كثـــيرة ، يحضر صورها في عالم التمثل الذهني ، إلا أن تلك الصور ليست بمحسوسة ولا حاضــــــرة عند حسه في العين ، بل عند خياله في الـــذهن ، ولأجل ذلك لا يعظم لذته منها ، بل لا يلتذ منها أصلا للشــواغل الحســية ، وأما إذا كــان يــوم القيامة ، وكان الباطن مكشوفا ظاهرا والعلم عينا والغيب شهادة والـذهن خارجا ، كـانت اللـذة على حسب الظهـور والوجود ، لأنها نزلت تلك الصور بمنزلة الصورة الموجودة في العين ، ولن تفارق الآخرة الدنيا في هـذا المعـنى ، إلا من حيث كمــال القــوة والقــدرة للنفس الإنســانية على تصــوير الصــور عند القــوة الحاسة ، كما تشــتهيه ، وكلما تشتهيه الإنسان السعيد حضر عنده دفعة ، وتكون شـهوته ســــبب تخيله وتخيله ســــبب تمثل الصـــــورة بين يديه وحضـــورها لديه كما قــال تعــالى : (**فِيها ما تَشْــتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَــذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِــدُونَ**) ، وقوله : (**وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ**) ، وهذه القـدرة أوسع وأكمل من القدرة على إيجاد الشيء في الدنيا أي في خارج الحس ، فإن الموجود في الدنيا لا يوجد في مكـانين ولا في مكـان واحد يوجد اثنــان للــتزاحم والتضــايق الــواقعين في هــذا العــالم ، وأيضا النفس إذا اشــتغلت بمحســوس خــارجي احتجبت به عن الآخر ، فشـغلها محسـوس عن محسـوس وحجبتها لذة عن لذة أخـرى ، والملذ أيضا ليس بقـوي في إلـذاذه لانغمـاره في المـادة وامتزاجه بغـيره ، وكـذا في الآلم والمــولم وهاهنا كله بخلاف ما في الــدار الأخــرى ، فإن الصور المحسوسة هنـاك ، يتضـاعف عند الإنسـان بلا مزاحمة ولا تضايق ، ولا يستحيل هناك وجود محسوســات غير متناهية دفعة ، إذ لا يجري فيه بـراهين امتنـاع الأمـور الغير المتناهية مجتمعة ، وأيضا لا يشغل النفس بعض تلك المحسوســات عن بعض ، ولكونها صــورا بلا مــادة تكــون اللذة بها مفطرة لخلوصها عن الشوائب والمكدرات.

فـإذا تقـرر هـذا فثبت أن مثـال شـجرة طـوبى مثـال للنفس السعيدة

الكريمة علما وعملا.

وقد روي عن طريق أصــحابنا رضــوان الله عليهم أن طــــوبى شــــجرة أصــــلها في دار علي بن أبي طـــالب عليه‌السلام وليس مؤمن إلا وفي داره غصن من أغصــانها ، وذلك قوله تعالى : (**طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَــآبٍ**) فتأويل ذلك من جهة العلم أن المعــارف الإلهية ســيماً ما يتعلق بأحوال الآخرة وما لا يستقل بإدراكه العقــول على طريقة الفكر البحــثي إنما يحتــاج فيها إلى اقتبــاس النــور عن مشكاة نبوة خاتم الأنبياء صـلى‌الله‌عليه‌وآله بواسـطة أول أوصيائه وأشرف أولياء أمته ، فإن أنوار العلوم الإلهية إنما انتشــرت في نفــوس المســتعدين من بــدر ولايته ونجم هدايته ، كما أفصح قــول النــبي صــلى‌الله‌عليه‌وآله : أنا مدينة العلم وعلي بابها ، وذاته المقدسة بالقيـــــاس إلى سـائر الأوليـاء والعلمـاء بـالولادة المعنوية كـذات آدم أبي البشر في الــولادة الصــورية ، ولهــذا ورد عن النــبي صلى‌الله‌عليه‌وآله : يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة.

قـــال العــارف المحقق في الفتوحــات المكية : إن شجرة طوبى لجميع شـجرات الجنـان كـآدم لما ظهر منه من البنين ، فإن الله لما غرسـها بيـده وسـواها ونفخ فيها من روحه ، ولما تـولى الحق غـرس شـجرة طـوبى بيـده ونفخ فيها من روحه زينها بثمرة الحلي والحلل اللذين هما زينة للابسها ، فنحن أرضها فـإن الله جعل ما على الأرض زينة لها وأعطت في ثمــرة الجنة كله من حقيقتها عين ما هي عليه ، كما أعطت النـواة النخلة وما يحمله مع النـوى التي في ثمرها انتهى كلامه.

وقد ظهر منه أن شــجرة طــوبى يــراد بها أصــول المعارف والأخلاق ليكـون الزينة للنفـوس القابلة ، كما أن ما على الأرض زينة لها ، وذلك لأن أرض تلك الشـجرة إذا كانت نفوسنا فحللها لا بد أن تكـون من قبيل زينة العلـوم والمعارف ومحاسن الأخلاق والملكات.

قاعدة

في كيفية تجدد الأحوال والآثار على أصحاب الجنة وأصحاب النار

أما أهل النار فلا شبهة في تجدد أحوالهم وتبدل جلودهم واستحالة أبدانهم ، وتقلبها من صورة إلى صورة لقوله تعالى : (**كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ**) ، ولا شبهة في أن تبدل الأبدان واستحالة المواد لا بد فيه من حركة دورية صادرة عن أجسام سماوية محيطة بأجسام ذوات جهات متباينة كائنة فاسدة ، فيكون الحكم في أهل النار بحسب ما يعطيه الأمر الإلهي بما أودعه من القوة المحركة الجابرة للفلك الأقصى على حركاته ، والكواكب الثابتة في سباحة الدراري السبعة المطموسة الأنوار ، فهي كواكب لكنها ليست بثواقب ولا مضيئة ولها تأثيرات في حق أهل النار بفنون من العذاب وصنوف من العقاب بحسب ما يقتضيه سوابق أعمالهم ومبادي أفعالهم واعتقاداتهم ونياتهم ، ولهذا قال بعض العرفاء إن حكم النار وأهلها يقرب من حكم الدنيا وأهلها ، وليس للذين هم من أهلها الخالدين فيها بعد استيفاء العذاب وانقضاء مدة العقاب نعيم خالص ولا عذاب خالص ، كما قال : (**لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى**) ، والسبب في ذلك أنه بقي فيهم ما أودع الله فيهم من آثار حركات الأفلاك ، ولم يقع لهم توفيق الخروج من حكم الطبيعة وتأثيرها ، فلا جرم لم ينجوا من عذاب النار وإن تغير منهم على قدر ما تغير من صور الأفلاك والكواكب من التبديل والطمس والانكدار والانتثار ، ولا تغير لها بحسب الذات إلا ما شاء الله كما قال : (**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ ، إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ**).

وأما أصحاب الجنة فليس لهم هذا التبدل والاستحالة والكون والفساد ، لارتفاع نشأتهم عن نشأة الطبيعة وحكمها ، فحركاتهم وأفاعليهم نوع آخر ، ما فيها نصب ولا تعب وأعمالهم ما فيها لغوب لأن السماوات و

حركاتها مطوية في حقهم ، لأنهم من أصـــــحاب اليمين ، ولهم مقام فيه يطوي الزمـان والمكـان ، فزمـانهم زمـان يجمع فيه الماضي والمستقبل من هذا الزمـان ، ومكـانهم مكان يحضر فيه جميع ما يسعه السـماوات والأرض ، ومع ذلك تكون الجنة ونعيمها من المحسوسـات بلا شـبهة ، إلا أنها ليست طبيعية مادية ، بل محسوسة ، ووجودها وجـود إدراكي حيـــواني مجـــرد عن عـــالم الطبيعة والهيـــولى المستحيلة الكائنة الفاسدة ، كما أن ما يـراه الإنسـان في عـالم نومه محسوسـات بلا شـبهة إلا أنها غـير طبيعية ، والنوم جزء من أجزاء النبوة ونشأته مثال نشأة الآخرة.

قال العارف المحقق في الفتوحات المكية في البـاب السابع والأربعين منها ، فلا يـزال الآخـرة دائمة التكـوين ، فإنهم يقولون في الجنان للشيء الذي يريدونه كن فيكون ، فلا يتمنون أمرا ولا يخطر لهم خـاطر في تكـوين أمر إلا ويتكون بين أيديهم ، وكذلك أهل النار لا يخطر لهم خـاطر خوفا من عـــذاب أكـــبر مما هم فيه إلا ويكـــون فيهم ذلك العذاب ، وهو حضور الخاطر ، فـان الـدار الآخـرة يقتضي تكوين الأشياء حسا بمجرد حصول الخـاطر والهم والإرادة والشهوة ، كل ذلك محسوس وليس ذلك في الدنيا أعـني الفعل بمجرد الهمة لكل أحد انتهى كلامه.

ومن عـرف كيفية قـدرة الله في وجـود الخيـال ، وما تجده النفس من صور الأجرام والأبعـاد العظيمة وصـفاتها وأحوالها في طرفة عين ، هـــان عليه التصـــديق بتجسد الأرواح وتصـور النيـات وحضـور المشـتهيات دفعة بمجـرد الهمة والقصد والشهوة ، لا من جهة مادة جسمانية ، ومن هـذا القبيل تمثل الأشـخاص الملكية عند الأنبيـاء والأوليـاء عليهمالســلام ونــزولهم بــالوحي والكرامــات في صـــور الأجســام المحسوسة ، لظهــور ســلطان الآخـــرة على قلـــــوبهم وقـــــوة بـــــاطنهم ، وقد يقع الاشـــتباه لبعض المكاشفين فيما يراه من الصور المتمثلة الحاضـرة عنـده هل رآه بعين الحس أو بعين الخيـــال ، والحق أنها صـــور محققة الوجود وهي أقوى تحصلا من الصور الطبيعية ، إلا أن شـــرط تحققها على الوجه الأتم غلبة القـــوة الفاعلة النفسانية أعني المصورة وحفظها

إياها بالهمة الشــــديدة ، فـــإن هـــذه الصــــور كما توجد بمشاركة المادة واستعدادها وجهات القابلية ، كـذلك توجد من الفاعل بمجرد جهات الفاعلية من غير مشاركة المادة ، وهكـذا الصـور الـتي أوجـدها الله لأهل الجنة وأعطـاهم الاقتــدار على إنشــائها وحفظها بقــوة العزيز الحميد ، ولا يـؤدهم حفظهم إياها ، لأن ذلك الإنشـاء والحفظ ليس من جهة قـــوة مادية أو آلة طبيعية يكلها تكــرر الأفعــال ، ولا بوسيطة حركة توجب التعب والانفعال والتغير ، بل بمجرد القصد والهمة والشــــهوة ، كما أن الحـــــال في تخيلات الإنســان وإحضــار الصــور المتمثلة في الخيــال على هـذا المنوال ، حيث لا يوجب بقوته الإدراكية كلالا وتعبا ولا فيها نصب ولا لغــوب ، ومن هاهنا يعلم أن القـــوة الخيالية منا ليست من القـوى الطبيعية بل النفسـانية ، ولا من الأمـور الدنيوية بل من الأمـور الأخروية الـتي سـتبرز عند القيامة فهي مفارقة الجــــوهر عن هـــذا العـــالم ، نعم لها تعلق تصـرف وتحريك بهـذه الطبيعة المنطبعة في هـذا الجسم المســتحيل ، وهــذه الطبيعة أيضا متصــلة بها وواســطة لتعلقها بهذا البدن المتبـدل الكـائن الفاسد في كل آن كما مر ذكره مــرارا فما دامت الطبيعة البدنية موجــودة طرية قوية ، فتلك القوة النفسـانية ضـعيفة القـوام والتـأثير في تصــويراتها المثالية وإنشــائها النشــأة الثانية ، وإذا دثــرت الطبيعة وبــادت المــادة أو ضـعفت ووهنت ، قــويت قــوة الباطن وأصبحت القوة النفسانية مخترعة للصـور الخيالية على الوجه الأقوى ، فصـار الحس والخيـال واحـدا حينئذ ، والمتخيل بعينه محسوسا والمحجـوب مكشـوفا والمعلـوم حاضرا ، كقوله : (**عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ**).

تمت

فهرس الايات القرآنية